جامعة اليرموك

كلية الآداب

قسم اللغة العربية

الدهر في شعر ابن زيدون

(دراسة تحليلية)

Aeon in the Poetry of Ibn Zaidoun

(Analytic Study)

إعداد الطالب

يوسف غازي العتوم

الرقم الجامعي

2010200036

إشراف الأستاذ الدكتور

يونس شنوان شديفات

الدهر في شعر ابن زيدون

(دراسة تحليلية)

إعداد

يوسف غازي العتوم

دكتوراه لغة عربية / أدب ونقد

قدمت هذه الدراسة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في اللغة العربية / أدب ونقد

لجنة المناقشة

أ. د. يونس شنوان الشديفات ..... مشرفاً ورئيساً

أ.د صلاح محمد أحمد جرار..... مناقشاً

أ.د ماجد الجعافرة ..... مناقشاً

أ.د موسى ربابعة..... مناقشاً

أ.د مي أحمد يوسف ..... مناقشاً

الإهـــــداء

إلى من أوجب الله تعالى عليّ برهما والإحسان إليهما،

إلى من أحاطاني بحنانهما صغيراً وكبيراً، وقدما إليّ كل عناية،

صاحبي العطاء الذي لا ينضب، ولا يتبعه منّة ولا أذى...والدي

وإلى من منحوني العزم والقوة... إخواني جميعاً.

وإلى من أعانتني على إكمال هذا العمل ... زوجتي العزيزة.

وإلى كل من له عندي حقّ من أساتذتي وأصدقائي...

وإلى من تعهد بطباعة البحث الأخ والصديق معاوية العتوم...

أهدي هذا الجهد.

الشكر والتقدير

يجب الاعتراف بالفضل بعد الله للأستاذ الدكتور يونس شنوان شديفات، لما بذله من عناءٍ في مراجعة الدراسة، وتقويم ما أعوج منها، فالكلمات لا تكاد تسعفني في شكره، فكان خير ناصح وخير موجهٍ، فجزاه الله خير الجزاء على عظيم صنيعه.

والشكر والتقدير موصولان للأساتذة الفضلاء أعضاء لجنة المناقشة كل من الأستاذ الدكتور صلاح محمد أحمد جرار، والأستاذ الدكتور ماجد الجعافرة، والأستاذ الدكتور موسى الربابعة، والأستاذة الدكتورة مي أحمد يوسف، الذين تفضلوا بقبول تحمل عناء قراءة هذا البحث ومناقشته، والذين سيغنون الدراسة، ويقومونها من فيض علمهم بملاحظاتهم القيمة.

وأشكر كل الذين خفّوا لحضور المناقشة.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	أ
الشكر والتقدير	ب
فهرس المحتويات.....	ج
المقدمة.....	1
التمهيد	3
أولاً: معنى الدهر وأسماؤه في المعاجم	4
ثانياً: الدهر ومظاهره في الشعر	8
ثالثاً: نظرة العربي إلى الدهر	12
رابعاً: نظرة الإسلام إلى الدهر.....	16
خامساً: المؤثرات التي شكلت صورة الدهر في شعر ابن زيدون.....	20
أولاً: المؤثرات السياسية.....	21
ثانياً: حبه لولادة.....	29
ثالثاً: ثقافة ابن زيدون وتأثره بالتراث الديني والتاريخي والشعري.....	33
الفصل الأول	
الدهر في شعر ابن زيدون	
أولاً: دراسة إحصائية لألفاظ الدهر ومتعلقاته.....	40
ثانياً: الصورة الفنية للدهر في شعر ابن زيدون.....	48

ثالثاً: هيكل القصيدة في شعر ابن زيدون، لغتها، ومظاهر أسلوبية..... 65
هيكل القصيدة في شعر ابن زيدون..... 65
مظاهر أسلوبية في شعر ابن زيدون..... 75
1. التكرار في البلاغة..... 75
2. البديع..... 78
الطباق والمقابلة..... 78
الجناس..... 83
الموسيقى والإيقاع..... 87
البحور..... 88
القافية..... 92
الإيقاع الداخلي..... 93
رابعاً: الأغراض الشعرية..... 97

الفصل الثاني

صورة الدهر في شعر ابن زيدون

أولاً: الدهر القوة المتصرفة المغيّرة للأشياء..... 102
1- الوجه السلبي للدهر 103
- الدهر المهلك 106
- الدهر المبدل..... 110
- الدهر المفرق..... 115
- الدهر الخائن..... 120
- الدهر المفسد..... 126

- صروف الدهر..... 130
- نوائب الدهر وريبه..... 133
- خطوب الدهر..... 135
- مصائب الدهر وأرزاؤه وعثراته..... 139
أ- عوائد الدهر على الشاعر..... 149
- الموت..... 149
- الشيب والشباب..... 153
ب- موقف الشاعر من الدهر..... 159
- التحدي والمواجهة والاستسلام..... 159
2- الوجه الحسن للدهر..... 163
ثانياً: الدهر الزمني..... 173
- الزمن الكلي..... 173
- الزمن الجزئي..... 179

الفصل الثالث

دراسة تطبيقية لقصيدة طال الشماس

دراسة تطبيقية لقصيدة طال الشماس 199
الخاتمة..... 239
الملخص باللغة العربية 242
الملخص باللغة الإنجليزية 245
المصادر والمراجع..... 248

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد، وعلى آلهِ وصحبه أجمعين، وبعد:

تناول البحث دراسة الدهر في شعر ابن زيدون، الذي يُعدّ علماً من أعلام الأدب العربي، وقمة من قمم الأدب، الذي ما إن ذكر حتى تبادرت للأذهان قصة حبّه العاصف لولادة بنت المستكفي التي كانت من المؤثرات التي شكلت صورة الدهر في شعره بالاضافة إلى المؤثرات السياسية وغيرها، فالذين درسوا شعر ابن زيدون لم يتناولوا موضوع الدهر بشيء من التخصيص، إنما وردت أحكام عامة عنه، فكانت هذه الدراسة للدهر في شعر ابن زيدون بشيء من التفصيل، فبعد استقراء ديوانه تبين لنا فيه كثرة تكرار لفظة الدهر ومتعلقاته بصورة لافتة، فكان لابُدّ من دراستها للوقوف على علاقته مع الدهر وأثره عليه، وكشف تجلياته .

وجاءت هذه الدراسة في تمهيد وثلاثة فصول، ففي التمهيد وقفت هذه الدراسة على معاجم اللغة، وأفادت منها في تبيّن مفهوم الدهر، وأسمائه، وكذلك تناولت الدراسة الدهر في الشعر ومظاهره، ونظرة العربي إلى الدهر، ونظرة الإسلام إلى الدهر بإيجاز، والمؤثرات التي شكلت صورة الدهر في شعره، فكانت ما بين المؤثرات السياسية والعاطفية والثقافية، وبما يخدم غرض الدراسة.

أما الفصل الأول: فجاء تحت عنوان: الدّهر في شعر ابن زيدون، تناول فيها الباحث دراسة إحصائية لألفاظ الدهر ومتعلقاتهِ، والصورة الفنيّة للدهر في شعره، وهيكل القصيدة في شعره، ولغتها، والمظاهر الأسلوبية كالتكرار والموسيقى والإيقاع، والبديع من طباق ومقابلة وجناس، والأغراض الشعرية، بما يخص نظرة ابن زيدون إلى الدهر.

وأمّا الفصل الثاني: فجاء تحت عنوان: صورة الدهر في شعر ابن زيدون، وجاء في قسمين: تحدثت الدراسة في القسم الأول عن الدهر القوة المتصرفة المغيّرة للأشياء بالوجهين السلبي والإيجابي، فالقوة السلبية للدهر من خلال وصفه بالمهلك والمبدل والمفرق والخائن والمفسد، وصروفِ الدهرِ ونوائبِه ورزيِه وخطوبِه، ومصائبهِ وأرزائه، وتناول دراسة عوائد الدهر على الشاعر، فكانت في الموت والشيب والشباب، وموقف الشاعر من الدهر فتمثل في التحدي والمواجهة والاستسلام، أمّا القوة الإيجابية فتناولت دراسة الوجه الحسن للدهر، وفي القسم الثاني عرضت الدراسة الرؤية الزمنية للدهر في شعر ابن زيدون من خلال الزمنين الكلي والجزئي.

أمّا الفصل الثالث والأخير من الدراسة فجاء تطبيقاً تحت عنوان: دراسة تطبيقية لقصيدة "طال الشماسُ" تناولتها بالدراس والتحليل، والحديث عن أثر الدهر على القصيدة، وعلى ابن زيدون وموقفه منه، ثم كانت خاتمة البحث بما احتواه، وتؤكد النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

وهذهِ الدراسة قامت على توضيح موقف ابن زيدون من الدهر، كيف وظف الدهر في شعره، وتبين حالته النفسية، وقد أفادت هذهِ الدراسة من الدراسات السابقة، منها: الدهر في شعر ابن الرومي للدكتور محمد الحوراني بالاضافة في إعداد خطة الدراسة، والدهر في الشعر الأندلسي للدكتور لؤي علي الخليل، وعناصر الأبداع الفني في شعر ابن زيدون للدكتور فوزي خضر، والدهر في الشعر الجاهلي للدكتور محمود أحمد الحلحولي، وغيرها من الدراسات.

ولا يفوتني أن أتقدم بموفور الشكر والعرفان للأستاذ الدكتور يونس شنوان الذي تفضل بالإشراف على هذا البحث، فكان خير موجه وخير ناصح فله كل الاحترام والتقدير.

التمهيد:

أولاً: معنى الدهر وأسماؤه في المعاجم.

ثانياً: الدهر ومظاهره في الشعر.

ثالثاً: نظرة العربي إلى الدهر.

رابعاً: نظرة الإسلام إلى الدهر.

خامساً: المؤثرات التي شكلت صورة الدهر في شعر ابن زيدون.

التمهيد:

أولاً: الدهر وأسماؤه في المعاجم:

تعددت استخدامات كلمة الدهر في المعاجم، فنجد أصحابها يقفون على المعنى اللغوي من خلال الاستعمالات الكثيرة لهذه كلمة الدهر، التي أخذت معاني ودلالاتٍ متعددة، ومن معاني الدهر في اللغة: الغلبة والقهر، وسمَّي الدهر دهراً لأنه يأتي على كلِّ شيءٍ ويغلبه[1]، فأمّا قول النبي – صلى الله عليه وآله وسلم –: "لا تسبُّوا الدهر فإن الله هو الدَّهر"[2]، فقد قال فيه أبو عبيدة: معناه أنّ العرب كانوا إذا أصابتهم المصائب قالوا: أبادنا الدهر، وأتى علينا الدهر[3]. وقد ذكروا ذلك في أشعارهم. قال عمرو الضبعيّ[4]: (البحر الطويل)

رمتني بناتُ الدَّهر من حيث لا أرى فكيف بمن يُرمَى وليس برامي

فلو أنني أرمى بنبلٍ تقيتها ولكنني أُرمَى بغير سهام

ويقال دهر دهير، كما يقال أبدٌ أبيدٌ، وفي كتاب العين: دهرهم أمرٌ، أي نزل بهم. ويقولون ما دهري كذا، أي ما همتّي: ومعناه ما أشغل دهري به، فأمَّا الهمة فما تُسمَّى دهراً[5].

1- أبو الحسين بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، تحقيق : عبد السلام هارون، ج2، دار الفكر، لبنان،1979، دهر، ص305.

2- مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم بشرح النووي، ج15، ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت،1972،ص2.

3- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، دهر، ص305.

4- عمرو بن قميئة، ديوان، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، جامعة الدول العربية، معهد المخطوطات، 1965، ص45-46.

5- أبو الحسين بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، دهر، ص306.

الدّهر الأمد الممدود، وقيل الدّهر ألف سنة، وقال ابن سيدة : جمع الدّهر : أَدْهُرٌ ودهور، والدهر الزمان الطويل ومدة الحياة الدنيا[1]. وقال شمر: الزمان والدهر واحد، فعارض شمراً خالدُ بن يزيد وخطأه في قوله: الزمان والدهر واحد، وقال الزمان زمان الرطب والفاكهة وزمان الحرّ وزمان البرد، ويكون الزمان شهراً إلى ستة أشهر والدهر لا ينقطع، وقال الأزهري: الدهر عند العرب يقع على بعض الدهر الأطول، ويقع على مدة الدنيا كلها. قال: وقد سمعت غير واحد من العرب يقول: أقمنا على ماء كذا وكذا دهراً، وإذا كان هذا هكذا جاز أن يقال الزمان والدهر واحد في معنى دون معنى[2].

ويرى العسكري أن الدهر جمع أوقات متتالية، وهو يساوي بينه وبين الزمان[3]، فالدهر والزمن وجهان لمدلول واحد لدى البعض، ولدى البعض الآخر هناك فرق بينهما؛ فالدهر ممدود لمدة العالم من ابتداء وجوده إلى انقضائه[4]. والزمن محدود، والدهر ممدود، وأياً يكن فالدهر عند العرب يقع على وقت زمان من الأزمنة وعلى مدة الدنيا كلها، والزمان يقع على الفصل من فصول السنة وعلى مدة ولاية الرجل وما أشبهه. [5]

1- . ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط5، 1956، مادة دهر

2- نفسه، مادة دهر.

3- أبو هلال العسكري، الفروق في اللغة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1979، ص263.

4- مرتضى الزبيديّ، تاج العروس، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الكويت، ط2، 1986، مادة دهر.

5- ابن منظور، لسان العرب، مادة زمن.

والزبيدي في تفريقه بين الدهر والزمن يرى أن الدهر لا يحدد بوقت معين، فهو ممتد لا ينقطع أبداً، في حين يكون الزمن محدداً بوقت معين يمتد من شهرين إلى ستة أشهر. [1]

فالعلاقة بين الدهر والزمن في طول المدة أو قصرها، فالدهر ممدود، والزمن محدود، فالزمن يطلق على وقت محدد بفترة زمنية معينة، بينما الدهر يطلق على الوقت غير المحدود.

أسماء الدهر:

جعل المرزوقي باباً كاملاً لأسماء الدهر وما يتصل به في كتابه "الأزمنة والأمكنة"، وتعود هذه الأسماء في الأغلب لاستخدامات العرب، وإن كان بعضها شائعاً والبعض الآخر قليل الشيوع، أو أنه مستعار للدلالة على فاعلية الدهر، ومن تلك الأسماء الأزلم الجذع، دلالة على سرعة مَرِّه وتقلبه. أراد أنه سريع المرّ والتقلب، وبعضهم يرويها بالنون: الأزنم، أي: الأوقات التي يعرف فيها كالزنمات له، تشبيهاً بزنمات الشّاة، وهي الزوائد المعلّقة من حلقها ومن تحت حنكها. والجذع لأنه لا يهرم[2].

ومن أسمائه المسند ويقال: لا أفعله آخر المسند، والمعنى إلى أن يسند الدّنيا إلى الآخرة. ويكون لما أسندت الحوادث إليه، لاعتقادهم به الجالب لها والسّابق سُمِّي مسنداً. ومن أسمائه عوض لأن الدهر ليل ونهار يتعاقبان ويتعوضان[3].

1- مرتضى الزبيديّ، تاج العروس، مادة دهر.

2- المرزوقي أبو علي الأصفهاني، كتاب الأزمنة والأمكنة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996، ص214.

3- نفسه، ص215.

ومن أسمائه الأيض وقال: في سلوة عشنا بذاك أيضاً. أي دهراً. والأيض حبل يعقل به البعير، ويكون الأيض في أنه مصدر، والأيض في أنه المأبوض كالسّد والسّدة والعقد والعقدة. ويجوز أن يكون سُمِّي بذلك لأنه يضعف ويقيد بالهرم[1].

ومن أسمائه الأبد والأبيد بمعنى إقامة الدهر ومكثه، والأبد المقيم الذي لا يبرح، وأوابد الشِّعر، سّميت أوابد لبقائها على مّر الأيام، ومن أسمائه: الطّيل والطول لبقائه وطوله[2].

ومن أسمائه: المنون وهو من مننت أي قطعت ويقال: حبل منين أي مقطوع. ومن ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي: [3] (البحر الكامل)

أمِـــن المنـــونِ وريبـــه تتوجـــع والـــدَّهر لـــيسَ بمعتـــبٍ مـــن يجـــزع

فهو يُمنُّ كل شيء بضعفه وبنقصه ويقطعه، وقيل المنون يراد به الدهر.[4]

ومن أسمائه سجيس عجيس، أي الدّهر، قد يصر فيقال: عجيس أي الدهر، مقولة: عجيس من عجسه أي قبضَه وحبسه. ومنه معجس القوس أي مقبضه، وعجساء اللّيل ظلمته، لأنها تجس الناس، ويكون المعنى ما بقي الدّهر وحبس على أهله، وفي الحديث نهار أهل الجنة سجسج "أي معتدل متّصل لا آفه فيه، وسجيس الدهر لامتداده وسلاسته في الاتصال والاستمرار.[5]

1- المرزوقي، كتاب الأزمنة والأمكنة، ص216.

2- نفسه، ص216.

3- أبو ذؤيب الهذلي، الديوان، تحقيق : أنطونيوس بطرس، دار صادر، بيروت،2003، ص57 .

4- المرزوقي، كتاب الأزمنة والأمكنة، ص216-217.

5- نفسه، ص217-218.

ومن أسمائه الحوب، قال: يجمع على أحوب وأحواب وحوبه. كما قالوا: عصر وعصرة، ودهر ودهرة. وهو من الشدة والعظم. ويقال: يحوب الصّائح إذا اشتد صياحه، ومن أسمائه الخبل والمخبل والتخبيل، والخبل الفساد والخابل المفسد، وسمي الدهر مخبلاً، لأنَّه إمّا يهرم، وإمّا يقتل، وسميَّ فطحلاً وهذا ما يقال للزمن القديم، ومن أسمائه الخز والملاوة، ومن أسمائه الفبيس أي بقاء الدهر، ومن أسمائه الأعرام لأن فيه نوائب وصروفاً متلونّه. والدهر سبات أي أحوال مختلفة.[1]

فالدهر هو الجامع لكل هذه الأسماء باستخداماتها ودلالاتها المختلفة التي استمدت وجودها من رؤية الشاعر العربي لفاعلية الدهر لغلبته وسطوته.

ثانياً: الدهر في الشعر ومظاهره:

أورد ابن فارس أن الدَّهر يعني الغلبة والقهر، وأنّه سمّي دهراً لأنّه يأتي على كل شيء ويغلبه[2]، وجعل الشاعر الإهلاك سمةً للدَّهر وعنواناً عليه، فالدهر هو القاسم المشترك بين الموت والحياة، فيحدث فيه التجدد والفناء، والقوة والضعف، وعند تتبع مظاهر الدهر وتجلياته تجده يغير زيّه من نص إلى آخر، والشعراء عرضوا للفظ الدَّهر؛ ليعبروا عمّا ألمَّ بهم[3]، من ذلك قول ابن الرومي[4].(البحر الطويل)

ولـــــي وطـــــنٌ آليـــــتُ ألاّ أبيعـــــه وألاّ أرى غيـــــري لـــــه الـــــدهر مالكـــــا

1- المرزوقي، كتاب الأزمنة والأمكنة، ص218-219.

2- ابن فارس، مقاييس اللغة، ص305.

3- انظر محمد عيسى عبد الله الحوراني، الدهر في شعر ابن الرومي، دراسة تحليلية، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك،2013،ص12

4- ابن الرومي، ديوان، شرح وتحقيق: عبد الأمير علي مهنّا، ج5، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1991، ص19.

وجعلوا طرفي الدهر ومداه في كرّ الأيام والليالي وحركة الكون، وتعاقب الليل والنهار، وما يترتب عليه من حركة امتدادية نحو النهايات، هو من أبرز مظاهر فاعلية الدهر في الأرض، تلك التي تتجلى مظاهرها بانهدام البنية الزمنية التي تتكون منها حيوات الكائنات، وإن كان الزمن يشكل امتداداً متنامياً نحو الحياة، فهو من جهة أخرى يعود بالحياة إلى انتكاسه باتجاه الذبول والفناء، ومن هنا كانت ثنائية الموت والحياة أعظم مظهر من مظاهر الدهر وفاعليته، فهذه الثنائية تشغل تفكير الإنسان منذ وجوده على هذه الأرض، وعندما كان يبحث عن سرّ الموت، وعن تفسير ما يلم به من ملمات – أثناء حياته – كان يعزو ذلك إلى قوى خارجية لا طاقة له بها ولا دراية، وتتمثل تلك القوى في الدهر الذي يسيطر حسب اعتقادهم على الحياة والموت[1]. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، في قوله تعالى: "**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ** ۚ".[2](سورة الجاثية آية24)

وهذه الثنائية ارتبطت بمظاهر أخرى تولدت عن فاعلية الدهر، وقد عايشها الإنسان مثل الجدب والخصب، وكذلك الشيب والشباب من مظاهر الموت وعلاماته، فالشعراء ذموا الشيب ولونه وجعلوه من صنيع الدهر، فالشيب من أبرز علامات الضعف والانتكاس، فهو نذير الموت وعلامته، فالحديث عن وطأة الشيب، وما يتركه من ندوب غائرة في وجدان الشاعر وحياته الراهنة، لا ينفصل عن حديث الشاعر فيما أمضاه في فتوته وشبابه، فالشيب والشباب يشكلان موضوعاً واحداً متداخلاً، يترجم موقف الشاعر إزاء الزمن في لحظة تألم واعتبار، يستسلم فيها إلى استذكار محطات الماضي المفعمة بالبهجة، ولذة الحياة هروباً إليها من فعل الزمن التدميري، وشراسته للحظة الراهنة، فيجد في

1- محمد عيسى عبد الله الحوراني، الدهر في شعر ابن الرومي، ص12-13.

2- سورة الجاثية، آية 24.

ذكرياته، ومغامرات شبابه متعة، ولذة يقاوم بها مظاهر الوهن والشيخوخة، وما يكتنفها من عجز وعدم مقدرة على تحقيق ذاته، والخوف من الشيخوخة إحساس إنساني يتقاطع كل البشر، لما ينطوي عليه من مظاهر توحي بالغربة النفسية بسبب تغير الأشياء وتحولها من حالة إلى أخرى نتيجة حتمية التجدد ومواكبة تحولات الزمن المتسارع، فالخوف من الشيخوخة في جوهره تعبير عن إحساس المرء بأنّه لم يعد باستطاعته أن يحيا حياة منتجة، ومتفاعلة مع محيطه كما كان في ريعان الشباب.[1]

نظرة الشاعر إلى الشيخوخة تتسم بالمأساوية والنظرة التشاؤمية من منطلق أن الزمن سبب في هذه المرحلة إحباطاً ويأساً إزاء الحياة؛ بفعل قوة التذمر التي تعمل على قطع صلة الشاعر الوجدانية بشهوة الحياة [2].

الدهر من سماته التغيير، فالزمن متغيرٌ متبدلٌ، ليس له نظام أو سنّة في تصريف الأمور، ويبدو الخوف والقلق اللذان يستشعرهما الشاعر من الدهر؛ لعدم ثباته على حال، وقلقه من المستقبل.[3]

الشاعر لا يلتفت إلى التغيير الذي يصيبه إلا حينما يكون نحو الأسوأ، من الشباب إلى الشيب، ومن الحياة إلى الموت، ومن الديار العامرة إلى الأطلال الخربة.

يقول امرؤ القيس:[4] (البحر الطويل)

1- باديس فوغالي، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، عالم الكتب الحديث وجدارا للكتاب العالمي، إربد، 2008م، ص147-148.

2- عبدالعزيز محمد شحادة، الزمن في الشعر الجاهلي، المكتبة الوطنية، عمان، 1995، ص67.

3- نفسه، ص67.

4- امرؤ القيس، الديوان، تحقيق ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، ط2، 1967، ص109.

ألا إنّمـــــا الـــــدهرُ ليـــــالٍ وأعصـــــر ولـــــيس علـــــى شـــــيء قـــــويم بمســـــتمر

والشاعر الجاهلي عادة ما يربط بين الأطلال والزمن، وهذا الربط المتواصل يجعلنا ندرس الأطلال واحداً من تحولات الزمن وتجلياته في القصيدة، والشاعر الجاهلي يعد الزمن مسؤولاً عن الأطلال، وعفاء الديار[1]. يقول عبيد بن الأبرص:[2] (البحرالخفيف)

دار حـــــيّ أصـــــابهم ســـــالف الـــــدهر فأضـــــــحت ديـــــــارهم كـــــــالخلال

فالدهر متقلب فمرة يعطي ومرّة يفسد، فهو يغير الأحوال من النعيم إلى البؤس، يقول بشر بن أبي خازم:[3] (البحر البسيط)

فأصـــــبحوا بعـــــد نعمـــــاهم بمبأســـــةٍ والـــــدَّهر يخـــــدع أحيانـــــاً وينصـــــرف'

فالدهر هو الفاعل المؤثر في تغير الأحوال من الخير إلى الشر، ومغير أحوال الإنسان بين السعادة والشقاء، واقترن في الغالب بالسوء.

يرتبط الزمن ارتباطاً وثيقاً بحياة الشاعر في مجتمعه، وتكيفه مع البيئة التي يعيش في أحضانها، لذا نجد تجربته الوجدانية تحمل هذه المظاهر الزمنية ممثلة في الأعوام، والفصول، والأيام، وتعاقب الليل والنهار، وهذه المظاهر، إذا كانت توافق تطلعاته، وتلبي رغباته الاجتماعية،

1- عبد العزيز محمد شحادة، الزمن في الشعر الجاهلي، ص78.

2- عبيد بن الأبرص، ديوان، تحقيق وشرح: حسين نصار، شركة مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، مصر، 1957، ص105

3- بشر بن أبي خازم، ديوان، قدمه وشرحه: صلاح الدين الهواري، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1997، ص191.

والنفسية، والجمالية والفكرية، فإنها تدخل في صميم رؤيته التفاؤلية، أمّا إذا كانت تعارض هذه التطلعات فإنها تدرج في إطار رؤيته التشاؤمية.[1]

لعل أبرز مظاهر الدهر تتمثل في ثنائيات الليل والنهار، الجذب والخصب، والإنجاب والعقم، والشيب والشباب، والحياة والموت.

ثالثاً: نظرة العربي إلى الدهر

أثرت الحياة العربية قبل الإسلام في النظرة للزمن، حيث ظن أن الزمان قوة قاهرة تهيمن على الحياة وتهلك الناس، وقد انعكس ظن العرب – قبل الإسلام – بالزمن على موقفهم منه، فهم يعادون الزمان ويسبونه، حتى إنهم أصبحوا يعدون أن الدهر هو الظاهر، أو الشيء المسيطر المتحكم في البشرية، لا راد له ولا معقب لحكمه، فالدهر عندهم هو المحرك الحقيقي لكل شيء، وهو قوة فعّالة مسيطرة تنسب لها الأفعال والحوادث.[2]

فالزمن الدهري ندٌّ للشاعر ينافسه ويصارعه، بل أصبح في نظر الشاعر عدواً، فقد تحول من أوقات تمر به إلى طاغية متربص، يكيد له المكائد ويتعقبه، والشاعر يحاول الهرب منه حيناً، والوقوف أمامه حيناً آخر بردود فعله المختلفة داخل قصيدته الشعرية.[3]

1- باديس فوغالي، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، عالم الكتب الحديث وجدارا للكتاب العالمي، إربد، 2008، ص101.

2- عبد الحافظ صلاح، الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره، دراسة نقدية نصيّة، دار المعارف، مصر، 1982، ص79.

3- نفسه، ص334.

ارتبط الدهر قديماً بكثير من المعتقدات الدينية والمسلمات الروحية، فكان الإنسان يقف عاجزاً أمام الحياة والموت، دون امتلاك إجابات كافية للقضاء على حيرته، وآليات تسيير الكون من حوله، وفق السنن التي ارتضاها الخالق لهذا الكون الفسيح، فقد انحصر تصوره للزمن في الغيبيات التي تلف عقله بالحيرة، وتجعل منه امرأً مستسلماً للنواميس المنتظمة حوله دون أن يجد لها إجابة تريحه، وتبدد حيرته، وتنشأ بينه وبين الزمن جسور من التواصل واعتزام التعليلات العقلية.[1]

وكان الزمن عند قدماء اليونان إلهاً يعبد، نحتوا له العديد من الأشكال، والمنحوتات المعبرة عن الخير والإخصاب، والقوة والجبروت، واتخذوها آلهة يتضرعون إليها في خنوع وقت ما تضيع بهم السبل.[2]

كما كان الزمن عند بعض العرب يعبد، وإن كان المعبود عندهم ليس الزمن المجرد، وإنما يتم استمداده من قوة الشمس وسطوتها، فقد كانت الشمس – وهي مظهر زماني، وآلية من آلياته الجوهرية – مصدر عبادة لبعض القبائل العربية.[3]

وقد ارتبط مفهوم الدهر في فكرة العربي بريب المنون، وكل ما يدلّ على السطوة والجبروت، وعادة ما كان يوظفه الشعراء في موقف الذم، والحسرة، والانكسار، والتسليم بالغيب.[4]

1- باديس فوغالي، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، ص51.

2- بطرس البستاني، أدبا العرب في الأعصر العباسية حياتهم أثارهم نقد أثارهم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، مجلد9، 1986، ص246.

3- باديس فوغالي، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، ص51.

4- نفسه، ص53.

وظهرت الدهرية في الجاهلية، والدهري هو الذي يرى أن العالم موجود أزل وأبد لا صانع له [1] ، وقد كان يدين بعض العرب بالدهرية، والدهريون منكرو البعث والإعادة والخالق، لقد أنكرت هذه الفئة البعث، وأسندت الأفعال إلى الدهر على نحو حقيقي.[2]

وكانت العرب من شأنها أن تذم الدهر وتسبه عند الحوادث والنوازل تنزل بهم من موت وهرم، فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وحوادثه وأبادهم الدهر، فيجعلون الدهر هو الذي يفعل ذلك فيذمونه.[3] وأن العرب في الجاهلية كانت تقول أصابني الدهر في مالي بكذا، وخالتني قوارع الدهر وبوائقه ومصائبه ... ويقولون لعن الله هذا الدهر، ويسمونه المنون؛ لأنّه جالب المنون عليهم[4]، وقال تعالى: "**وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ** ۚ".[5](سورة الجاثية آية 24).

ويذكر المرتضى: أنّ الملحدين من العرب كانوا ينسبون ما ينزل بهم من أفعال من المرض والصحة، والجدب والخصب، والبقاء والفناء، إلى الدهر جهلاً منهم بالصانع جلّت قدرته، وأنّ العربَ ذمُّوا الدهر وسبوه في كثير من الأحوال من حيث اعتقدوا أنهّ الفاعل بهم هذه الأفعال.[6]

1- أبو البقاء محمد بن موسى الحسيني الكفوي،الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، مصحح ومحقق: محمد مصري، وزارة الثقافة والإرشاد، دمشق، 1974، ص183.

2- عبد العزيز محمد شحادة، الزمن في الشعر الجاهلي، ص44.

3- ابن منظور، لسان العرب، مادة دهر.

4- أبو عبد الله بن مسلم بن قتيبه، تأويل مختلف الحديث، صححه وضبطه: محمد زهري النجار، ط1، دار الجليل، بيروت،1973 ص242.

5- سورة الجاثية، آية 24.

6- الشريف علي بن الحسن المرتضى، غرر الفوائد ودرر القلائد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية،القاهرة، 1954، ص45.

والشعراء الجاهليون التقوا على شكاية الدّهر وذمّه، وأن الدّهر في الجاهلية تعليل للموت بصورة[1] ويصورونه شكلاً حيوانياً مفترساً يخترم النفوس، وأنه ينقص العيش كما ينقص الكنز[2]، يقول طرفة بن العبد:[3](البحر الطويل)

أرى الدهر كنزاً ناقصاً كل ليلةٍ وما تنقص الأيام والدهر ينفد

والدهر عندهم إله غير محسن لا يملك إيجاد الحياة، أو الرزق، أو العطاء، وإنما هو إله مميت وقاهر، وهو إله مفرق، ومقلب، ومفنٍ. يقول لبيد ابن ربيعة[4]:(البحر الطويل)

لحى الله هذا الدهر إني رأيته بصيراً بما ساء ابن آدم مولعا

وهم بذلك يحقدون على الدهر، لأنه يذهب مصالحهم، ويجلب الأرزاء لهم، ويستأصل الرؤوس منهم، ويهلك العلا والمعالي، وهو المفسدة، فالشاعر الجاهلي يشخص الدهر، ويميل إلى مخاطبته ومفاوضته، وهذا رغبة من الشاعر في جعل صورة الدهر شكلاً حياً قابلاً للمحاورة والمفارقة والنداء، "كان رغبة في نفث الحرارة المؤلمة التي تلتهب في جوف الشاعر الجاهلي من الدهر وظلمته".[5]

1- ابن منظور، لسان العرب، مادة موت.

2- محمود أحمد الحلحولي، الدهر في الشعر الجاهلي والإسلامي،رسالة ماجستير،الجامعة الأردنية، 1990، ص54.

3- طرفه بن العبد، ديوان، تحقيق وتحليل ونقد:علي الجندي، المكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1985، ص37.

4- لبيد بن ربيعه، ديوان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1966،ص69.

5- محمود أحمد الحلحولي، الدهر في الشعر الجاهلي والإسلامي، ص93.

رابعاً: نظرة الإسلام إلى الدهر

يفيض القرآن الكريم في الحديث عن المفهوم الرياضي الفلكي للدهر، الذي يعني اختلاف الليل والنهار، وإيلاج الليل في النهار وتعاقبهما، ولا يورد كلمة الزمن أو الزمان، وقد ذكر القرآن اختلاف الليل والنهار في آيات كثيرة، فأشار إلى تكوّر الأرض وحركتها، وعلاقة هذا التكوير باختلاف الليل والنهار. قال تعالى: "**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ**"[1](سورة الزمر آية 5)، في الآية دلالة على ارتباط التوقيت بالشمس والقمر، وأن الشمس والقمر دليلان على اختلاف الليل والنهار، أو تكور أحدهما على الآخر. وقال تعالى: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ".(سورة يونس آية 5) والقرآن جاء؛ لينفي ما كان عليه العرب من أن الأمر بيد الدهر، وهو فاعل الأشياء؛ ليؤكد أن الأمر بيد الله، وأن ليس لأحد سواه تدبير الكون، وأن الدهر نفسه يمكن أن يتوقف لإرادته سبحانه، قال تعالى: "**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**".[2](سورة القصص آية77-78)

ولأهمية الدهر يقسم سبحانه بدلالاته، فيقسم بالشمس والقمر والليل والنهار والفجر والصبح والضحى والعصر، وكذلك تسمية بعض السور القرآنية بالأسماء الدالة على الدهر ومتعلقاته.[3]

1- سورة الزمر، آية 5.

2- سورة القصص، آية77-78.

3- محمود أحمد الحلحولي، الدهر في الشعر الجاهلي والإسلامي، ص100.

وفيما يختص بظلال الدهر في المفهوم الجاهلي وامتيازاته، فقد أشار القرآن إلى تضمن معنى القدر في كلمة الدهر عند الجاهليين، وأوضح أن الأحداث التي تحدث لا يكون للدهر فيها أي أثر فاعل سوى أنه طرف حامل للحوادث ومتضمن لها، وقد أشار القرآن إلى إرادة الله القادرة، وهي الإرادة المسؤولة في تنفيذ قضاء الله حسب ما تقتضي حكمته سبحانه وتعالى، وليس للدهر أي صفة تأثيرية تعليلية، وإنما يكون مدار الأمر متعلقاً بمشيئة الله الكلية القادرة والمطلقة[1] قال تعالى: "وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا".[2](سورة الإنسان آية30)

والقرآن يشير إلى اعتقاد العربي بالدهر وما أثبتوا له من التأثير في الناس والطبيعة، ومن أنّ الموت عثرة من عثراته بهم، فيذكر قولهم فيه، قال تعالى: "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ".[3](سورة الجاثية آية24)

ويذكر الإمام القرطبي، قول أبي عبيدة: إنَّ من شأن العرب في الجاهلية أن يذموّا الدهر عند المصائب والنوائب حتى ذكروه في أشعارهم ونسبوا الأحداث إليه.[4]

والتفاسير مجمعة على أن العرب في الجاهلية شكت الدهر وذمته، ونسبت إليه الموت، وهذه التفاسير ترى في الشكاوى منكراً لا حجّة لهم به، ولا دليل عندهم في نسبة الحوادث إليه[5].

1- محمود أحمد الحلحولي، الدهر في الشعر الجاهلي والإسلامي، ص99-102.

2- فصلت، آية 146.

3- الجاثية، آية 24.

4- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تصحيح:أحمد عبد العليم، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1967، ص170.

5- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ص171.

وبمجيء الإسلام اختلفت نظرة العرب إلى الدهر، ذلك أن العربي أدرك أنَّ القوة الغيبية الفاعلة المتحكمة بهذا الكون هي قوة الله العظيم، وأن كلّ شيء سواه مخلوق مؤتمر بأمره، خاضع لإرادته، فتبين من خلال القرآن الكريم ورود كلمة دهر بمعنى المدة الزمنية طالت أم قصرت، فقد قال تعالى: "**هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا** ".[1](سورة الإنسان آية1)، وورد في الحديث الشريف قوله – صلى الله عليه وسلم – لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر"[2] فنهى عن شتم الدهر لأن العرب كان من شأنها شتم الدهر، وذمه عند الحوادث، والنوازل التي تنزل بهم من موت أو هرم، وقيل: أصابتهم قوارع الدهر وحوادثه وأبادهم الدهر، فيجعلون الدهر الذي يفعل ذلك فيذمونه، وقيل: إن ما أصابك من الدهر فالله فاعله ليس الدهر، فإذا شتمت به الدهر فكأنك أردت الله سبحانه.[3]

فالدهر في القرآن الكريم قد انبسط إلى مفهوم جديد يتصل مع مفهوم الجاهلية في حدود، وينقطع في أخرى، فالدهر في القرآن يعني مرور الأيام وامتدادها وتتابعها، وانقطع عن أن يعني الغلبة والقهر، أو أن يمتاز بما أثبته الجاهليون له سفهاً وضلالةً.[4]

وتابعت نصوص السنة النبوية النصوص القرآنية الكريمة في الحث على استغلال الدهر كظاهرة فلكية وبيان أهميته، وأزاحت تلك الصورة القاتمة للموت لديهم، وذلك الشعور الأليم به، ووجهت الأنظار إلى حياة جديدة، منّت النفوس بلقاء الله حيث الجزاء الخير لكل من آمن وعمل صالحاً، وأكدت أنّ الموت معبر للحياة الأبدية الخالدة، والدهر هو محطات التزود للآخرة، وعلى

1- سورة الإنسان، آية 1.

2- مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم بشرح النووي، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1972، ج15، ص2-3.

3- أبو الحسين أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، ص306.

4- محمود أحمد الحلحولي، الدهر في الشعر الجاهلي والإسلامي، ص104.

المرء الاستفادة منه، كما نهت الناس عن شتم الدهر ونفت فاعلية الدهر وأثبت أن القادر المتصرف بالأمور هو الله عز وجل.[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيما يرويه عن ربه. قال الله تعالى: "يؤذيني ابن آدم، يسبُّ الدّهر، وأنا الدَّهر بيدي الأمر، أقلب الليّل والنهار.[2]

ويذكر صاحب عمدة القاري أن من اعتقد في أن فاعل الأشياء الدهر فلا شك في كفره، ومن جرى على لسانه من غير اعتماد فليس بكافر، ولكنه تشبه بأهل الكفر، وارتكب ما نهاه الشارع فليتب وليستغفر.[3]

فنجد أثر الإسلام وتأثيره على الناس في مسألة شتم الدهر، ونسب الحوادث إليها في زجر عبد الله بن عمر لابنه، وكان كثيراً ما يذكر الدهر، فقال له أبوه إياك يا بني وذكر الدهر. وأنشد يقول:[4] (البحر الطويل)

فما الدهر بالجاني لشيء لحينه ولا جالب البلوى فلا تشتم الدهرا

ولكن متى ما يبعث الله باعثاً على معشر يجعل مياسيرهم عسرا

1- محمود أحمد الحلحولي، الدهر في الشعر الجاهلي والإسلامي، ص 106.

2- مسلم بن الحجاج،صحيح مسلم، ص3.

3- بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العيني، عمدة القاري شرح صحيح بخاري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1972، ص112.

4- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ص171.

وهذا الحرص دفع ابن الجوزي أن يقوم قياماً شديداً على شاتمي الدهر في عصره، وقد أفرد القول في أن سبّ الدهر خروج من الإيمان. [1]

أكد القرآن أن لا فاعلية للدهر، وأن تقلب الليل والنهار بيد الله القادر، وأثر الإسلام في حمل الشعراء على أفق واسع وسيره بهم في مسارب جديدة تغنيهم عن الرسوف في انحلال القول القديم من التبرم بالدهر، والشعور بعبثية الحياة، وتصور الحكمة في الحياة والموت، ومن الشعراء في العصر الإسلامي من لم يمتثل للقيم الإسلامية، فأخذ يحيل الفعل إلى الدهر، وأصبح من الفجور أن يقول الشاعر الإسلامي في الدهر المهلك والمفسد، ولا تظهر في الشعر الإسلامي علاقة الدهر بالمظاهر الطبيعية إلا فيما يختص بتعاون الدهر والرياح والمطر في درس الديار، واندثار المنازل على أن الدهر في الجاهلية بدل السعادة شقاء، وعمل على تعفية الديار، وجلائها من أهلها، وتتسم علاقة الدهر بالإنسان في الشعر الإسلامي بطابع ضغط أحداث الحياة، وربما قالوا بالدهر المهلك الذي يفرق الجموع، وهذا على سبيل المجاز محمولٌ على أحوالهم وإيمانهم بالله[2].

رابعاً: المؤثرات التي شكلت صورة الدهر في شعر ابن زيدون:

أثرت كثير من المؤثرات على حياة ابن زيدون، حيث ظلت تلاحقه حتى آخر عمره، وقد تنوعت تلك المؤثرات بين المؤثرات السياسية، والمؤثرات العاطفية وغيرها من المؤثرات، ولكل منها

1- أبو الفرج عبد الرحمن بن عليٍ بن محمد ابن الجوزي، صيد الخاطر، تحقيق وتعليق: عامر بن علي ياسين، دار ابن خزيمة، الرياض، 1997، ص243.

2- محمود أحمد الحلحولي، الدهر في الشعر الجاهلي والإسلامي، ص164-165.

آثاره الجلية الواضحة في أدب ابن زيدون شعراً ونثراً، وكان لها أثر في تشكل الصورة الشعرية عنده، وفي طبيعة إنتاجه الشعري، ومن هذه المؤثرات:

أولاً: المؤثرات السياسية :

أدرك ابن زيدون مرحلتين من مراحل الحكم العربي في الأندلس هما: مرحلة الدولة الأموية، فأدرك حكم عبد الملك المظفر، وعصر ملوك الطوائف. بلغت الدولة الأموية في الأندلس أوج مجدها زمن خلافة عبد الرحمن الثالث (300–350هـ) وابنه الحكم الثاني من بعده، ثم كان حكم الحاجب المنصور الذي استبد بالخلافة امتداداً لهذا العهد الذهبي الذي عرفته بلاد الأندلس، وكانت وفاة الحاجب المنصور سنة 392هـ/ 1002م ثم جاء من بعده ابنه عبد الملك المظفر فتابع سياسة العامريين الاستبدادية، ولكن الأندلس استطاعت أن تحافظ على عهد ازدهارها خلال الأعوام الستة التي حكم فيها، والتي مات في نهايتها مسموماً عام 399هـ، ومنذ هذا التاريخ يبدأ عهد الاضطراب[1]، ففي عام 418هـ بُويع بالخلافة هشام بن محمد الملقب بالمعتد بالله، وقدم من منفاه إلى قرطبة في أواخر سنة 420هـ، ولبث في الخلافة عامين أساء فيهما السيرة، حتى سخط عليه أهل قرطبة وقرروا خلعه، فغادر المدينة ناجياً بنفسه وولده عام 422هـ، وأجمع القرطبيون بعد فشل هذه التجربة على إلغاء الخلافة والتخلص نهائياً من بني أمية، فغدت قرطبة على أثر ذلك دون خلافة، فتوجهت الأنظار إلى أبي الحزم بن جهور ليتولى الحكم ويدبر الأمور.[2]

1- جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، ط2، دار المعارف، مصر، ص161.

2- محمد عبدالله عنان، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1960، ص20–21.

عاش ابن زيدون في القرن الخامس الهجري عصر ملوك الطوائف[1]، وهو عصر انحدرت فيه الدولة بعد صعود، وضعفت بعد قوة، وانكمشت بعد امتداد، فقد وقعت الأندلس فريسة للعصبيّة العنصرية بين القبائل العربية، ثم للعصبية الجنسية بين العرب والبربر والصقالبة، ثم للمذاهب السياسية ما بين عباسية وعلوية وأموية، ثم للحزازات الدينية ما بين اليهودية والمسيحية والإسلام؛ مما أضعف الدولة، وجعلها فريسة سهلة للأمراء المسيحيين بالشمال، فاستطاعوا أن يتحيّفوا أطرافها وأن يفرضوا سلطانهم على كثير من حكام الأقاليم، وانقسمت الأندلس نتيجة لهذه الأحداث إلى أقاليم عديدة يحكمها أمراء عديدون، بأسهم بينهم شديد، يعتدي بعضهم على بعض، ويستعين كل منهم بحماية الأعداء المتربصين.[2]

وتقطعت دولة الخلافة إلى دويلات وإمارات، فصار كل جزء لطائفة استقل كل زعيم منها بمملكة، فاستولى البربر على الجنوب، وأشهرهم بنو زيري في غرناطة، واستولى الصقالبة على الشرق، وأشهرهم خيران الذي خلفه بنو عبد العزيز على مرسية، وخلفه بنو صمادح على المرية، وفي الشمال الشرقي كان بنو هود في سرقسطة، وبنو رزين في السهلة، أمّا وسط الأندلس وغربها فكانت تحت سيطرة العرب والبربر المولدين، فكان بنو جهور في قرطبة حكموا من 422 – 461هـ، وبنو عباد في إشبيلية حكموا 414–484 هـ، وبنو ذي النون في طليطلة، وبنو الأفطس في بطليوس، وبذلك أصبحت الأندلس أندلسات كثيرة ودويلات صغيرة، وهي دويلات كان بعضها

1- عبد الله بن محمد بن يوسف ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، 1966، ص4.

2- انظر مقدمة ديوان ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق: علي عبد العظيم، ص11.

يناهض بعضاً، كما كانوا يناهضون أعداءَهم من الجيلين المسيحيين في الشمال، وغُلِب كثير من تلك الدويلات الإسلامية على أمره.[1]

اضطرب أمر الأمويين في عهد هشام الثالث، وكان أبو الحزم وزيراً له، فخاف أهل قرطبة من عواقب الفوضى،[2] فأعلنوا الحكم الجهوري في قرطبة سنة 422هـ، ونادوا بأبي الحزم بن جهور حاكماً لهذا الإقليم، وكان شيخاً وقوراً، وعالماً جليلاً، اشتهر بتمسكه بأهداب الدين، وكان بعيد النظر فلم يبارح داره إلى قصر الخلافة، ونادى بأنه أمين مؤقت على الحكم حتى يجتمع الناس على إمام، أعلن أن الحكم شورى، ولكنه ضبط الأمور بحزمه، وساس الرعية بدهائه، وقام بإصلاحات عديدة، وتحامى أن يشتبك مع حكام الأقاليم المجاورة في المنازعات والحروب، وطالما تحرّش به بنو عباد بإشبيلية، ولكنه تفادى الاشتباك معهم بكل السبل، وكما نادوا بالخليفة هشام الثاني المزعوم واستعدوا لتأييده بقوة السلاح بادر بالاعتراف به، ولكنه ظلّ يكشف للناس زيفه حتى تهيأت الأذهان للانصراف عنه، فأعلن سقوط بيعته، وجنب بلده التعرض للأخطار.[3]

وشارك ابن زيدون في العديد من هذه الصراعات، وكانت له اليد الطولى في الثورة على الأمويين ومساعدة بني جهور، ثم بني عبّاد بعدهم.[4] فقد ثار على الأمويين بعد مقتل جده لأمه

1- شوقي ضيف، ابن زيدون، دار المعارف، ط11، 1981، ص55.

2- يوسف عطا الطريفي، شعراء العرب المغرب والأندلس، الأهلية للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 2007، ص133.

3- انظر مقدمة ديوان ابن زيدون، شرح وتحقيق: علي عبد العظيم، ص12.

4- انظر مقدمة ديوان ابن زيدون، تقديم وشرح وتعليق، أحمد فاضل، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 2004، ص5-6.

الذي احتضنه بعد وفاته والده، وهو الوزير الفقيه صاحب أحكام الشرطة والسوق أبو بكر بن محمد إبراهيم بن سعيد المعروف بابن الهداهيد، وكان قاتله هو ابن سعيد وزير الخليفة الأموي هشام الثالث الملقب بالمعتد بالله، وذلك سنة 422هـ[1]، فمنذ هذا الوقت اندفع ابن زيدون بكل ما أوتي من قوة يشارك في الثورة على الحكم الأموي، ويضرب بمعوله لتقويض أركان الخلافة الأموية، وذلك انتقاماً لمقتل جده.[2]

اتصل ابن زيدون بأبي الحزم ابن جهور ووزّر له، وكانت تربط بين الاثنين علاقة صداقة[3]، وكانت طموحات وآمال ابن زيدون السياسية تقذف به إلى الحياة العامة فوجدها فرصة لتلك الطموحات والآمال، فقد مدح بني جهور، وكان من مناصريهم بقوله: (البحر الرمل)

"يـــا بنـــي جهـــورٍ" الـــدُّنيا بكُـــم حَلِيَـــت أيَّامُهـــا بعـــد العَطَـــل

إنّمـــا دولـــتُكُم واســـطةٌ أهـــدتِ الحُســـنَ إلـــى عِقـــدِ الـــدُّول

نحـــنُ مـــن نعمـــائكم فـــي زهـــرةٍ جَـــدّدت عهـــدَ الرَّبيـــع المُقتَبَـــل[4]

فقرّ أبو الحزم بابن زيدون، واستخدمه، فكثر حساده، وخصومه في بلاط بني جهور، ومنهم ابن عبدوس الذي حمل على ابن زيدون بسبب الرسالة الهزليّة التي وجهها ابن زيدون على لسان

1- عبد الله بن يوسف الأزدي، تاريخ علماء الأندلس، ص396.

2- فاضل فتحي محمد والي، الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلس، دار الأندلس للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، 1996، ص155.

3- ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص357.

4- ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، تحقيق: علي عبد العظيم، ص341.

ولادة؛ ليحط من قدر وقيمة ابن عبدوس، فاغتاظ ابن عبدوس وراح يلصق التهم بابن زيدون حتى أوغر صدر أبي الحزم بن جهور، فحبس ابن زيدون، وهناك من يقول: إن ابن عبدوس نسب إليه أنّه يحاول القيام بالثورة على أبي الحزم بن جهور.[1] ومنهم من يقول: إنه دبرت له تهمة اغتصاب عقار، وحوكم محاكمة ظالمة أفضت به إلى السجن[2]، وقيل إن أبا الحزم بن جهور كان متخوفاً في قرارة نفسه من ابن زيدون، كما أنه من ناحية أخرى، كان ينقم عليه انغماسه في حياة اللهو، واقتران اسمه باسم ولادة بنت المستكفي، وثقته المفرطة في أن يحطّ من قدر ابن قلاس وابن عبدوس.[3]

فدخل السجن وعمره 38سنة، ونظم في سجنه عدة قصائد جميلة تغلب عليها رنة الاستعطاف والحنين والعتاب، منها هذه القصيدة التي تقرأ فيها هذه الأبيات فنعلم أن بياض الشيب قد وخط عارضيه قبل أن يخلع برد الشباب[4] فيقول[5] : (البحر البسيط)

من يسأل الناس عن حالي فشاهدها مَحْضُ العِيَانِ الذِي ينبي عَنِ الْخَبَرِ

لَمْ تَطْوِ بُرْدَ شَبَابي كَبْرَةٌ ، وأرى بَرْقَ المَشِيبِ اعْتَلَى في عارِضِ الشَّعَرِ

قَبْلَ الثَّلاثِينَ، إذْ عَهْدُ الصِّبا كَثَبٌ وللشّبيبةِ غصنٌ غيرُ مهتصرِ

1- جودة الركابي، في الأدب الأندلسي، ص176.

2- ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص344.

3- محمد زكريا عناني، وفوزي سعيد، في الأدب الأندلسي، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، مصر، 2001، ص98.

4- جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، ص176.

5- ابن زيدون ، ديوان ابن زيدون ورسائله ، تحقيق : علي عبد العظيم ، ص 253-254.

هـــا إنَّهـــا لَوْعـــةٌ فـــي الصَّـــدْرِ قادِحَـــةٌ نـــارَ الأسَـــى ، ومشـــيبي طـــائرُ الشّـــررِ

مكث ابن زيدون في سجنه قرابة خمسمائة يوم كما يقول[1]: (البحر الخفيف)

أفصـــبر مئـــين خمســـاً مـــن الأيـــام؟ ناهيـــــك مـــــن عـــــذاب ألـــــيم

ويرى بعض الباحثين أنّ ابن زيدون أودع السجن مرتين، لكن الرأي الصائب أنه "لم يسجن إلا مرة واحدة".[2] فكتب الرسالة الجديّة في أخريات سجنه مستعطفاً أميره أبا الحزم آملاً أن يثير في نفسه عوامل الحنان، مذكراً إيّاه بخدماته السابقة في تأسيس ملكه، وقصائده السابقة في الإشادة بذكره، وقد أفرغ في هذه الرسالة جهده، وأودعها أقوى وسائله في التأثير، وشفعها بقصيدة عاطفية ضارعة مؤملاً أن تنفذ إلى قلب الأمير، لكنه لم يعطف.[3]

فيقول في استعطاف أبي الحزم:[4] (البحر السريع)

إيـــهِ أبَـــا الحَـــزْمِ! اهْتَبِـــلْ غِـــرّةً ألســـنةُ الشّـــكرِ عليهَـــا فصـــاحْ

لا طـــارَ بـــي حـــظٌّ إلـــى غايـــةٍ إنْ لـــمْ أكـــنْ مِنْـــكَ مَـــرِيشَ الجَنَـــاحْ

عتبـــاكَ- بعـــدَ العتـــبِ- أمنيـــةٌ مَـــا لـــي علـــى الـــدّهْرِ ســـوَاها اقتـــرَاحْ

وَاشْـــفَعْ، فَلِشّـــافِعِ نُعْمَـــى بِمَـــا سَـــنَاهُ مِـــنْ عَقْـــدٍ وَثِيـــقِ النـــوَاحْ

1- ابن زيدون، الديوان، ص282.

2- محمد زكريا عناني، وفوزي سعد، في الأدب الأندلسي، ص99.

3- ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص354.

4- ابن زيدون، الديوان، ص249-250.

وقـــاكَ مـــا تخشَـــى مـــنَ الـــدّهرِ مـــنْ تعبْـــــتَ فـــــي تأمينِـــــهِ واســـــتراحْ

فلم يأبه له أبو الحزم، فاستشفع بأبي الوليد بن أبي الحزم، وإلى الشاعر ابن برد وإلى شيخه القديم أبي بكر مسلم بن أحمد القرطبي، ولم يستطع أحد أن يلين قلب أبي الحزم على ابن زيدون، فاقترحوا على ابن زيدون الهرب من سجنه، ثم استطاع الهرب بمساعدة أبي الوليد بن أبي الحزم.[1]

وفرّ إلى إشبيلية لائذاً بآل ابن عبّاد،[2] أعداء ابن جهور، وقد أمدته فترة السجن ثم الاختفاء والهرب بطائفة من فرائد ما كتب في السجن والاغتراب والإحساس بالضياع، مثل قوله:[3] (البحر الطويل)

خَليلَـــيّ، لا فِطـــرٌ يَسُـــرّ وَلا أضْـــحَى فمـا حـالُ مـن أمسَـى مَشـوقاً كمـا أضْـحَى ؟

ولم يكف ابن زيدون طيلة هذه المدة عن محاولة التوسل لابي الحزم بن جهور لكي يعفو عنه، فنجحت شفاعته واستعاد رضا أبي الحزم، ومات أبو الحزم، وتولى سنة 435هـ من بعده ابنه الوليد فتبدل الحال، إذ كانت أواصر الصداقة تربط بين الرجلين منذ أمد بعيد، وهكذا جاءت العودة المظفرة إلى قرطبة ورفع – أبو الوليد – مكانته، ونوه له، وأسنى خطته وصرّفه في السفارة بينه وبين رؤساء الأندلس فيما يجري بينهم من التراسل والمداخلة[4]، وهنا يمكن القول أنّ ابن زيدون أصبح مرة أخرى وزير خارجية قرطبة والمستشار الأول لأميرها الجديد.

1- ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص338.

2- نفسه، ص339.

3- ابن زيدون، الديوان، ص158.

4- ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص338.

ولكن الحال لم يبقَ على ما كان عليه، فتغير أبو الوليد على ابن زيدون، حين دسَّ بعض أصحاب ابن زيدون بمحاولة إعادة دعوة الأمويين إلى قرطبة، فأرسل أبو الوليد إلى ابن زيدون يطلب منه العودة إلى قرطبة، لكن ابن زيدون خاف مغبة الرجوع، فذهب إلى إشبيلية والتحق بالمعتضد، ونال عنده حظوة، وأصبح وزيراً ونديماً وشاعراً للمعتضد ثم لابنه المعتمد من بعده.[1] تطلع المعتمد للاستيلاء على قرطبة، فزيّن له ابن زيدون ذلك، فزاد التقارب بينهما، فابن زيدون يعلم بأحوال قرطبة، وزعيمهم الروحي كانوا لا يعصون له أمراً، وهو المعبّر عن أمانيهم ومجدهم، فعاد ابن زيدون إلى قرطبة.[2] ثم وقعت الفتنة في إشبيلية، والمعتمد في قرطبة فسعى لإخمادها بتسيير جيش ضخم بقيادة أحد أبنائه، وأمر ابن زيدون أن يسافر مع الجيش، لما كان يجد فيه من ذكاء وفطنة، وما كان يعرفه من حب أهل إشبيلية له، وحاول ابن زيدون أن يعتذر إلا أنه أصّر على ذهابه، على أن سفر ابن زيدون كان مكيدة من طرف خصومه، وعلى رأسهم ابن مرتين قائد الجيوش في قرطبة، والوزير ابن عمّار؛ ليخلوا لهم الجو هناك، ويتخلص من الرجل الذي كان يحظى بأعلى مكانه عند المعتمد وعند أهل المدينة.[3]

1- يوسف عطا الطريفي، شعراء العرب المغرب والأندلس، ص135.

2- محمد زكريا عناني، وفوزي سعد، في الأدب الأندلسي، ص102.

3- ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص419 .

فنجحت الجيوش في استرداد إشبيلية، فكان الشاعر قد أجهد بفعل الشيخوخة، وكثرة ما بذل من جهد، فاشتد عليه المرض، وتوفي في إشبيلية في منتصف رجب سنة 463هـ، ونقل جثمانه إلى قرطبة ودفن فيها.[1]

وخلاصة القول إنّ ما تعرض له الشاعر من نكبات سياسية، وقضية سجنه، غمرت شعره بالمعاني التي عبر عنها تعبير المجرب، وساهمت في الارتقاء بالتجربة الشعرية بفتحها آفاقاً جديدة في التعبير، وتقلب الشاعر بين نعيم السياسة ومرّها، فانعكس على موقفه من الدهر .

ثانياً: حبه لولادة

أثرت قصة الحب بنيه وبين ولّادة تأثيراً كبيراً في حياة ابن زيدون، وفي آثاره الأدبية شعراً ونثراً، كان لولادة مجلس يرتاده الأدباء والشعراء، وابن زيدون من الذين يرتادون مجلسها[2]، عرف الشاعر ولّادة بعد أن بلغ أشده، وتبوأ منصب الوزارة، ونضجت مواهبه، وكان يغشى ندوتها مع من يغشاها من العظماء مُدِلاً بمكانة أسرته، ووفرة ثروته، وعلو منزلته، وذيوع شهرته في فنون الشعر والنثر، والشؤون السياسية، وكان الشاعر عذباً كما فهم من رسالته الهزلية، وصادفت ولّادة فيه فتىً وسيم المحيا حلو الحديث قوي العارضة رقيق الشعر نابه المكان، وصادف هو فيها رقة وانعطافاً وأنوثة صارخة وجمالاً فتّاناً، فانبعث فيها ميل قوي تدرج إلى حبٍّ عنيف، ولقد قوّى هذه العاطفة اتفاق ميولهما ومشاربهما الفنية وصفاتها الحسيّة، فكلاهما كان شاعراً مفتوناً بالموسيقى والغناء، ميالاً إلى معاقرة الشراب، وكلاهما كان وسيماً ظريفاً حاضر البديهة عذب الحديث، وكلاهما من

1- ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص419.

2- نفسه، ص376 .

صفوة الطبقة الراقية، فلا عجب إذا جذب الهوى شبيهاً إلى شبيه، فاندفعا مع الحب في تستر وتصوّن[1] وفي ذلك يقول: [2] (البحر المتقارب)

أصـــونكِ مـــن لحظـــاتِ الظّنـــونِ وأعليـــكِ عـــن خطـــراتِ الفكـــرْ

وأحـــذرُ مـــنْ لحظـــاتِ الرّقيـــبِ وقـــدْ يســـتدامُ الهـــوى بالحـــذرْ

ولكن هذه العاطفة لم تلبث أن اشتهرت، وطار ذكرها على كلِّ لسان؛ فلم يجد الشاعر بعد هذا حاجة إلى التستر، فقال: [3] (البحر البسيط)

يـا مَـن غَـدَوتُ بِـهِ فـي النـاسِ مشـتَهِراً قَلبـي عَلَيـكَ يُقاسـي الهَـمَّ وَالفِكَـرا

إن غِبـتَ لَـم أَلـقَ إنسـاناً يُؤَانسُـني وَإن حَضَـرتَ فَكـلُّ النـاسِ قَـد حَضَـرا

فضاقت ولاّدة بهذا الإعلان، ووجد الخصوم الفرصة سانحة، فأوغروا صدرها عليه، فاعتذر إليها بقوله: [4] (البحر البسيط)

واللهِ مـا سـاءني أنـي خفيـتُ ضـنىً بـلْ سـاءني أنّ سـرّي، بالضّـنى عَلَـنُ

لـوْ كـانَ أمـرِيَ، فـي كَـثْمِ الهَـوَى بيـدي مـا كـانَ يَعلـمُ مـا فـي قلبـيَ البَـدَنُ

1- انظر مقدمة ديوان ابن زيدون ورسائله، تحقيق: علي عبد العظيم، ص 35-36.

2- نفسه، ص36.

3- نفسه، ص 36.

4- نفسه، ص36.

ولكنّ خصومه لم يكفّوا عن إذكاء حفيظتها عليه، فالحب الذين كان بينهما لم يدم طويلاً، وقيل: من شدة الغيرة واعتدادهما الزائد بالنفس، وقيل: لأن قلب ولاّدة قد تغير بسبب ما سمعته، أو ما تناهى إلى سمعها أن ابن زيدون تعلق بجارية سوداء بارعة في الغناء[1]، وقد عاتبته في ذلك[2] (البحر الكامل)

لَـو كنـت تنصـفُ فـي الهـوى مـا بيننـا لـــم تهـــوَ جـــاريتي ولـــم تتخيـــرِ

وَتركـــتَ غصـــناً مثمـــراً بجمالـــه وجنحـــتَ للغصـــنِ الـــذي لـــم يثمـــرِ

ولقـــد علمـــت بـــأنّني بـــدر الســـما لَكـــن دهيـــت لشـــقوتي بالمشـــتري

وحاول ابن زيدون استدرار عطفها بقصيدته النونيّة الشهيرة:[3] (البحر البسيط)

أضْـــحَى التّنـــائي بَـــديلاً عـــنْ تَـــدانِينَا وَنَـــابَ عَـــنْ طيـــبِ لُقْيانَـــا تجافينَـــا

إلا أن ولاّدة لم تأبه وقطعت علاقتها بابن زيدون[4]، وقيل: إنّ ابن زيدون لما صدت عنه ولادة غضب، وفي فورة غضبه اعتدى عليها بالضرب، وندم على فعلته، واعتذر منها في قوله:[5] (البحر الرمل)

1- صلاح جرار، ولّادة بنت المستكفي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، 2011، ص49.

2- ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص431.

3- ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، تحقيق: علي عبد العظيم، ص37.

4- عبد الرزاق مجيد الهلالي، ولادّة وابن زيدون، طبعة المعارف، بغداد، 1947، ص16.

5- ابن زيدون، الديوان، تحقيق: علي عبد العظيم ، ص37.

إن تكـــــنْ نَالَتْـــــكِ بالضّـــــرْبِ يـــــدي وَأصـــــــــــابَتْكِ بِمَـــــــــا لَـــــــــمْ أُرِدِ

فلقـــــــدْ كنـــــــتُ لعمـــــــرِي فاديـــــــاً لـــــــكِ بالمـــــــالِ وبعـــــــضِ الولـــــــدِ

فثقـــــــي منـــــــي بعهـــــــدٍ ثابـــــــتٍ وَضَـــــــــمِيرٍ خَـــــــالِصِ المُعْتَقَـــــــــدِ

وَلَـــــئِنْ سَـــــاءَكِ يَـــــوْمٌ، فَـــــاعْلَمي أنْ ســـــــــيتْلُوهُ ســـــــــرورٌ بغـــــــــدِ

ومن الأسباب التي قيل إنّ ولادّة نفرت من ابن زيدون ثورة ابن زيدون على الأمويين وتأييده لابن جهور.[1] فولاّدة هي بنت الخليفة المستكفي بالله الذي كان قبل المعتد بالله آخر خلفاء بني أمية في الأندلس.[2]

ومن الأسباب التي أفاضت فيها كتب التاريخ والأدب، وأنها كانت تعاني من ميل حاد لتعذيب الآخرين،[3] فعلى الرغم من جمالها ورقتها ظلت عانساً طول الحياة، مع كثرة الراغبين فيها المتهافتين عليها؛ وإنها لتقبل على ابن زيدون، ثم تصّد عنه، ثم تعود إليه لتنصرف عنه انصرافاً تاماً، وتقبل على ابن عبدوس، ثم تعبث به وتسخر منه، ثم تعود إليه عودة أشبه بالصداقة منها بالمحبة.[4]

1- انظر مقدمة ديوان ابن زيدون، تحقيق: علي عبد العظيم، ص37.

2- ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص433.

3- محمد زكريا عناني، وفوزي سعد عيسى، في الأدب الأندلسي، ص106.

4- انظر مقدمة ديوان ابن زيدون، تحقيق: علي عبد العظيم، ص38.

وخلاصة القول إن ابن زيدون كثر غزله بولادة بعد أن ساءت العلاقة بينهما، فهو شعر شكوى وألم وذكرى، فقد كانت قصائده تحوم حول إثبات حبه وإخلاصه لولادة.

ساهم ذلك في إثراء شعر ابن زيدون، وجعله يتذكر الأيام الخوالي التي صفا له العيش، ويتمنى عودة تلك الأيام، وسخط على الدهر، وحملّه السبب فيما حلّ بينه وبين محبوبته.

ثالثاً: ثقافة ابن زيدون وتأثره بالتراث الديني والتاريخي والشعري :

كانت الثقافة في زمن ابن زيدون في أوج ازدهارها في بلاد الأندلس، وخاصة قرطبة حيث شكلت المساجد، والنوادي جامعات يتلقى فيها طلاب العلم مختلف العلوم والآداب، بالإضافة إلى الدراسات الدينية، حتى أصبحت مدينةً للعلم والأدب والشعر، ونافست بغداد في هذا المجال.[1] وفي هذا يقول تريند "لم ينبغ أعلام مفكري أسبانيا الإسلامية في عصر خلافة قرطبة الزاهر، بل في عصور الفوضى السياسية التي أعقبت ذلك العصر، وكان الطالب الإنجليزي أو الاسكتلندي الذي يرغب في أن يظفر بنصيب من العلم بأرسطو أوفر من غيره يشد رحاله إلى الأندلس، حيث يتعلم كيف يقرأ المؤلفين اليونانيين بالعربية".[2]

أما عن انتشار التعليم فحسبنا ما قاله دوزي: "كان كل فرد بالأندلس يعرف القراءة والكتابة، على حين كانت أوروبا المسيحية تتخبط في دياجير الجهالة،[3] فقد كان العرب إذا فتحوا بلداً بادروا

1- انظر مقدمة ديوان ابن زيدون، تقديم وشرح وتعليق: أحمد فاضل، ص6.

2- انظر مقدمة ديوان ابن زيدون، تحقيق: علي عبد العظيم، ص15.

3- نفسه، ص15.

بإنشاء مسجد ومدرسة، وكان تعليم البنات شائعاً عند الأندلسيين، وكانت كثيرات منهن يحفظن عدة دواوين من شعر العرب وينظمن ويترسّلن، وبلغ بعضهن درجة الأستاذية في اللغة والأدب، وكانت للطب أربع مدارس آهلة بالمدرسين والتلاميذ من جميع الملل، والأجناس في قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسية، أما مدارس العامة فكانت بقرطبة وحدها ثمانون مدرسةً عامةً، وكان للعلماء والشعراء والمؤرخين مجامع علمية وأدبية، وكان هناك قول مأثور ينقشونه على أكثر معاهدهم العلمية وهو: "إنّ العلم يقوم على أربعة أمور: علم الحكماء، وعدل العظماء، ودعاء الصلحاء، وشجاعة الشجعان".[1]

كانت العلوم الدينية صاحبة المقام الأول، وكان الفقهاء يتمتعون بمنزلة سياسية تقرب من منزلة الأمراء، بل كانوا كثيراً ما يهددون عروشهم، ويؤلبون العامة عليهم، إذا آنسوا منهم انحرافاً عن القصد وجنوحاً عن السداد، وتأتي علوم اللغة وفنون الأدب في المرتبة الثانية.[2]

أما عن المكتبات، فقد عني الأندلسيون بالكتب عناية تامة، وبذلوا جهداً في التأليف، وأموالاً طائلة في نسخ الكتب وتغليفها، والرحلة في طلبها، وقد أنشأ الحكم مكتبة جامعة بقرطبة بلغ عدد كتبها 400 ألف كتاب، والأندلس كان بها ستون مكتبة عامة أنشأها الخلفاء الأمويون.[3]

1- ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، تحقيق: علي عبد العظيم، ص16.

2- نفسه، ص16.

3- نفسه، ص17.

أما عن شاعرنا ابن زيدون فثقافته ثقافة واسعة، ولعله استقى معارفه من أكثر الكتب العلمية والأدبية الشائعة في عصره،[1] ويصفه من ترجم له بأنه كان كثير الميل لعلوم العرب، وفنون اللغة، فحفظ كثيراً من آثار الأدباء وأخبارهم، وأمثال العرب وحوادثهم ومسائل اللغة، وكانت له ثقافة فلسفية، يدلنا عليها ما ورد له في رسالته الهزلية من بعض مصطلحات الفلاسفة وأسمائهم: كأفلاطون وأرسطو وبقراط وجابر بن حيان وغيرهم،[2] وفي رسالته الهزلية والجدية فيضٌ من المعارف التاريخية، والثقافية الإسلامية، وعددٌ كبيرٌ من الأمثال والأشعار، ولا شك أن هذه الثقافة قد تلقاها في حلقات العلم والأدب في قرطبة على يد مشاهير علمائها.[3]

ومن يقرأ شعر ابن زيدون يجد فيه إشراقات مضيئة من الإسلام العظيم، وكتابه المبين (القرآن الكريم)، أسهمت في رفد الصورة في شعر ابن زيدون بمقومات التطور والكمال، وقد ظهر تأثره بالقرآن من خلال الصور التي اقتبسها أو ضمنها،[4] مثل قول ابن زيدون:[5] (البحر الخفيف)

إذ خِتـــامُ الرِضـــا المسَـــوَّغِ مِســـكٌ وَمِـــزاجُ الوِصـــالِ مِـــن تَســـنيم

1- شوقي ضيف، ابن زيدون، ص16.

2- جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، ص164.

3- نفسه، ص165.

4- عبد اللطيف عيسى، الصورة الفنية في شعر ابن زيدون دراسة نقدية، ط1، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان 2011، ص40.

5- ابن زيدون، ديوان، تحقيق علي عبد العظيم، ص278.

وقوله:[1] (مجزوء الرمل)

وَرَأَوْنـــــــــــــي سَـــــــــــــامِرِيّاً يُتّقَـــــــــــى مِنْـــــــــــهُ المَسَـــــــــــاسُ

وهذا راجع إلى كونه من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة، فقد أثر عنه حفظه للقرآن، وكان مجوداً لحروفه، كثير التلاوة له، فكان متأثراً به، ودلّت ألفاظه على ذلك.

وقد كان شعره حافلاً بالتواريخ، والأحداث، والشخصيات التي تركت بصماتها على صفحات التاريخ منذ فجر الخليقة وحتى عصره، فقد حلّق في أسفار التاريخ مستوحياً أخبار الأمم الماضية، كقصة فرار موسى عليه السلام، وقصة السامري، ولم يغب عنه تاريخ العرب القديم، إذ نهل من بحره صوراً، وأبان عن شخصياته التاريخية وما اشتهرت به من صفات في الجود، والشجاعة والفروسية.[2]

وقد تناول التراث ينتقي منه ما شاء من الصور؛ ليعيد خلقها من جديد فتصبح قادرة على تمثيل رؤيته بعد أن تفاعلت في ذاته، وبراعته تكمن في اختيار القديم الذي اختلفت تجربته من حيث الجوهر، والشكل الخارجي، وإعادة توليده في حلة جديدة تلائم الموضوع الذي يعالجه، ويتشكل تناوله لأشعار سابقيه في حالتين:

1- ابن زيدون، ديوان، تحقيق علي عبد العظيم، ص275.

2- عبد اللطيف عيسى، الصورة الفنية في شعر ابن زيدون، ص48.

الأولى: تضمين أشعاره من نتاجات شعراء ذاع صيتهم كالأعشى والمتنبي، والثانية: الاقتباس من أشعار الشعراء ولا سيما العباسيون الذين شغلت أشعارهم مساحة واسعة في قصائده.[1]

هذه المؤثرات وغيرها من المؤثرات الثانوية كسحر الطبيعة ساهمت في بلورة موقف الشاعر من الدهر، فمرةً نجد الشاعر راضياً من الدهر إذا استرجع منصبه السياسي، أو إذا كانت علاقته بالخليفة، أو بالمحبوبة جيدة، أو في تذكر أيام السعادة والنعيم، ومرةً أخرى نراه ساخطاً يشكو الدهر إذا فقد منصبه، وتذكر هجران الحبيبة له، وأفادته ثقافته في توظيف الدهر من الوجهة الدينية، أو كما استخدمه الشعراء السابقون، فنجده على عادة الشعراء القدامى يجعل من الدهر المتحكم في الحياة، ومن ذلك قوله: "وكذا الدهر إذا ما عزّ ناس ذلَّ ناس".[2]

وهنا جعل الدهر يرفع أقواماً ليذلَّ آخرين؛ وقد نظر في هذا على قول البحتري:[3] (البحر الطويل)

إذا مَـــا نَسَـــبتَ الحادِثَـــاتِ وَجَـــدْتَها بَنـــــاتِ زمـــــانٍ أُرْصِـــــدَتْ لِبَنِيـــــهِ

متـــــى أرَتِ الـــــدّنْيا نَبَاهَـــــةَ خامِـــــلٍ فَـــــلا تَرْتَقِـــــبْ إلاّ خُمـــــولَ نَبيـــــهِ

1- نفسه، ص50.

2- ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، تحقيق: علي عبد العظيم، ص274.

3- البحتري، ديوان، حققه وعلق حواشيه وقدم له، الدكتور عمر فاروق الطباع، المجلد الثاني، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2000، ص588.

الفصل الأول

الدهر في شعر ابن زيدون

الدهر في شعر ابن زيدون

أولاً: دراسة إحصائية لألفاظ الدهر ومتعلقاته.

ثانياً: الصورة الفنية للدهر في شعر ابن زيدون.

ثالثاً: هيكل القصيدة في شعر ابن زيدون، لغتها، ومظاهرها الأسلوبية.

رابعاً: الأغراض الشعرية.

أولاً: دراسة إحصائية:

تبدأ الدراسة بإحصاء ألفاظ الدهر، لأن عملية الإحصاء تكشف عن مدى استخدام الشاعر لهذه الظاهرة التي شاعت وكثرت في ديوانه، كما تدخلنا إلى عالم الشاعر من خلال انعكاس الظاهرة على حياته، وأثرها على شعره.

إن التكرار بصورة غير اعتيادية في أي ديوان، يلفت الانتباه وتدعو للكشف عن الدلالة في كل مرة، فالطريقة الإحصائية "تضع يدنا على بعض الترددات التي هي ذات مغزى، فلا أحد ينكر دورها في رصد المحاور التي يدور عليها الديوان أو القصيدة، ولا أحد يجادل في أن تلك الترددات تضمن انسجام النص مع نفسه ومع النصوص الأخرى التي ينتمي إلى جنسها"[1].

إنّ إحصاء تكرارات الدهر ومتعلقاته في شعر ابن زيدون ليس هدفاً بحد ذاته، وإنما هو بيان موضوعي في وصف اللغة التي يستخدمها، فتكرار الدهر ومتعلقاته – خرج إلى معانٍ ومدلولات كثيرة؛ لبيان أثره في حياة الشاعر، وبعد قراءة الديوان وإحصاء ألفاظ الدهر ومدلولاته، نجد تكرار الألفاظ التالية للدهر ومتعلقاته وهي: الدهر، والزمن، واليوم، والليل، والعهد، والصِّبا، والفجر، والدنيا، والعيش، وغيرها من ألفاظ تدلُّ على الوقت، ولكن تكررت بشكل قليل، وكذلك نجد تكرار أفعال الدهر، مثل: المنايا، والرزايا، والخطوب، والموت، والشيب، والشباب، وريب الدهر، والردى، والنوائب، والصروف، والحادثات وغيرها.

وهذا الجدول يبين تكرار ألفاظ الدهر ومتعلقاته في ديوان ابن زيدون:

1- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 1986، ص60.

الكلمة	تكرارها	الكلمة	تكرارها	الكلمة	تكرارها
الدهر	87	الزمان	31	اليوم	6
دهر	8	زمان	14	يوم	27
دهري	6	زمن	9	أيام	11
دهرهم	4	الزمن	5	الأيام	17
دهرنا	1	زمني	3	أيامها	3
دهرك	1	زماني	3	أيامه	5
		أزماني	1	أيامنا	3
		زمانك	1	يومي	3
		زمانهم	1	أيامي	2
		الأزمن	1	يومنا	1
		زماناً	1	يومه	1
		زماننا	1	يومها	1
المجموع	107	المجموع	71	المجموع	80

الكلمة	تكرارها	الكلمة	تكرارها	الكلمة	تكرارها
الليل	14	الأقدار	2	ساعة	5
ليلة	7	القدر	5	الشهور	4
ليالي	8	الصِّبا	18	العصر	3
ليل	33	العمر	26	عام	1
الليالي	22	العهد	63	الأمس	5
		حياة	13	الربيع	6

		الدنيا	45	السن	2
		العيش	27	الحين	2
				القضاء	2
				الشهر	3
المجموع	84	المجموع	199	المجموع	33

الكلمة	تكرارها	الكلمة	تكرارها	الكلمة	تكرارها
صروف	6	الشبيبة	4	الشباب	12
المصاب	3	الفناء	1	مساء	2
المنية	6	الدجى	4	الصباح	26
الحادثات	22	الموت	13	باكره	1
ريب	1	الإناء: ساعة من ساعات الليل	2	راوحه	1
الشيب	6	النهار	9	الخطوب	9
الضحى	6	الأصال	3	الردى	10
فجر	7	الغدو	1	الرزايا	18
غد	3	المنون	2	النوائب	5
		أسبوع	1	لحظات	6
				الأجل	1
				العشاء	1
المجموع	60	المجموع	40	المجموع	92

بعد قراءة الجدول السابق نجد أن كلمة الدهر مكررة 107 مرات، وكلمة الزمان 71 مرة، واليوم 80 مرة، والليل 84 مرة، والصِّبا 18 مرة، والعمر 28 مرة، والعهد 63 مرة، والدنيا 45 مرة، والعيش 27، وتكررت الألفاظ التي تدل على أفعال الدهر: كالحادثات 22 مرة، والرزايا 18 مرة، والصروف 6 مرات، والمصائب 3 مرات، والمنية 6 مرات، والموت 13 مرة، والمنون مرتين، والشيب 6 مرات، والشبيبة 4 مرات، والفناء مرة واحدة، والشباب 12 مرة، والخطوب 9 مرات، والردى 10 مرات، والنوائب 5 مرات، ومجموعها 766 مرة.

ولقد لاحظنا أن كلمة الدهر المعرفة بأل التعريف هي الأكثر تكراراً، حيث وردت سبعاً وثمانين مرة، في حين أن كلمة الدهر بشكل عام وردت مئة وسبع مرات، وهي الأكثر تكراراً في الديوان، وتبين لنا أنّ الدهر يحمل أكثر من دلالة منها: دلالات إيجابية حيناً، وسلبية أحياناً أخرى، كما أنّ الشاعر يعمد إلى الجمع بين الضدين في توظيف الدهر، من ذلك قول ابن زيدون:[1] "مجزو الرمل"

مـــــا علـــــى ظنـــــي بـــــأس يجـــــــرح الـــــــدهر ويأســـــــو

لا بأس عليَّ إن أصابني الدهر، فمن شيمه الدهر أن يجرح ثم يداوي الجراح، والشاعر هنا ينسب ما حل به إلى الدهر، واستخدم" يجرح ويأسو"؛ ليجعل ذلك سبباً للتخفيف عنه.

1- ابن زيدون، الديوان، تحقيق، علي عبد العظيم، ص273.

وفي الدلالة الإيجابية لفعل الدهر يصف ابن زيدون الربوع تتدفق فيها المياه، وتندى الظلال جوانبها من أفعال الدهر وعطائه، فهو فتى سمح كريم أسعد الشاعر، كما في قوله: [1] "البحر الطويل"

هُنَـــاكَ الجِمـــامُ الـــزُّرْقُ تُنْـــدى حِفافَهـــا ظِـــلالٌ عهِـــدتُ الـــدّهرَ فيهـــا فتًـــى ســـمحا

وفي الدلالة السلبية لفعل الدهر يجعل الدهر هو المعذب له، والجالب لكل أصناف المصائب في قوله: [2] "البحر الرجز"

عليـــــل دهـــــر ســـــامني تعـــــذيبا أدنـــــى الضـــــنى إذ أبعـــــد الطبيبـــــا

وأحياناً يجعل الممدوح هو الآمر الذي يتحكم بالدهر، مثال ذلك في قوله: [3] "البحر السريع"

وآمـــــر الـــــدهر الـــــذي لـــــم يـــــزل يصـــــــغي إليـــــه منـــــه مـــــأمور

فالممدوح يأمر الدهر والدهر يلبي نداءه، ولا يزال مصغياً لتلقي أوامر الممدوح.

وكما يجعل الممدوح عدة الدهر ومصدر أحداثه، ويضفي صفات الدهر على الممدوح كما في قوله: [4] "البحر الطويل"

أرى الـــدهر: إن يـــبطش فأنـــت يمينـــه وإن تضـــحك الـــدنيا فأنـــت لهـــا ثغـــر

1- ابن زيدون، الديوان، ص161.

2- نفسه، ص154.

3- نفسه، ص620.

4- نفسه، ص575.

يخاطب الممدوح ويقول: إن بطش الدهر فأنت يمينه الباطشة، وإن ضحك فأنت ثغره البسام. ونجد عند استخدامه لكلمة دهر نكرة غير معرفه بأل التعريف – هنا يبدو الشاعر مستسلماً لما يحدثه الدهر، وكأن الأمر الذي حصل له من شيء مجهول، ولكنه يحمل الدهر مسؤولية حدوثه.

وفي إضافة الدهر إلى الضمائر، كانت الغلبة في إضافتها إلى ضمير المتكلم، حيث أضيفت ست مرات، وأربع مرات إلى ضمير الغائب، ومرة إلى ضمير المتكلمين، ومرة إلى ضمير المخاطب.

فالدهر يحمل الدلالة السلبية، ويحمل المصائب حينما يضيف الشاعر إلى الدهر ضمير المتكلم، في حين يحمل الدلالة الإيجابية عند إضافته إلى ضمير الغائب أو المخاطب، وكأن الشاعر يقول: إنَّ الدهر يأتي عليَّ بالمصائب، أمّا على غيري فيجلب لهم النعيم، والسعادة، وذلك في مخاطبة ممدوحه: [1] "البحر الكامل"

هُصِــرَ النعــيم بعطــف دهــرك فــانثنى وجـــــرى الفرنـــــد بصـــــفحتي دنياكـــــا

فقد طاب الدهر للممدوح كأنّ السعادة مالت منجذبة له، والحياة صفت له، وازدهرت كأنما تزينت بالوشي المنمّق المنضود.

ونجد ابن زيدون أحياناً يكرر البيت نفسه الذي يتضمن كلمة "دهر" في قصائد مختلفة قالها في الرثاء، منها قصيدتان: الأولى قالها في رثاء أبي المعتضد، والثانية قالها في رثاء أم ابن جهور،

1- ابن زيدون، الديوان، ص441.

وهي تحمل المعنى نفسه، التأكيد على الصبر لما أحدثه الدهر من المصائب، وأنَّه أهلك أغلى نفس في الحياة. وذلك في قوله: [1] "البحر الطويل"

هـو الـدهر فاصـبر للـذي أحـدث الـدهر فمـن شـيم الأبـرار- فـي مثلهـا- الصـبر

أأنفَـسَ نفـسٍ- فـي الـورَى- أقصـدَ الـرّدى ؟ وأَخطَـرَ عِلـقٍ، للهُـدى ، أفقـدَ الـدّهرُ؟

فـداما معـاً فـي خيـر دهـر صـروفه حـرام عليهـا أن يَطُورهمـا هجـر

شـككنا!! فلـم نثبـت: أأيـام دهرنـا بهـا وسـنٌ أم هـزَّ أعطافهـا سـكر؟

أرى الـدهر: إن يـبطش فأنـت يمينـه وإن تضـحك الـدنيا فأنـت لهـا ثغـر

فالشاعر في حديثه عن الدهر أحياناً يريد أن يشير إلى ما قدمه له، وما يقدمه لغيره، فيجعل منه الشيء الذي يحول بينه وبين تحقيق مراده، ومن مثله من أهل النباهة، فهو يمثل مفهوماً أوسع من أنه زمن فحسب، فهو القوة المسيطرة المتحكمة بتغيير الأشياء، والزمن كذلك لم يقصد الشاعر به الزمن الحقيقي فحسب، إنما هو صورة من صور الدهر في الفعل والتغيير.

وقد تكررت كلمة زمن بصورها معرفة بأل، ومضافة إلى الضمائر، وبصيغة المفرد والجمع، إحدى وسبعين مرة، وقد شكا ابن زيدون فعل الزمان، وتذمر منه وعاتبه تارةً، ومدحه وشكره تارةً أخرى، وتهكم منه تارةً ثالثة، وقرن في بعض الأحيان إساءة الدهر وذنب الزمان بالاعتذار، وذلك في قوله: [2] "البحر الطويل"

1- ابن زيدون، الديوان ، ص562 – 575.

2- نفسه، ص523.

إســـاءة دهـــرٍ أحســـن الفعـــل بعـــدها وذنـــب زمـــانٍ جـــاء يتبعـــه العـــذر

بث ابن زيدون شكواه من الدهر، الذي صبَّ غوائله عليه، وهو من تسبب في الأحداث التي لحقت به، في بعض المواطن مدح الدهر خاصة عند ذكر الممدوح، أو في ذكر الأيام الجميلة التي نال فيها مبتغاه، وسعد بوصل الحبيبة، أو حظي بالسلطة.

كما جمع بين الضدين في توظيف الدهر، وفي كلتا الحالتين جعل من الدهر الفاعل المسيطر المغيّر للأشياء، فحياة ابن زيدون تراوحت بين النعيم والبؤس، النعيم في وصاله مع الحبيبة، وفي تقلده المنصب، والبؤس في انفصاله عن الحبيبة وهجرها له، وفي عزله عن المنصب وسجنه.

وفي هذا الفصل سيكون البحث حول الأبيات التي حوت ألفاظ الدهر وما تدل عليه، فدراسة الصورة الفنية، والأساليب اللغوية، والموسيقى والإيقاع، والأغراض الشعرية ستدرس من خلال صورة الدهر ومتعلقاتها بشكل خاص لا بشعر ابن زيدون بشكل عام.

ثانياً: الصورة الفنية للدهر في شعر ابن زيدون:

الصورة الفنية:

اهتمت الدراسات الأدبية بالصورة وخاصة في مجال الشعر، فالشعر إدراك جمالي للواقع يصوره الشاعر بالكلمة، فتكشف ما بداخله من عوالم جديدة، وتشكلها في بناء جمالي موازٍ لما يشعر به.[1] هذا الوعاء الذي يسع مشاعره وأحاسيسه ليس إلا لغة الأمة بماضيها المشرق وحاضرها الزاهي، وهي تحمل الخبرة المخزونة في أذهان أفراد الجماعة بعد أن اصطلحوا على مدلولاتها، فتصبح بالتالي لغة محددة الدلالات.[2]

ولمّا كان الشاعر متميزاً بحساسية وذكاء شديدين، وانفعال متوتر أمام المواقف والأشياء، وله رؤية جمالية تتجاوز الأشياء في علاقتها الثابتة والمنطقية والشكلية في حركة ونفاذ إلى العمق. فقد وجد الشاعر نفسه في حيرة وأزمة، فهو يريد أن يشكّل على وفق رؤيته الخاصة موقفه من واقعه، فيجيد رتابة اللغة وعمومياتها، مما يتوجب عليه زلزلتها للنفوذ إلى خصوصية تجربته، وتشكيل الموقف بإدراك جمالي خاص؛ فيتجه إلى إقامة علاقات لغوية خاصة؛ لتجسيد، وتصوير خبرته الجمالية، وحقائقه النفسية والفكرية والاجتماعية فيما يطلق عليها بالصور الشعرية.[3]

1- عبد اللطيف يوسف عيسى، الصورة الفنية في شعر ابن زيدون، دراسة نقدية، ط1، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، 2011، ص19.

2- نفسه، ص19.

3- مدحت سعد محمد الجيار، الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي، منشورات الدار العربية، ليبيا، 1984، ص6.

والأدب في طبيعته نشاط تخيلي يتميز عن غيره من الأنشطة الإنسانية، فالصور الفنية تعد وسيلة في استكشاف القصيدة، وموقف الشاعر من الواقع [1] ، فالشاعر الأصيل يتوسل بالصورة؛ ليعبّر عن حالات لا يمكن أن يتفهمها ويجسدها بدونها. [2]

فالشعراء يصيغون المعنى صياغةً تجذب القارئ إلى الفهم الصحيح، وهذه الصياغة تتم من خلال التشبيه والخيال على المعنى المصور، وهذا التصوير يعتمد على غزارة علم، وسعة ثقافة لدى الشاعر.[3] وهذا المعنى عبر عنه الجاحظ في تأثره بثنائية اللفظ والمعنى بقوله: "والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، إنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير".[4]

فالصورة تبرز لدى ابن طباطبا ت 322هـ في تشكل حسيّ، وهي متنوعة في الشكل والحركة واللون والصوت، هي الصفات المحسوسة حين يقول: التشبيهات على ضروب مختلفة منها: تشبيه

1- جابر أحمد عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، منشورات دار الثقافة، القاهرة، 1974، ص7.

2- نفسه، ص383..

3- عبد اللطيف عيسى، الصورة الفنية في شعر ابن زيدون، ص21.

4- الجاحظ أبو عثمان، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، منشورات مكتبة مصطفى البابي، مصر، ط1، 1938، ص132.

الشيء بالشيء صورة وهيئة، ومنها تشبيه به معنى، ومنها تشبيه به حركة وبطء وسرعة، ومنها تشبيه به لوناً، ومنها تشبيه به صوتاً.[1]

وحدد قدامة بن جعفر ت337هـ المصطلح تحديداً عندما رأى القصيدة صورة لتلك المعاني، التي يعبر عنها الشاعر.[2]

أمّا المحدثون فقد اعتمدوا على مقاييس جديدة وموازين في تقويم النتاج الأدبي، تقوم على أسس نفسية غالباً، فبدت الصورة في صيغة لفظية، يعبر بها الأديب عن تجاربه وأحاسيسه، وجمعت هذه الصيغة ألوان التعبير المتفقة والمختلفة والتي تركزت في التشبية والمجاز والرمز، لذا جاءت الصورة مختلفة عما ألفناها لدى القدماء التي اتصفت أغلب صورهم بالجزئية، والتفكيك مراعاة اللفظ على حساب المعنى، وشلَّ تأثير الخيال والاستعارة إجمالاً.[3]

ويرى جابر عصفور أن الصورة "أداة الخيال ووسيلته ومادة إلهامه التي يمارس بها ومن خلالها فاعليته ونشاطه".[4]

1- ابو الحسن بن طباطبا، عيار الشعر، تحقيق: طه الحاجري، ومحمد زغلول سلام، منشورات المكتبة التجارية، القاهرة، 1956، ص17.

2- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ص65.

3- عبد الفتاح صالح نافع، الصورة في شعر بشار بن برد، منشورات دار الفكر، عمان، الأردن، 1980، ص78.

4- جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ص19.

فالخيال الشعري هو الذي يلعب دوراً كبيراً في التشكيل الأدبي،[1] فالصورة تجسيد المعنى بطريقة تحدث تأثيراً في نفس المتلقي، تعبر عن حالة أو موقف معين يمر به الشاعر. فالصورة تؤلفها اللغة والخيال، والعالم المحسوس، ولا يغرب عن البال أنَّ الصورة خلق فني تستخدم اللغة وطاقاتها لعرض المعنى.[2]

وهناك تفاوت بين النظريتين القديمة والحديثة إلى الصورة، ففي حين نظر القدماء لها على أنها المقاربة بين طرفين كما هو الحال في الصورة البيانية التشبيهية، أو مما لا يقوم على التشبية كالكناية، كانت النظرة الحديثة أكثر عمقاً فجعلتها ممتزجة بماهية الشعر ذاته، وذلك أن الشعر تعبير عن الوجود من خلال النفس، أو بالأحرى تفسير للوجود الظاهر، بوجود غيبي منكفئ، يتراءى للشاعر في الرؤيا والذهول، أو يقتنع به بإيمان قلبي مبهم.[3]

ويرى عز الدين إسماعيل "أن الصورة تركيبة وجدانية تنتمي إلى عالم الوجدان أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع. [4]

1- جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ص392.

2- عبد اللطيف عيسى، الصورة الفنية في شعر ابن زيدون، ص28.

3- إيليا سليم الحاوي، ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره، مكتبة المدرسة ودار الكتب اللبناني، بيروت، 1959، ص27.

4- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، منشورات دار العودة، 1981، ص127.

ويرى أحمد الشايب الصورة بأنها الوسيلة التي يحاول بها الأديب نقل فكرته، وعاطفته معاً إلى قرائه وسامعيه. [1]

وهناك كثير من المؤثرات التي حركت عملية التصوير الفني في شعر ابن زيدون، والدهر واحد من هذه المؤثرات[2]، فالزمن مرتبط بحياة الإنسان ارتباطاً وثيقاً، ومرتبط بمشاعره فلا شيء أطول منه لمن ينتظر، ولا أسرع منه لمن هو في سرور ومتعة، ومثاله قول ابن زيدون: [3] " بحر الرمل"

إن يطـــــل بعـــــدك ليلـــــي فلكـــــم بـــــت أشـــــكو قصـــــر الليـــــل معـــــك

وفي بحثنا هذا لا نريد الإطالة في الحديث عن الصورة، وإنما نريد الذي يوصلنا بالدهر، فصوره بأنّه قوة فاعلة، وأضفى عليه صورة الكائنات الحية، ووصفه بصفات الإنسان، والكائنات الحية في التغيير والتبديل، وغيرها من الصفات: وذلك في قوله: [4] "البحر البسيط"

غـيظَ العـدا مـن تسـاقينا الهـوى فـدعوا بـــأن نغـــصَّ فقـــال الـــدهر: آمينـــا

إنّ الزمـــان الـــذي مـــا زال يضـــحكنا أنســـاً بقـــربهم قـــد عـــاد يبكينـــا

1- أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، منشورات مكتبة النهضة، القاهرة، مصر، 1964، ص242.

2- انظر فوزي خضر، عناصر الابداع الفني في شعر ابن زيدون،ص168.

3- ابن زيدون، الديوان، ص167.

4- نفسه، ص141.

الصورة الفنية وسيلة الشاعر لإيصال مواقفه من الحياة، وأفكاره وانفعالاته إلى المتلقي على نحو مؤثر، فعلى الشاعر انتقاء الأسلوب الأنجع، لإيصال الأثر إلى الآخرين، ولا سيما إذا كانت العلاقة بين عناصر هذا الأثر هي التي تحدد القيمة العضوية بين جزئيات عناصرها المشتقة، إذا علمنا أن الصورة تشتمل على "نوع من التكثيف الشعوري الناتج عن تلاشي الأبعاد، أو القيود الزمنية التي تفصل بين الأشياء.[1]

الدهر عند ابن زيدون مادة معنوية يجسد فيها بعض صفات الإنسان، وكما أنه يرسم صورة من المحسوسات من خلال فاعليته، وهو ما سمي بالصورة التشخيصية في شعر الشاعر "وهي صورة تدل على قدرته على تخيل الحياة فيما لا حياة فيه، وإكساب الجمادات أو قوى الطبيعة أو المعاني شخصيات، بمعنى أنه يتخيلها أشخاصاً أحياءً قائمين بأنفسهم".[2]

يعد الدهر مصدراً من مصادر الصورة الشعرية عند ابن زيدون، فقد استخدم لفظ الدهر، وخلع عليه صفات إنسانيّة مثل السماح، وصفات تجسيدية مثل الجمال، وحاوره وتحدث إليه[3]، عاش ابن زيدون حياة صراع؛ للوصول إلى الولاية، وحتى يحظى بوصل حبيبته، فكان بين تقلبات الدهر فرحاً حيناً، وحزيناً حيناً بفعل الدهر، فكان يضفي على الدهر صفات– القوة والوحشة والمسيء، وغيرها من الصفات القاسية، والسرور والاعتذار والألفه والطيب، وغيرها من الصفات

1- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضايا وظواهره الفنية والمعنوية، منشورات دار العودة ودار الثقافة، 1981، ص138.

2- محمد النويهي، ثقافة الناقد الأدبي، مكتبة الخانجي، بيروت، ط2، 1969، ص248-249.

3- انظر فوزي خضر، عناصر الابداع الفني في شعر ابن زيدون، ص171.

الحسنة، وكلّ هذه الصفات يضفيها على الدهر حسب حالته النفسية ومكانته في تحقيق طموحه أو عدمه، وهذا التشخيص للدهر ساهم في رسم الصورة مثال ذلك، قول ابن زيدون: [1] "البحر الطويل"

إســـاءة دهـــرٍ أحســـن الفعـــل بعـــدها وذنـــب زمـــانٍ جـــاء يتبعـــه العـــذر

فشبه الدهر بالإنسان المسيء، وذلك في معرض رثاء أبي الحزم بن جهور، ولكن الدهر بعد إساءته قد أحسن إليه بولاية ابنه أبي الوليد بن جهور، فيصور الدهر بالإنسان الذي يسيء، ولكنه يتبع الإساءة بالاعتذار، ويحسن إلى من أساء إليه، فالدهر أساء إذ غيب أبا الحزم بن جهور، ولكنه أحسن إذ أتى بالحاكم الجديد.

ومثال في إضفائه على الدهر صفات إنسانيّة قوله: [2] "البحر البسيط"

أمّـــا رضـــاك فعلـــق مـــا لـــه ثمـــنُ لـــو كـــان ســـامحني فـــي وصـــله الـــزمن

تبكـــي فراقـــك عـــينٌ أنـــت ناظرهـــا قـــد لـــج فـــي هجرهـــا مـــن هجـــرك الوســـن

إنَّ الزمـــان الـــذي عهـــدي بـــه حســـنٌ قـــد حـــال مـــذ غـــاب عنـــي وجهـــك الحســـن

أنـــتِ الحيـــاة فـــإن يقـــدر فراقُـــكِ لـــي فليحفـــر القبـــر أو فليحضـــر الكفـــن

الزمن يحول بين الشاعر وأمانيه، فهو يقول إن رضاك نفيس ثمين، ولكن الزمن لا يسمح بهذا الرضا، فهو يمنع الوصال بينه وبين رضا محبوبته، والشاعر يجعل الزمن خصماً له يشتبك معه، ولكنه يعترف بأن الزمن هو الأقوى، لأنه هو الذي يسمح بالوصل أو لا يسمح، والشاعر لا

1- ابن زيدون، الديوان، ص523.

2- نفسه، ص180-181.

حيلة له أمام الزمن فهو يمتثل لأوامره، فكأن الشاعر في تصويره للزمان بالسماح بالوصل أو عدمه، يريد أن يجعل الزمن بمثابة الحاكم، أو ولي الأمر الذي يسمح للشاعر أن يحظى برضا محبوبته، أو لا يحظى.

والشاعر يبكي على فراق المحبوبة، فيصف عينه بأنها تعبت، وغاب عنها النوم بعد هجر محبوبته، ثم يعود ليصف الزمن بأنه يحسن، فالزمان يتغير من الحسن إلى القبح حين يغيب وجه الحبيبة الحسن، فالزمن يستقي جماله من جمال وجه الحبيبة، فهو يرتبط بالحسن بوجود حبيبته أو غيابها، فإن جاءت وأشرق وجهها تحلى الزمان بالحسن، وإذا غاب وجهها تغيّر وجه الزمن. فالمحبوبة تمثل بالنسبة له الحياة فإن قدر غيابها فمصير الشاعر الموت[1].

صراع مع الدهر، يقول ابن زيدون: [2] "البحر الطويل"

لئن ساءك الدهر المسيء فلم يكن بأولِ عهدٍ واجب الحفظ ضيّعا

شهدنا: لقد طرَّزت بُردَ جمالهِ وقلّدتَه عِقد البهاء مُرصّعا

وما فخره إلا بأن كان مصغيا لأمرك، إن ناديتَ لبّى فأسرعا

أتى العثرة العظمى، فهل أنت قائلٌ له حين أشفى من كآبته:" لعا"؟*

وها هو منقادٌ لحكمك، فاحتكم لتبلغ ما تهوى، ومره ليصدعا

1- فوزي خضر، عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، ص172.

2- ابن زيدون، الديوان، ص554-555.

* لعا: دعا للعاثر أن ينهض من كبوته.

هذه أبيات من قصيدة قالها الشاعر في رثاء أم المعتضد، يتكلم فيها عن الدهر وإساءته، وهو يصوره بصور شتى، فيضفي عليه صورة الإنسان فهو يسيء، فيجعلها صفة دائمة للدهر فمن شيمه الإساءة، وكما أنه يجب عليه أن يرعى العهد، وأن لا يسيء، وكأنه شخص محبوب له يرجى منه حفظ عهد ما، ولكنه لم يحفظ العهد .

وفي البيت الثاني: يمدح المعتضد، ويقول له: لقد كنت زينةً، وزخرفاً في غلائل الدهر، وعقداً ثميناً مرصعَ الجمال في عنقه، فجعله عنقاً، والمعتضد يقلد عنقه بقلادة تزينه، وهذه الصورة في تشخيص الدهر أراد أن يعبر بها الشاعر عن صنيعه، وعن إساءته فهو يسيء إلى من يحسن إليه، وفي إضفاء صفة الغدر ونقض العهد عليه، وفي البيت الثالث: يصوره بالمأمور المصغي الملبي لأوامر المعتضد، في البيت الرابع: يصفه بأنه أساء إساءةً عظمى حين قضى على الفقيدة، وقد ندم على فعلته، ويقول: هل تغفر له زلته؟ وهل أنت مقيل له عثرته؟ فيصوره بالإنسان الذي يسيء ثم يندم على إساءته، ويطلب المسامحة.

وفي البيت الخامس يقول: ها هو الدهر يخضع لحكمك فاحكم بما يرضيك، ومُرهُ لينفذ ما تريد، فجعل الممدوحَ متحكماً بالدهر وآمراً له، وكأنه جعل منه أحد الرعية الذي إذا ما أمره الحاكم يلبي أمره.

وفي تصوير الدهر وإضفاء صفات الإنسان عليه تارة، وصفات الكائنات الحية تارة أخرى، وفي جعله القوة الفاعلة المسببة في موت أم المعتضد، والمسيء والمعتذر والمصغي لأوامر المعتضد، إنما هي دعوة من الشاعر للمعتضد أن يتحلى بالصبر لمواجهة الدهر، وتحمل مصائبه،

وأنه بمقدور المعتضد إذا تحلى بالصبر أن يجعل من الدهر المسيء الفاعل فرداً من أفراد الرعية، يقدم اعتذاره، ويصغي لأوامر المعتضد، ويكون مسيطراً عليه، صابراً على مصابه.

ويصف ابن زيدون الدهر ويجعل من صفاته القسوة، وهو إن قسا فقد ينجم عن قسوته النعيم، فما بعد الشدة إلا الفرج، مثال ذلك قوله: [1] "مجزوء الرمل"

إن قســـــــا الـــــــدهرُ فللمـــــــا ء مـــــــن الصـــــــخر انبجـــــــاس

فيصف الدهر بالقسوة، وهي إحدى الصفات التي يتصف بها الناس، وهو إن قسا، فلا بدّ أن يلين فما بعد الشدة إلا الفرج، كما يتفجر الماء من الصخر، وهو بذلك يواسي نفسه بعد أن طال غيابه بالسجن، فما بعد السجن إلا الحرية، وهو يحمل الدهر سبب سجنه، فكأنه إنسان يتسم بالقسوة، ولكن قلبه ربما يلين، ويرأف لحاله، فيحرره.

ويصف الزمان بالوحشة، والوحشة تكون غالباً في الليل، عندما يكون الإنسان وحيداً في مكان موحش لا أنيس معه، وفي ذلك يقول ابن زيدون: [2] "البحر الوافر"

أيوحشـــــني الزمـــــان وأنـــــتِ أنســـــي؟ ويظلـــــم لـــــي النهـــــار وأنـــــتِ شمســـــي؟

وأغـــــرس فـــــي محبتـــــك الأمـــــاني فـــــأجني المـــــوت مـــــن ثمـــــرات غرســـــي

لقـــــد جازيـــــت غـــــدراً عـــــن وفـــــائي وبعـــــت مـــــودتّي ظلمـــــاً، بـــــبخس

1- ابن زيدون، الديوان، ص276.

2- نفسه، ص158.

ولـــــو أن الزمـــــان أطـــــاع حكمـــــي فـــــديتك مـــــن مكارهـــــه بنفســـــي

يخاطب ابن زيدون ولادة بنت المستكفي، وهو في غربته عنها، يعبر عن وفائه وإخلاصه لها، فيبدأ حديثه بأنها إن كانت معه ستكون أنيساً له، وسيواجه الزمان الموحش بقسوته، وحتى إن أظلم النهار لا يبالي بظلامه، لأنها هي الشمس المنيرة التي بها يتحدى ظلمه النهار ووحشة الزمان، وفي هذا تعبير عن مدى حبه وإخلاصه لها، وهو يطلب منها أن تكون معه، فهو يستعين بالمحبوبة على مواجهة قسوة الدهر، ثم بعد ذلك يبني مقارنة بين موقفه منها وموقفها منه، بأنه يغرس الأماني في محبتها له، ولكنه لم يجنِ من هذا الغرس إلا موت الأماني، وكأن جزاءه الغدر منها مقابل وفائه لها، وأن مودته لها باعتها ظلماً بشيء بخس، ثم يقول: لو أن الزمان أطاع حكمي– فهو يتمنى أن يمتلك مقاليد الزمان؛ ليسيره كيف يشاء– كان الجزاء أن يفدي محبوبته بنفسه عن مكاره وعثرات الزمان، وفي هذا كله كأنه يصف محبوبته في غدرها، وقلة وفائها له، وتخليها عنه بالزمان، وما يحمله من وحشة وظلمة، وهو يشبه الزمان بالإنسان الذي يصغي إلى الأوامر ويطيع الأمر؛ فينفذه. واستخدم علاقة التضاد اللوني – يظلم لي النهار؛ ليعبر عن غدر حبيبته له، فاستخدم اللون – الظلمة – في غير الموضوع الذي يستخدم له، ليعبر عن صور الغدر حين يستخدم في مقابل الوفاء، والغرس الذي يدل على الحياة، فيجني منه الموت، والوفاء حين يباع بأبخس الأثمان، وما هي إلا صورة الدهر في تقلبه، وإحداثه لأشياء غير متوقع حدوثها.

واستخدم التضاد اللوني[1]؛ ليعبر عن تغير الزمان، في قوله: [2] "البحر البسيط"

1– انظر فوزي خضر، عناصر الابداع الفني في شعر ابن زيدون، ص193.

2– ابن زيدون، الديوان، ص143.

حالـــــت لفقـــــدكم أيامنـــــا فغـــــدت ســـــوداً وكانـــــت بكـــــم بيضـــــاً لياليـنـــــا

إذ جانـــب العـــيش طلـــق مـــن تألفنـــا ومربـــع اللهـــو صـــافٍ مـــن تصـــافينا

فاستخدم الصورة اللونية للزمان في تغير موقف حبيبته منه؛ ليوضح صورة أن العيش كان طلقاً حين كانا متآلفين، والقلوب صافية متآلفة، فابن زيدون يلون الزمان بناءً على حالته النفسية في وصال الحبيبة أو هجرها.

فالشاعر يتلاعب بألفاظ الزمان، ويستخدمها حسب ما تقتضيه حالته النفسية، فالليل منير مشرق إذا سعد بلقاء الحبيبة، والنهار مظلم موحش أسود إذا ابتعدت عنه الحبيبة، فهو أحياناً يستخدم الليل بدلالة سلبية، وأحياناً إيجابية، كما يستخدم النهار أو الصباح أو اليوم بكلتا الدلالتين: الإيجابية، والسلبية بحسب موقفه النفسي، وفي ذلك يستخدم الصباح؛ ليدل عليه دلالة سلبية، وأنه كاشف لأمره فاضح لسره، وجعل للصباح لساناً يفشي أسراره، وجعل الليل كاتماً للسر، فالظلمة تحمل الإشراق، وتمنح الشاعر السعادة بعيداً عن عيون الوشاة، فالسعادة لا تتم إلا بغفلتهم، وفي ذلك يقول:[1] "البحر البسيط"

كأننـــا لـــم نبـــت، والوصـــل ثالثنـــا والســـعد قـــد غـــضَّ مـــن أجفـــان واشـــينا

سِـــرَّان فـــي خـــاطر الظلمـــاء يكتمنـــا حتـــى يكـــاد لســـان الصـــبح يفشـــينا

1- ابن زيدون، الديوان، ص146.

ويستخدم الشاعر الزمنين الليل والصبح في صورة حية يجعلها نابضةً بالحركة، وذلك في قوله: [1] "البحر الطويل"

وليـــلٍ أدمنـــا فيـــه شُـــرب مدامـــةٍ إلـــى أن بـــدا للصـــبّح فـــي الليـــل تأشـــيرُ

وجـاءت نجـومُ الصّـبحُ تضـربُ فـي الـدجي فَوَلَـــت نجـــومُ الليـــل والليـــلُ مقهـــورُ

فحزنـــا مـــن اللّـــذّات أطيـــبَ طِيبِهـــا ولـــم يَعرُنَـــا هَـــمٌّ ولا عـــاق تكـــديرُ

خـــلا أنّـــهُ لـــو طـــال دامـــت مَســـرَّتي ولَكِـــن ليـــالِي الوصـــلِ فـــيهن تقصـــيرُ

فجعـل الشـاعر الليـل دائـم الحركـة؛ فقـد أدام فيـه شـرب الخمـر، فكـان مليئـاً بالمسـرات، واستمرارية شرب الخمر أدت إلى حركة دائمة متمثلة في صبه، وفي مناولة الكؤوس، وفي حركة الشرب ذاتها، فحين قارب الليل على الانتهاء، جاءت نجوم الصبح فإذا بها تضرب في الدجى، وحين ذلك ولت نجوم الليل، فإذا بالليل مقهور يسحب أذياله من الدنيا؛ ليفسح المجال للنهار[2]. وهو يصف تلك الليلة بما فيها من المسرات، وأنه حاز على أطيب الملذات، ولم يكدر صفوهم شيء، ولم ينتبهم الهم، وهو يتمنى لو طالت تلك الليلة حتى تدوم مسرته، ولكنه يصف بأن ليالي الأنس والوصل قصيرة، سرعان ما تزول، فجاء النهار بضيائه وإشراقه؛ ليطرد عتمة الليل.

1- ابن زيدون، الديوان، ص245.

2- انظر فوزي خضر، عناصر الإبداع في شعر ابن زيدون، ص191.

ويتطرق إلى وصف الزمان بألفاظ حسية فيشبه الزمان باللين – في معرض وصف التفاح الذي أهداه إلى أبي الوليد بن جهور – وذلك في وصف ملمس حبة التفاح بأنها لينة على الكف كلين زمان أبي الوليد، وذلك في قوله: [1] "البحر المتارب"

يمثّـــــــل ملمســـــــها للأكـــــــف لـــــــين زمانـــــــك أو يمتثـــــــل

أي أن ملمسها الناعم يشبه زمنك الرقيق، ويحتذي حذوه، ومن جانب آخر يضفي على الدهر صفات سلبية، فيجعل ليالي الأنس والمحبة والسرور عاطلةً من كل إشراق وصفو، إذا غابت محبوبته، وفي ذلك يقول: [2] "البحر السريع"

طابـــــت لنـــــا ليلتُنَـــــا الخالِيـــــه فَلتُنسِـــــــناها هـــــــذه التاليـــــــه

أبـــا المعـــالي نحـــن فـــي راحـــةٍ فانقـــــل إلينـــــا القـــــدم العاليـــــه

ليلتنـــــــا عاطلـــــــه إن تغـــــب عنـــــا، فزرنـــــا كـــــي تُـــــرى حالِيَـــــه

أنـــت الـــذي لـــو تُشـــتَرى ســـاعةٌ منـــهُ بـــدهرٍ لـــم تكُـــن غاليـــه

فالليالي تطيب بلقاء الأحبة وتملأ بالسرور، وغياب الأحبة عنها يعطلها، ويغيّب عنها السرور والفرح، وهو يصور هذه الساعات الجميلة المليئة بالسرور بالسلعة التي تُباع وتُشتَرى، فهو يتمنى لو أن يبدل ساعة أنس بدهر، فهي تساوي الدهر، وإنها ليست غالية، فيجعل لها ثمناً غالياً جداً، حتى لو أنه أبدلها بدهر، يقول: إنها لم تكن غالية، فثمنها أكثر من ذلك.

1- ابن زيدون، الديوان، ص244.

2- نفسه، ص228-229

فالشاعر يؤنسن الدهر، ويضفي عليه صفات البشرية، فيجعل الليل يدري، ويعلم بأمر ما، وكأنه بشر، وذلك في قوله: [1] "الأرجوزة"

كم بات يدري ليله الغِريبيا

لما انثنى في سكره قضيبا

تشدو حَمامُ حَليهِ تطريبا

هَصَرَتهُ حلو الجنى رطيبا

يجعل هذا الليل سكران، فيكثر الشراب فيه، ربما للسكر والتغافل عن الإحساس بالزمن، ثم يؤنسن الليل، فيصوره بالناس الذين لديهم الدراية والمعرفة، ويعرفون ما لا يعرفه الآخرون، والليل يغني ألحانه العذبة فهو يشدو، ويغرد كالحمام، فهو لا يتمنى زواله، "والليل هو الشاعر، فلقد تضخم إحساسه بالليل حتى أصبح كأنه الليل، والليل له سمة البشر في معرفة أحاسيس الشاعر".[2]

ثم يعود لضفي على الدهر صفات الإنسان في نومه، وعلى الأيام صفات الإنسان في كرم أخلاقه، وذلك في قوله: [3] "البحر البسيط"

لـو شـاء حملـي نسـيم الصـبح حـين سـرى وافـــاكم بفتـــىً أضـــناه مـــا لاقـــى

يـــوم كأيـــام لـــذاتٍ لنـــا انصـــرمت بتنـــا لهـــا – حـــين نـــام الـــدهر – سُـــرّاقا

1- ابن زيدون، الديوان، ص 156.

2- يونس شنوان، الليل في شعر ابن زيدون، سلسلة أبحاث جامعة اليرموك، 2002، ص18.

3- ابن زيدون، الديوان، ص 140.

لـو كـان وَفّـي المنـى – فـي جمعنـا بكـم – لكـــان مـــن أكـــرمِ الأيّـــام أخلاقـــا

فهو يضفي على الدهر صفات الإنسان فيقول: لو شاء نسيم الصبح لأوصلني إليكم، فقد تعبت، وأعياني تحمل الأشواق المعذبة في بعدكم عني، فبتنا في يوم غفل فيه الدهر عنا، فقضينا ليلنا نسرق اللذات، وننتهبها[1]، ولو عاد وجمعني فيكم هذا اليوم؛ لكان كريم الأخلاق، فصور الدهر، واليوم بصورة الإنسان الذي نام، وغفل عن مراقبة الشاعر وحبيبته، حتى يتسنى لهما قضاء ليلة ممتعة، واليوم بالإنسان الكريم الذي يتمنى منه أن يجمعه بحبيبه كالأيام الجميلة التي خلت.

رغم أن الليالي مفرحة للشاعر، وقد سعد بلقاء حبيبته، لكنه يعود فيشكوها، فيصور الشاعر الليل مليئاً بالألم والمعاناة، فيقول: [2] "البحر الطويل"

جفـــا هـــو الليـــل ادلهـــم ظلامـــه فـــلا كوكـــب للعـــذر فـــي أفقـــه يســـري

فالجفا يكون بين الناس في البعد عن بعضهم، وعدم الوصل، فيصور الليل وكأنه إنسان بجفوته وقسوته، فهو مقاطع له بعيد عنه غير متقبل له، وهذا الإنسان لا يكتفي بالجفاء، والبعد إنما ينزل على الشاعر المصائب، ويمنع عنه جميع الأسباب التي تؤدي إلى السرور، فحاله كحال الليل في ظلامه الدامس، وقد غابت نجومه وقمره، فهي ليلة ظلماء شديدة السواد لا يرى من ظلامها النور، وهو هنا يصور إعراض الأمير ابن جهور عنه، وموقفه الغامض منه، حتى إنّ اعتذاره لن

1- انظر فوزي خضر، عناصر الإبداع في شعر ابن زيدون، ص178.

2- ابن زيدون، الديوان، ص295.

يجدي شيئا، فيشبهه بالكوكب الذي لم يظهر في الليلة الظلماء، هذا جانب من تصوير الليل بصورة الخليفة، فاستخدم الشاعر زمن الليل؛ ليعبر عن فكرته، فاستخدم الزمن القاسي "الليل بقسوته".

ثم يصور الشاعر الزمن القاسي بالقوس الذي ترمى به السهام تجاه الشاعر، والمصائب والنوائب بصورة السهام، فالليالي تسدد وترمي الشاعر بأقسى النوائب ولا تخطئه، فالليالي رامٍ ماهر، والليالي على عكس النهار، فالنهار فيه أنس وأمل وإن كان كاذباً.[1]

وذلك في قوله: [2] "البحر الطويل"

رمتنـــــي اللّيـــــالي عـــــن قســـــيٍّ النّوائـــــب

فمـــــا أخطـــــأتني مرســـــلات المصـــــائب

أقضـــــي نهـــــاري بالأمـــــاني الكـــــواذب

وآوي إلـــــى ليـــــل بطـــــيء الكواكـــــب وأبطـــــأ ســـــارٍ كوكـــــب بـــــات يكـــــلأ

فهو في صراع طويل مع هذه المصائب، وهذه الأقواس التي تسدد عليه، فالليل كما يصوره بأنه بطيء أي طويل.

وفي الأبيات التي تناولها البحث في الحديث عن الصورة الفنية، نجد أن الصورة تتكئ على عنصر الزمن، الذي استخدمه الشاعر؛ للتعبير عن حالته النفسية، فاستعان بصورة الدهر؛ ليعبر عما يجول في خاطره، فاستخدمه وخلع عليه صفات إنسانية وغير إنسانية، وعبر عن ذلك باستخدام

1- يونس شنوان، الليل في شعر ابن زيدون، ص 23.

2- ابن زيدون، الديوان، ص 132.

أنماط الصورة: التشخيصية، والحركية، والحسية، وهي من بعض الاستعمالات الفنية لصورة الدهر في شعر ابن زيدون، وهناك الكثير من الصور التي تعبر عن هذا، سيأتي ذكرها والحديث عنها في مواضع لاحقة في البحث.

ثالثاً: هيكل القصيدة في شعر ابن زيدون، ولغتها، ومظاهر أسلوبية:

سأتناول في هذا المحور من البحث هيكل القصيدة، ولغتها، ومظاهر أسلوبية، بشكل خاص وليس بشكل عام، بما يخدم غرض البحث.

هيكل القصيدة في شعر ابن زيدون

إنّ البنية في الشعر لا تحدد بالبناء الهندسي لشكل القصيدة، وإنما هي منظومة الكيان العضوي الذي تتفاعل فيه عناصر العمل الشعري، فالبنية تعني توفر الوحدة العضوية.[1]

تنوعت قصائد ابن زيدون بين القصائد الطوال والقصيرة، ومنها المقطعات الشعرية، ومنها المخمسات والمربعات والأرجوزة، ويعد ابن زيدون من الشعراء المجيدين، وكما ذكر ابن رشيق القيرواني بقوله: "الشاعر إذا قطّع ورجّز وقصد فهو الكامل.[2]

1- يوري لوتمان، تحليل النص الشعري بنية القصيدة، ترجمة: محمد فتوح أحمد، دار المعارف مصر، 1995،ص28.

2- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ج1، ط5، دار الجليل، 1981، ص189.

وقد اشتمل ديوان ابن زيدون على مائة وثمانية وثمانين نصاً شعرياً، وقد اختلفت في أنماطها، وكانت متنوعة بين القصائد الطويلة والقصيرة، فأغلب قصائد ابن زيدون تراوحت أبياتها بين 7–30 بيتاً، وقد اعتمد على أنماط متعددة في مقدمات القصائد، فهو أحياناً يقدم للقصيدة بمقدمة، ثم يتناول الغرض الأساسي للقصيدة، فربما يستهل قصائده بالنمط التقليدي بادئاً قصيدته بمقدمة غزلية كبعض القصائد المدحيّة، وهذه المقدمات امتازت ببساطة التعبير والجمال الموسيقي، وأحياناً يبدأ بالغرض الأساسي مباشرة من غير مقدمات، وأحياناً يبدأ بمواضيع أخرى؛ ليمهد للغرض الأساسي[1]، مثل توسله بأبي الحزم بن جهور وهو في السجن؛ ليخرجه من السجن، جاعلاً للقصيدة مقدمة غزلية، ثم يشكو الحالة التي آل إليها بعد سجنه، وثم يصف حاله بأنه صابر يتحدى كل الظروف، ثم بعد ذلك يمدح أبا الحزم بن جهور، ويعاتبه، ثم ينتهي إلى الطلب منه؛ ليخرجه من السجن، نجد أنه في تعدد الأغراض في القصيدة الواحدة ترابطاً وانسجاماً بين هذه الأغراض، وكأن القصيدة وحدة واحدة، ذلك في قوله: [2] "البحر البسيط"

ما جال بعدك لحظي في سنا القمر إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر

ولا استطلت ذماء الليل من أسفٍ إلا على ليلةٍ سَرّت مع القصر

وكثرت المقطعات التي تقل أبياتها عن سبعة أبيات إلى 95 مقطوعة، جميع المقطوعات اشتملت على غرض واحد إلا ثلاث مقطوعات ورد فيها غرضان أو ثلاثة في المقطعة الواحدة. وكذلك أغلب القصائد القصيرة غلب عليها الغرض الواحد.

1- انظر فوزي خضر، عناصر الإبداع في شعر ابن زيدون، ص37.

2- ابن زيدون، الديوان، 250.

وقد تنوعت المقدمات عند ابن زيدون التي يمهد فيها للغرض الأصلي، فأحياناً قد تكون المقدمة فعل الدهر في الإنسان، ودعوة للصبر والتحمل، وخاصة في أغراض الرثاء، وقد بدأ فيها بذكر الدهر، وفعل الدهر، وما أحدثه الدهر، ويطلب من أبي الوليد بن جهور أن يصبر لفقده أمه، وقد بدأها بقوله: [1] "البحر الطويل"

هو الدهر فاصبر للذي أحدث الدهر فمن شيم الأبرار في مثلها الصبر

ستصبر صبر اليأس أو صبر حسبةٍ فلا ترض بالصبر الذي معه الوزر

بدأ الحديث عن الدهر وما أحدثه، وكرر هذا الأمر مرتين في البيت الأول، إشارة منه إلى أن وفاة أم أبي الوليد بن جهور من صنيع الدهر، ويطلب من أبي الوليد بن جهور أن يصبر على ما أحدث الدهر، فإن الصبر من شيم الأبرار، ثم ينتقل إلى وصف أفعال الدهر – الموت، والرزايا، والقبر، ويطلب فيها التحلي بالصبر؛ لأن مثل هذه الأمور لا ينفع معها غير الصبر، ويتحدث عن الموت، وأن الموت فعل من أفعال الدهر، ويجعل منه عبرة، والصبر عليه ثواب، وعدم الصبر فيه نقص في الأجر، ويضرب مثالاً يقارن فيه بين أن يموت الإنسان، أو أن يفقد إيمانه، فيرى أن الموت أهون من ذلك، وفي ذلك يقول: [2] "البحر الطويل"

مصاب الذي يأسى بميت ثوابه هو البَرحُ لا المَيتُ الذي أَحرز القبرُ*

1- ابن زيدون، الديوان، ص539.

2- نفسه، ص540.

* البَرحُ: الشّدة والشّر.

ثم ينتقل لذكر مناقب أم أبي الوليد بن جهور، مهنئاً الأرض بأنها ستحل ببطنها، فهي نقية من الدنس طاهرة، قانتة لله في الصلاة، وأنها قائمة لليل ساجدة لله، واستعان من أجل ذلك بألفاظ دالّه على الزمان كقوله: قانتة الضحى، مسبحة الإناء، والإناء جمع إنو أو إني، وهو أي ساعة من ساعات الليل، ثم ينتقل بعد ذلك لمدح أبي الوليد، وإن المصائب وحوادث الدهر تتبدد أمامه كما يبدد القمر الظلام، فنلاحظ –رغم تعدد الموضوعات– إلا أنها تخدم الغرض الأساسي وهو الرثاء، ونلاحظ هناك روابط، وعلاقاتٍ بين الموضوعات سهلت على الشاعر الانتقال من موضوع إلى آخر من غير ترك أثر يوحي بأن القصيدة غير مترابطة، إنما هناك انسجام بين جميع الموضوعات، ففي المديح مثلاً كان لا يغفل أثر الدهر وقسوته، ولكن يجعل الممدوح أقوى من الدهر ويتغلب عليه؛ ليجعل الممدوح يصبر على هذا المصاب، وكما يجعل الممدوح هو الذي يفرّج عن قومه المصائب، ويذكر بعض الألفاظ التي تدلُّ على الدهر كالعصر والحقبة، ويستخدم الدهر بمعنى الزمان الحقيقي، كما يستخدمه بمعنى القوة الفاعلة المغيرة لكل شيء، وكما استخدمه أنه تحت سيطرة الممدوح، وأنه تغلب عليه عن طريق صبره، ويعود ليمدح الممدوح ويذكر صفات، وأسباباً تخفف عليه مصابه، وتصبره على مواجهة الدهر، فيصفه بأنه بار بأمه محسن لها، ويقدم له تعزية – بأن آمال الفقيدة تحقق فيك، وإن الفقيدة استقبلت الموت بالفرح والسرور،وإنها وإنّ غيبها الموت فإن دعواتها الصالحة لك ظلت باقية، وهي وسيلة لأن يتم الله عليك النعم، وهذا كافٍ لأن يلهمك الصبر على مواجهة البأساء والضراء، ففي كل موضوعات القصيدة نجد الحديث عن الدهر سواء بالمعنى الحقيقي له، أو المعنى المجازي (القوة الفاعلة)حاضراً، وكذلك الصبر الذي هو دعوة من الشاعر على فعل الدهر،

وهذا الأمر يخلق إنسجاماً بين جميع موضوعات القصيدة، فتجدها قطعةً واحدةً منسجمةً؛ لتخدم الغرض الأساسي وهو الرثاء، والصبر على الفقيدة.

ويذكر الدنيا وهي لفظ دال على فعل الدهر أو مرادفاً له، ويطلب من الممدوح أن لا تتسبب له الدنيا بالهزيمة والكسر، ويسرى عنه أنّهُ يصلح ما تفسده الدنيا، وهنا يجعل الممدوح نداً للدهر فهو قادر على إصلاح ما يفسد الدهر من أمور، ومن ثم يجعل الممدوح في موازاة الدهر، وأنه يد الدهر الباطشة إذا الدهر بطش، وإن يضحك الدهر فهو ثغرها البسام، وذلك في قوله: [1] "البحر الطويل"

نـــرى الـــدهر إن يـــبطش فمـــنكم يمينـــه وإن تضـــحك الـــدنيا فـــأنتم لهـــا ثغـــر

ومن ثم يضفي على الممدوح صفة الكرم، ويصف كرمه بالسحائب التي تبرق، فتدفق الأمطار، فيكون لها جدوى نافعة، وهنا جعل الممدوح موازياً للدهر، فيطلب منه أن يوجه الدهر إلى الشيء الصالح الذي فيه خير للناس، وثم يختم حديثه بمدحه، ويطلب منه وكأنه يطلب من الدهر بأنّ يتم سعادته عليهم، وأن سعادتهم تمت بوجود الممدوح، فللّه الحمد والشكر.

وكذلك الأمر بدأ بمقدمة تناول فيها أفعال الدهر في الموشحات، في قصيدة الذكريات (سرتكم الدنيا)، وغيرها من القصائد والمقطعات التي ابتدأ فيها بمقدمة بين فيها أفعال الدهر، حيث يقول في مطلع القصيدة: [2] "البحر الطويل"

تَنَشّـــقَ مـــن عَـــرفِ الصِّـــبا مـــا تَنَشّـــقا

1- ابن زيدون، الديوان، ص 547.

2- نفسه، ص132.

وعـــــاوَدَهُ ذكـــــر الصِّـــــبا فتشـــــوّقا

ومـــــا زال لمـــــع البـــــرق لمّـــــا تألّقـــــا

يهيـــــب بـــــدمع العـــــين حتـــــى تـــــدفقا وهـــــل يملـــــك الـــــدمع المشـــــوق المصـــــبّأُ

خليلـــــيّ إن أجـــــزع فقـــــد وضـــــح العـــــذر

وإن اســـتطع صـــبراً فمـــن شـــيمتي الصـــبر

وإن يـــك رزءاً مـــا أصـــاب بـــه الـــدهر

ففـــي يومنـــا خمـــر وفـــي غـــده أمـــر ولا عجـــــــب ان الكـــــــريم مـــــــزرأ

وذكرنا سابقاً أن ابن زيدون له 95 مقطوعة في بعضها يبتدى بذكر الدهر وأفعاله؛ ليخدم غرضه المقصود.

فنجد بالنسبة لوحدة القصيدة أن القصيدة طالت أم قصرت لم تخرج عن الوحدة العضوية، وإن تعددت الأغراض في القصائد الطوال، ولكن هناك انسجاماً وترابطاً وحسن تنقل بين الموضوعات تجعلها توحي بأنها وحدة واحدة.

وهذا سيأتي توضيحه في التطبيق في الفصل الأخير من البحث، وبيان أثر الدهر في نفس الشاعر، وكيف وظفه في خدمة غرضه.

لغة القصيدة في شعر ابن زيدون:

تعد اللغة من أهم مقومات النص الشعري، ذلك أنها تحوي مقدرة الشاعر على التعبير، وتصوير الأشياء من حوله، وتعكس انفعاله- بالحدث من خلال صيغها وألفاظها المحدّدة سياقاً بما يكفل حضور عملية التفاعل بين المتلقي وشعر الشاعر.[1]

واللغة هي مادة الأديب، يمكنه بواسطتها التعبير عن تجربته الفنية، وتوصيلها للآخرين، وإن الوظيفة الأساسية للغة البشرية هي السماح لكل إنسان أن يوصل لنظائره تجربته الشخصية.[2] وهناك خصوصية للغة الشعر، يمتاز بها شاعر عن غيره، وفيها يكون الحدس اللغوي للاستخدام هو المعيار الوحيد المقبول.[3]

أحسن ابن زيدون استخدام اللغة، فلغته سهلة قريبة من اللغة الدارجة، واستطاع التعبير عن أفكاره وإيصالها بطريقة فذة، ونجد في بعض شعره لغةً سهلةً واضحةً تقترب من لغة النثر، يقول:[4]

"مجزوء الكامل"

يـــــا ليـــــلُ طـــــلْ، لا أشـــــتَهي إلاّ بِوَصْـــــــــــــــل قِصَـــــــــــــــرَكْ

لـــــوْ بـــــاتَ عنـــــدي قمـــــرِي، مـــــا بـــــتُّ أرعَـــــى قمـــــرَكْ

1- جمال يونس، لغة الشعر عند سميح قاسم، ط1، مؤسسة النوري، دمشق، 1991، ص241-242.

2- جون كوين، اللغة العليا، ترجمة: د. أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة، 1995، ص28.

3- نفسه، ص19.

4- ابن زيدون، الديوان، ص182.

يـــــا ليـــــلُ خبّـــــرْ: إنّنـــــي ألْتـــــــــذُّ عنْـــــــــهُ خبـــــــــرَكْ

بِاللَّـــــهِ قُـــــلْ لـــــي: هَـــــلْ وَفَـــــى ؟ فَقـــــــــالَ: لا، بَـــــــــل غَـــــــــدَرَكْ!

قال عنه الدكتور أحمد ضيف: "كلامه عذب المذاق رقيق الحاشية، جذّاب قلاّب، تظهر عليه سيما الابتكار والصدق في التعبير، فإنه ليس من الخيالات الشعرية الصرفة، بل به كثير من الحقائق التي كان عليه شعوره"،[1] وقال عنه الكيلاني: أنك لتقرأ أكثر غزله فيتخيل إليك لسهولته أنك تحلق في أجواء العباس بن الأحنف، والشريف الرضي والمجنون.[2]

وفي بعض القصائد وخاصة الطويلة نجد استخدامه لغة جميلة محكمة لا غرابة فيها، تحوي الكثير من الصور الفنية، والتي بواسطتها يعبر عن أفكاره، ويوصلها للقارئ بلغة خاصة جزلة لا يوجد بها تعقيد، أو ألفاظ غريبة غير مألوفة.

ولدراسة أي لغة عند أي شاعر لا بد من معرفة مستويات اللغة المختلفة، كالمستوى النحوي، والصرفي، والدلالي، والصوتي، وما يهمنا هنا المستوى الدلالي، لأنّ المستويات السابقة من أصوات، وأبنية صرفية، ونحوية لابد أن تكون حاملة لدلالات، وهنا يعنينا استخدام الشاعر للدهر وألفاظه، وما ينطوي عليه من دلالات، وكيف أجاد الشاعر في استخدامه والتعبير عن أفكاره، فكان للدهر وألفاظه استخدام كبير في ديوان الشاعر في جميع الاستخدامات سواء الذي يعبر عن سطوة الدهر، أو الاستخدام الذي يعبر عن الزمن الحقيقي، وفي كلتا الحالتين استخدمه الشاعر، ليخدم غرضه ويوصل فكرته، وفيما يتعلق بالدهر في انعكاس مظاهره على الإنسان كالموت، والشيب، والنوائب،

1- احمد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس، ص206.

2- جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، ص205.

كانت اللغة سهلةً بعيدةً عن التوعر، وهذا الأمر سيأتي بيانه في الجانب التطبيقي في الفصل الأخير.

ومن أمثلة استخدامه لغةً مفهومةً سهلةً مع استخدام المثل السائر، وذلك قوله: [1] "البحر المتقارب"

عليك السلام سلام الوداع وداع هوى مات قبل الأجل

وما باختيار تسلّيت عنك لكنّني مكره لا بطل

وكذلك في كثرة استخدامه للدهر وألفاظه في قوله: [2] "البحر الوافر"

رأيت الناس ما أصبحت فيهم بلاء الله عندهم جميل

وماء العيش بينهم فضيض وظلّ الأمن فوقهم ظليل

ولو فقدوك لا فقدوا حواهم مراد من زمانهم وبيل

وشاق نفوسهم رسم محيل -من الدنيا- وعهد مستحيل

فخاصر دولةً تفنى الليالي ولم يلمم بساحتها مديل

ولا زالت نبال الدهر تصمي عداتك أيها الملك النبيل

1- ابن زيدون، الديوان، ص 189.

2- نفسه، ص334.

نلاحظ في الأبيات السابقة استخدام ابن زيدون لألفاظ الدهر، وقد نوّع في ذكر الألفاظ التي تدلُّ على الدهر، ومن الألفاظ ما دلّ على القدرة للدهر وسطوته، ومنها ما دلَّ على البعد الزمني للدهر، واستخدم هذه الألفاظ جميعها؛ لتخدم غرضه في مدح أبي الحزم، فالفكرة هي أن الناس مهما تعرضوا لآلام ومصائب يرونها عذبةً ما دام أبو الحزم مقيماً بينهم، فوجوده يخفف عنهم المصائب، وأن الدنيا تنعم عيلهم فتعذب لهم الموارد، ويحلَّ الأمن عليهم، وإذا فقدوا أبا الحزم عاشوا في زمن مليء بالتعب والهموم، وازدادوا تعلقاً بعهده، وتمنوا رجوعه، فدولته قوية تطوي الليالي، ولا يطويها الزمان، فيجعل وجود الممدوح كأنه ندٌّ للزمان وقاهره، مبطل لأفعاله مسيطر عليه، ويتمنى أن تصيب نبال الدهر الأعداء فتقتلهم، ويختم الأبيات بأنه لن ييئس من نعيم الحياة، وأبو الحزم هو السبيل في هذا النعيم.

نلاحظ مهارة ابن زيدون في استخدام ألفاظ الدهر، ففي استخدامه لفظة الليالي يكررها مرتين، ويستخدمها لغرضين متناقضين ففي الأولى تفنى الليالي، وفي الثانية مساعفة الليالي دلالة إيجابية، وهذا ما يناسب الغرض في المدح "فقد أبي الحزم وجوده"، وكذلك في استخدام بقية ألفاظ الدهر بين الإيجابية والسلبية. وهذا يدلُّ على براعته في توظيف كل لفظ بمكانه المناسب، فاستخدم الدهر والليالي مرتين، والعيش بمعنى الحياة، واستخدم أزمانهم المليئة بالمصائب، والدنيا وعهد، كلّ هذه الألفاظ تدلُّ على قدرة ابن زيدون وبراعته في الاستخدام، وتوظيفها بالشكل الصحيح الذي يخدم الغرض ويوصل الفكرة، وهي لغة ليس فيها غرابة، وإنما تعتمد على المقارنة والبرهنة؛ لتوصيل فكرة نعمة وجود أبي الحزم بين الناس، واستخدامه نبال الدهر في تمنيه أن تصيب أعداءه، تعكس جمال التصوير الفني في جعل الدهر يحمل النبال، ويدافع ويرمي بها كل من تسول له نفسه الاعتداء على

أبي الحزم، فالزمان بخيل بأن يأتي بنظير أو مشابه لأبي الحزم في أفعاله الباهرة، وأفضاله على الناس، وفي ذلك يقول : [1] "البحر الوافر"

أبـــا الحـــزم الزمـــان بـــأن تثنـــى إذا عُـــــدّت فواضـــــلكم بخيـــــل

مظاهر أسلوبية في شعر ابن زيدون:

1. التكرار في البلاغة: هو تكرار اللفظة أكثر من مرة في سياق واحد، إما تكرار اللفظ أو تكرار المعنى[2]، ويظهر في ديوان ابن زيدون تكرار اللفظ في السياق نفسه، وفي البيت نفسه، أو في القصيدة نفسها، وربما تكرار الفكرة واللفظ في قصائد أخرى. فكرر لفظة الدهر ومتعلقاته في ديوانه كثيراً، وأشرنا إلى ذلك في بداية الفصل في الدراسة الإحصائية، ومن ذلك قوله: [3] "البحر الطويل"

هـو الـدهر فاصـبر للـذي أحـدث الـدهر فمـــن شـــيم الأبـــرار فـــي مثلهـــا الصـــبر

فكرر كلمة الدهر في البيت مرتين، وكرر هذا البيت بألفاظه في قصيدة أخرى، وأحياناً يكرر الدهر وضمير يدلُّ عليه في نفس البيت، مثال قوله: [4] "البحر الطويل"

1- ابن زيدون، الديوان، ص333.

2- ابن الأثير الحلبي، جوهر الكنز، تحقيق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، 1980، ص257.

3- ابن زيدون، الديوان، ص539.

4- نفسه، ص356.

هــو الــدهر مهمــا أحســن الفعــل مــرّةً فعـــن خطـــأ، لكـــن إســـاءته عمـــد

وأحياناً يكرر الدهر ولفظاً من ألفاظه كالزمان، أو ما يدلُّ عليه في البيت نفسه، في قوله: [1] "البحر الطويل"

إســـاءة دهـــر أحســـن الفعـــل بعـــدها وذنـــب زمـــان جـــاء يتبعـــه الغـــدر

فكرر إساءة دهر وذنب زمان، فالإساءة والذنب نفس المعنى، وأحياناً يكرر ثلاث ألفاظ بنفس البيت تشير إلى الدهر سواء بالمعنى القدرة والقوة الفاعلة، أو المعنى الحقيقي الزمني، مثال قوله: [2] "البحر البسيط"

يـــومٌ كأيّـــام لـــذات لنـــا انصـــرمت بتنـــا لهـــا حـــين نـــام الـــدهر ســـرّاقا

وقوله: [3] "البحر المتقارب"

ولا يـــــــزلِ الـــــــدهرُ أيّامُـــــــهُ لكـــــم حشـــــمٌ والليـــــالي خـــــدمُ

وأحياناً يلجأ إلى تكرار لفظ؛ لوصف فعل الدهر والتأكيد بأنّ الدهر فاعل ومسبب للإساءة، مثال قوله: [4] "البحر الطويل"

لـــئن ســـاءك الـــدهر المســـيء فلـــم يكـــن بـــأول عهـــدٍ واجـــب الحفـــظ ضـــيعا

1- ابن زيدون، الديوان، ص523.

2- نفسه، ص 139.

3- نفسه، ص417.

4- نفسه، ص554.

وأحياناً يكرر المعنى نفسه في قصائد مختلفة؛ لتأكيد حقيقة ما، ومن ذلك قوله: [1] "البحر المجتث"

يـــــا ليـــــت مـــــا لـــــك عنـــــدي! –مـــــن الهـــــوى– لـــــي عنـــــدك

فطـــــــــال ليلـــــــــك بعـــــــــدي كطـــــــــول ليلـــــــــي بعـــــــــدك

وكرر المعنى في قصيدة أخرى : [2] "البحر الرمل"

إن يطـــــل بعـــــدك ليلـــــي فلكـــــم بـــــت أشـــــكو قصـــــر الليـــــل معـــــك

وفي قصيدة ثالثة في قوله: [3] "البحر المتقارب"

يقصـــــر بقربـــــك ليلـــــي الطـــــويلا ويشـــــفي وصـــــالك قلبـــــي العلـــــيلا

وفي قصيدة رابعة في قوله: [4] "مجزوء الكامل"

يـــــا ليـــــل طـــــل لا أشـــــتهي إلا بوصـــــــــــــل قصـــــــــــــرك

وهنا يؤكد فكرة أنّ الليل قصير بوجود المحبوبة، ولكن إن غابت طال هذا الليل، فوصال المحبوبة يشفي قلبه السقيم، وابن زيدون يكرر المعنى وخاصة في قصائد الرثاء؛ ليؤكد فاعلية الدهر في إحداث المصائب، وتأكيد حتمية الموت، والصبر على المصاب، واستخدم ابن زيدون التكرار

1- ابن زيدون، الديوان، ص 165.

2- نفسه، ص 167.

3- نفسه، ص512.

4- نفسه، ص182.

كثيراً في شعره سواء باللفظ أو المعنى، ولكنني توقفت على ظاهرة تكرار لفظة الدهر لأنها متعلقة بموضوع الدراسة.

2. **البديع:** لعل استخدام البديع من الأساليب الشعرية التي تهدف إلى الكمال، وتستخدم في البديع وجوه تحسين الكلام بعد مراعاة تطبيقها على مقتضى الحال، وأن تكون الدلالة واضحة.[1]

أكثر ابن زيدون من استخدام المحسنات البديعية في شعره، وفيما يخص موضوع البحث أكثر من استخدام الطباق والمقابلة، **والطباق:** هو الجمع بين اللفظ ونقيضه، والمقابلة تختص بالجمع بين المعنى ونقيضه، أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثم ما يقابلها على الترتيب، ويكون الطباق بلفظين سواء أكانا اسمين أو فعلين.[2]

وهذا يلفت انتباه القارئ إلى التعبير عمّا فيه من إثارة فكرية، ويدلُّ على المعنى المقصود. من ذلك قوله: [3] "مجزوء الرمل"

مـــــا علـــــى ظنـــــي باســـــو يجـــــــرح الـــــــدهر وياســـــــو

فقد طابق بين يجرح وياسو، فالشاعر يبدأ القصيدة وهو في السجن بطمأنة نفسه، ودعوتها إلى الصبر، وذلك من خلال ذكر فعل الدهر، كما أن الدهر جلب إليه مصيبة السجن، فهو قادر

1- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، 1996، ص383.

2- نفسه، ص388.

3- ابن زيدون، الديوان، ص273.

على إخراجه من السجن، فقد طابق بين لفظة الجرح وياسو بمعنى يداوي، ليوصل نفسه لمرحلة الطمأنينة، ويحقق ظنه أنه لأبأس عليه.

وقوله في قصيدة أخرى: [1] "البحر البسيط"

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ونـاب عن طيب لقيانا تجافينا

إن الزمان الذي ما زال يضحكنا أنساً بقربهم قد عاد يبكينا

فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا وانبتَّ ما كان موصولاً بأيدينا

وقد نكون وما يخشى تفرقنا فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

حالت لفقدكم أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً لياليا

نلاحظ أن ابن زيدون طابق بين:

التنائي وتدانينا، طيب لقيانا وتجافينا، يضحكنا ويبكينا، فانحلت ومعقوداً، وانبتّ وموصولاً، ما يخشى وما يرجى، تفرقنا تلاقينا، ابتلت وجفت، أيامنا ولياليا، فغدت وكانت، سوداً وبيضاً.

فالطباق هنا وضح فكرة ابن زيدون في المفارقة بين الماضي والحاضر، الماضي أيام الوصال ولقاء الحبيبة، والحاضر يتمثل في البعد والهجر.

1- ابن زيدون، الديوان، ص141-142.

وفي مطابقته بين يضحكنا ويبكينا إشارة إلى أنّ الزمن فاعل، وقادر على التغيير من حال السرور إلى حالة البكاء، فالسرور بلقاء الحبيبة، والبكاء على فراقها وهجرها له، ولكن الشاعر يستخدم ما زال أي أنه مستمر في إضحاكه على أمل عودة الحبيبة، ويستخدم الزمن الحاضر في قوله (وقد نكون وما يخشى تفرقنا) وهذا يدل على أن الشاعر يتمنى عودة هذه الأيام، أو أن لديه بصيص أمل لعودة هذه الأيام.

فالليالي بعد أن كانت بيضاً بلقاء الحبيبة، أصبحت حتى الأيام المشرقة سوداً بهجرها له، ويجعل من الأيام قوةً فاعلةً هي التي سببت الفرقة ويصفها بأنها سوداء، لأنها جارت عليه وقلبت الفرح حزناً.

ويكرر هذه الأمر في قصيدة أخرى، وذلك في قوله: [1] "البحر المتقارب"

يقصـــــر بقربـــــك ليلـــــي الطـــــويلا ويشـــــفي وصـــــالك قلبـــــي العلـــــيلا

فقد طابق بين (يقصر، الطويلا)، (ويشفي، العليلا)؛ ليؤكد فكرة أن الليالي السعيدة تنقضي مسرعةً، وأن ليالي الهجر تطول، وهنا يكون الزمن بتغير في الطول والقصر بوصال الحبيبة، أو هجرانها، فالوصال والهجر مؤثران بالزمن متحكمان فيه،ويؤكد هذه الفكرة في قصائد أخرى أشير لها سابقاً في موضوع التكرار، كما أن قلبه المليء بالهم والحزن يشفى، ويتعافى بالوصال، وكذلك قوله في قصيدة أخرى: [2] "مجزوء الرمل"

1- ابن زيدون، الديوان، ص512

2- نفسه، ص559.

سـرك الـدهر وسـاء فـاقنِ شـكراً وعـزاء

هنا يعزي بوفاة ابنة المعتضد مبتدئاً القصيدة بالفعل (سرَّكَ الدهر وساء)، ليجعل من الدهر قوةً فاعلةً جالبةً للسرور وجالبةً للإساءة، وكأنه يريد أن يوصل فكرة أن الدهر متقلب كما أن فيه سعادةً وسروراً فإنّ فيه إساءة وحزناً، فطابق بين (سرك وساء)؛ ليوضح هذه الفكرة، ثم يكمل بأن ما عليك في السرور إلا أن تشكر على إحسانه، وفي المصائب إلا أن تعزى على إساءته، فالشكر لجلب النعيم، والعزاء للمصائب، فقابل بين الشكر من غير إسناده إلى النعيم، وبين العزاء ولم يسنده إلى المصائب؛ لتوضح فكرة الشاعر في المطابقة من غير ذكر النعيم والمصائب، ومثال على استخدام الطباق؛ لتوضيح الفكرة، قوله: [1] "مجزوء الوافر"

أَصِخْ لمقالتي وأسمع وخذ -فيما ترى- أو دَعْ

وأَقصر -بعدها- أو زد وطرِ -في إثرها- أو قع

ألم تعلم بأَنَّ الدهر يعطي بعدما يمنع؟

وأن السَّعي قد يكدى وأنّ الظنّ قد يخدع؟

وكم ضَرَّ امرءاً أمرٌ توهم أنه ينفع

فإن يجُدب من الدنيا جَنَاب طالما أمرع

فما إن غَاض لي صبرٌ وما إن فاض لي مدمع

1- ابن زيدون، الديوان، ص578-579.

وكـــــــــائن رامـــــــــتِ الأيـــــــــا م ترويعـــــــــي، فلـــــــــم أرتـــــــــع

إذا صـــــــــــابتني الجلّـــــــــــى تجلّـــــــــت عـــــــــن فتـــــــــىً أروع

علـــــى مـــــا فـــــات لا يأســـــى وممـــــــــا نـــــــــاب لا يجـــــــــزع

هذه الأبيات من قصيدة بعثها الشاعر إلى أبي عبد الله بن القلاس البطليوسي مداعباً، ومعاتباً، ومحذراً، فقد نازعه في حب ولادة، يخاطب أبا عبد الله ويطلب منه أن يصغي لكلامه، ويخيره بين أن يأخذ به أو يتركه، بلهجة النصيحة التي يظهر فيها التهديد من خلال ذكره للألفاظ المتناقضة، وأن الدهر دوار فقد يتقلب بأي وقت، فهو الذي يعطي ويمنع، وابن زيدون أقوى من الأيام التي أرادت ترويعه، فلم يفزع منها، وعليه أن لا يتوهم بأن أمراً ما فيه نفع لأنه قد يكون فيه ضرر، وهو يقول: إن صبري لا ينفد ودمعي لا يفيض، فهو أقوى من هذه التقلبات، وإن جارت عليه الأيام فإنها لا تروعه، وإن انهمرت عليه المصائب، فإنه لا يكون خواراً، بل يكون فتىً مهلهل الوجه رائع المنظر غير منكسر.

فقد طابق بين الألفاظ التالية (خذ، ودع) (أقصر، وزد) (طر، قع) (يعطي، يمنع) (أمرع، ويجدب) (غاض، فاض) (ترويعي، وفلم ارتع) (يجزع، وصبرٌ)؛ ليظهر من خلال الطباق غرضه في توضيح المعنى في خطابه وزجره لأبي عبد الله بن القلّاس. ومثال استخدامه الطباق قوله : [1] "مجزوء الكامل"

يـــــا مـــــن عجبنـــــا أن يجـــــود بمثلـــــــــه الـــــــــزمن البخيـــــــــل

1- ابن زيدون، الديوان، ص578-579.

فقد طابق بين (يجود، البخيل) فهو يتعجب كيف جاد هذا الزمن على الرغم من بخله، وغيرها الكثير من الأبيات التي أورد فيها الطباق، سيأتي الحديث عنها فيما بعد، وهناك الطباق الضمني في المعنى، كقوله: [1] "مجزوء الرمل"

لا يكـــــــــــن عهـــــــــــدك ورداً إن عهـــــــــــدي لـــــــــــك آس

الورد يدل على سرعة الذبول، والآس يدلُّ على طول البقاء، فيطلب من أبي حفص أن يكن عهده طويلاً كالآس.

الجناس: أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام، ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها[2]، ويرى ابن رشيق أن التجنيس "ما اتفقت فيه الحروف دون الوزن رجع إلى الاشتقاق، أو لم يرجع[3]. وابن الأثير يرى أن يكون اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً[4].

1- ابن زيدون، الديوان، ص277.

2- ابن المعتز، كتاب البديع، علق عليه: اغناطيوس كراتشقوفسكي، مكتبة المثنى، بغداد، ط2، 1979، ص25.

3- أبو علي الحسن ابن رشيق القيراوني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط4، دار الجليل، بيروت، 1972، ص223.

4- ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، حققه: أحمد الحوفي وبدوي طبانه، دار النهضة، مصر، 1950، ص262.

وأما الجناس في شعر ابن زيدون فقد تردد بشكل واسع، وكان له أثرٌ في تتمة المعنى، وكذلك أثرٌ في الموسيقى والبناء اللغوي، وجاء على أنواع منها: الجناس المطلق (الاشتقاقي) وفي هذا النوع من الجناس في الكلمة تجانس أخرى في تأليف حروفها، ومعناها ويشتق منها[1].

وهذا النوع حاضر بشكل كبير في شعر ابن زيدون وهو يمثل سمة أسلوبية بارزة في لغته وموسيقاه، وكان له أثر في الدلالة، وتأدية دور موسيقي جميل من جهة أخرى.

يقول ابن زيدون[2]: (البحر الكامل)

لا تتـــــرُكَن للنـــــاسِ موضـــــعَ شـــــبهةٍ واحـــــزم فمثلُـــــكَ فـــــي العظـــــائم أحـــــزم

فقد جانس بين "احزم" و"أحزم"، فالأولى فعلٌ والثانية اسمٌ، فالجناس هنا ساعد في إبراز المعنى وتوضيحه، فالشاعر يخاطب المعتمد بن عباد، ويطلب منه أن لا يبقي للنفوس مجالاً للشك في عزمه ومضائه، وأن يأخذ الأمور بحزم، فهو بالحزم جدير. فهو يطلب منه أن يكون حازماً مع الذين يريدون أن يوقعوا بينه وبين المعتضد بعد أن كتبوا بيتين من الهجاء للمعتضد، ونسبوهما لابن زيدون حتى يوقعوا به، فتكرار اللفظة مرتين له دورٌ موسيقي، وكذلك لتثبيت الفكرة، والمساعدة في إبراز المعنى ووضوحه، فالشاعر بدأ البيت بالتحذير من الشبهة، وهذا الأمر يتطلب أن يتعامل معه بالحزم، فجاء بالفعل "احزمْ"، وكذلك بتكرار صفة المعتضد "أحزم"، والشبهات بحاجة إلى أمر حازم حتى تزول، ويكون الأمر واضحاً.

1- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، جدة – دار المدني، القاهرة، ط1، 1991، ص8.

2- ابن زيدون، الديوان، ص309.

استخدم كذلك الجناس التام، ويقع بين لفظين على أن يتفقا في أنواع الحروف، وأعدادها وهيئاتها وترتيبها[1]. وذلك في قوله[2]: (البحر الطويل)

بنيت فلا تهدم ورشت فلا تبري وأمرضت حسادي وما شاك أن تبري

فقد جانس بين تبري بمعنى عدم تقديم الطعام للصديق، و"أن تبري"، وتبري بمعنى لا شفاء للحساد من مرض الحقد.

واستخدم الجناس الناقص، وهو أن تكون إحدى الكلمتين مشتملةً على لفظ، وغير متفقة في أعداد الحروف، وترتيبها مع اللفظة الأخرى.[3].

وأكثر ابن زيدون من الجناس الناقص في قصائده كقوله[4]: (البحر الطويل)

يرفُّ على التّأميل لألاءُ بشره كما رفّ لالاء الحسام على الصقل

وتغنى عن المدح –اكتفاءً بسروها– غنى المقلة الكحلاء عن زينة الكحل

1- القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: علي بو ملحم، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط2، 1991، ص318.

2- ابن زيدون، الديوان، ص294.

3- ابن الناظم، المصباح في المعاني والبيان والبديع، تحقيق: حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب الجماميز، د.ط، د.ت، ص187.

4- ابن زيدون، الديوان، ص266.

فقد جانس بين "يرفٌ ورفّ"، وكذلك بين "الكحلاء والكحل"، ومن الأمثلة على الجناس الناقص كثيرة، ومنها ما يخدم غرض البحث في بيان دلالة الدهر، من ذلك قوله[1]: (البحل الكامل)

الـــــدهر إن أَمْلـــــىَ فصـــــيحٌ أعجـــــم يعطـــــي اعتبـــــاري مـــــا جهلـــــت فـــــأعلم

فقد جانس بين" أعجم" و" أعلم "جناساً ناقصاً، وطابق بين "جهلت" و"أعلم"، فهو يقول الدهر أبلغ الحكماء وإن كان صامتاً، فأحداث الدهر تنير أمامي السبل، وتعلمني ما لم أكن أعلم، فقد ساعد الجناس والطباق في إبراز المعنى المقصود، في تواضيح حالة الدهر، وإن كان لا ينطق، أو لا يفهم الكلام، فإن الشاعر يتعلم منه ما كان يجهل.

ومن أمثلة الجناس الناقص قول ابن زيدون[2]: (البحر الوافر)

إليـــك مـــن الأنـــام غـــداً ارتيـــاحي وأنـــتِ علـــى الزمـــان مـــدى اقتراحـــي

فقد جانس بين "ارتياحي" و"اقتراحي" جناساً ناقصاً.

كذلك قد جانس بين" أنفس" و"نفس " في قوله[3]: (البحر الطويل)

أأنفـسَ نفـسٍ فـي الـورى أقصـد الـردى؟ وأخطـر علـق- للهـدى -أهلـك الـدهر؟

1- ابن زيدون، الديوان، ص312.

2- نفسه، ص148.

3- نفسه، ص542.

كذلك قد جانس بين "ملك"و"للملك"و" ملاك"، في قوله[1]: (البحر الكامل)

ملـــك يســـوس الـــدهر منـــه مهـــذب تـــــدبّره للملـــــك خيـــــر مـــــلاك

ومثال ذلك جانس بين "سناءً" و"سناً" في قوله[2]: (البحر الرمل)

يـــا أخـــا البـــدر ســـناءً وســـنا حفـــــظ الله زمانـــــاً اطلعـــــك

بالإضافة إلى تتمة الدلالة يسهم الجناس في بناء الايقاع الداخلي للنص الشعري، ويثري القارئ تذوق الجمال اللغوي مبنًى ومعنًى.

الموسيقى والإيقاع:

لعل الموسيقى والأوزان من أهم ما يرتكز عليه الشعر، ويميزه عن النثر، فالشعر إنشاء احتوى على كثير من خصائص الموسيقى، والإيقاع، والانسيابية، وتداخل الأجزاء، والموسيقى عنصر جوهري في تشكيل النص الشعري[3]. والشعر يلفت انتباه المستمع في انتظام إيقاعه، ويتألف البناء الموسيقي من إطار خارجي يتمثل في الوزن والقافية، وموسيقى داخلية تتمثل في الإيقاع الداخلي، وتكرار وتوازٍ بين المقطع الشعري، وتآلف وتكرار الحروف والجناس[4].

1- ابن زيدون، الديوان، ص346.

2- نفسه، ص167.

3- مدحت الجيار، موسيقى الشعر العربي قضايا ومشكلات، دار النديم، ط2، 1994، ص79.

4- فوزي خضر، عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، رسالة دكتوراه، جامعة الإسكندرية، 2004، ص211.

ونظراً لأهمية الموسيقى ودورها في بناء القصائد والأبيات، فسأتحدث عنها من جانب البحور والقوافي بشكل عام، والإيقاع الداخلي بشكل خاص فيما يخص موضوع البحث.

البحور:

نظمّ ابن زيدون قصائده على أحد عشر بحراً، وهي كما يبينها الجدول التالي:

ت	اسم البحر	عدد القصائد	ملاحظات
.1	الطويل	35	
.2	الكامل	31	منها 14 على المجزوء
.3	البسيط	27	منها قصيدة على مخلع البيسط
.4	الرمل	20	منها 11 على المجزوء
.5	المنسرح	3	
.6	المتقارب	15	
.7	السريع	12	
.8	المجتث	8	
.9	الخفيف	19	منها خمسة على المجزوء
.10	الوافر	17	منها اثنتان على المجزوء
.11	الرجز	1	

فاستخدام الشاعر أحد عشر بحراً، يعكس ميل الشاعر لاستخدام إيقاعات معينة تناسب أغراض شعره، وحالته النفسية، ولم يكتب على خمسة بحور وهي: المديد، والمضارع، والمقتضب، والهزج، والمتدارك.

نظم ابن زيدون على البحور التامة أكثر من المجزوءة، عدا بحر الرمل فقد نظم على مجزوء الرمل أكثر من بحر الرمل، فكان أكثر بحر نظم عليه ابن زيدون هو البحر الطويل، وهو الشائع في الاستعمال في الشعر العربي، وذلك لإمكاناته المتسعة التي تتيح للشاعر توظيفه في شتى الموضوعات التي تحتاج إلى طول النفس، فهو سخي النغم، يقع في ثمانية وأربعين صوتاً، وهذا الكم من الأصوات يتراوح بين متحرك وساكن؛ ليعطي الشاعر حرية التصرف عما يجول في رؤياه من قوالب إيقاعية، تمنحه إحساساً موسيقياً، لا يكتمل في ذهنه إلا عندما تتألف عناصر المحتوى: الشكل بألفاظه وتراكيبه، المضمون بمعانيه وأفكاره[1].

ويعد البحر الطويل، والبسيط، وجميع بحور دائرة المختلف من أطول البحور، وأحفلها بالجلال والرصانة والعمق، إلا أن الطويل أرحب صدراً من البسيط، وأطلق عناناً، والطف نغماً، فهو البحر المعتدل حقاً، ونغمة من اللطف بحيث يخلص إليك وأنت لا تكاد تشعر به[2]. وهو من أفضل البحور وأجلها، فيه حلاوة وترسّل، يفيده طوله زيادة أبهة وجلال[3]. ما يعطيه إمكانية كبيرة للسرد، والبسط القصصي، والعرض الدرامي[4]، فيه بهاء وقوة، وفي البسيط بساطة استرسال

1- إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ط4، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1972، ص59.

2- عبد الله الطيب المجذوب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ج2، دار الفكر، بيروت، 1970 ص362.

3- عبد الله الطيب المجذوب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ص 64.

4- نفسه، ص313.

وحلاوة[1]. والغريب أن الشاعر أقل في نظمه على بحر الرجز، وحتى في هذا لم يكتب إلا قصيدةً واحدةً، واحتوت على ألفاظ الدهر.

وأكثر ما نظم ابن زيدون على البحر الطويل يليه الكامل يليه البسيط، وأقل من النظم على البحر الرجز، فلم ينظم عليه غير قصيدة واحدة، أما عن مجزوءات البحر فقد نظم على مجزوء الكامل، والرمل والخفيف، والوافر ومخلع البسيط، وهذا يدل على أن القصائد في ديوانه وردت على بحور مختلفة، مما يعنى أنه اهتم بالجانب الموسيقي، ولا سيما أن موسيقاه تنفجر في جانب السعادة، وجانب المعاناه والألم.

وأما عن استخدام ابن زيدون لهذه البحور – الطويل، الكامل، البسيط، المتقارب والرمل– الخفيف – الوافر – السريع – المجتث – الرجز – والمنسرح، في ديوانه، فإن هذا يتوافق بشكل نسبي مع دراسة الدكتور إبراهيم أنيس حول ترتيب البحور حسب نسبة شيوعها في الشعر العربي فكانت: الطويل – الكامل – البسيط – الخفيف – الرمل – المتقارب – السريع – والمنسرح – المديد – المتدارك[2].

فقد نظم على البحر الطويل 35 قصيدة، وكانت أعلى من البحور الأخرى، وهذا يعود لما يتيحه البحر الطويل من طول النفس للشاعر، فنظم عليه القصائد الطوال، وحتى المقطعات التي تتألف من بيتين.

1- أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص269.

2- إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص59.

والغريب في نظم ابن زيدون قلة نظمه على البحر الرجز، فلم ينظم غير قصيدة واحدة، وخاصة مشطور الرجز الذي كان ينظم عليه الشعراء مجاراة للنمط الفني، وإثباتاً لاقتدارهم عليه، في حين كان يظن أن الشاعر المولد لا قدرة له عليه[1].

وما نلاحظه بما يخص موضوع البحث أنّ ابن زيدون في جميع البحور، ومجزوءاتها التي نظم عليها نجد أن مفردة الدهر ومتعلقاتها كانت حاضرةً، ولما لتكرار هذه الكلمة من دور في الإيقاع الموسيقي، فتجربة ابن زيدون والإحساس العميق الذي يتمتع به، جعله يجيد استخدامه للموسيقى والتفعيلات بطاقاتها النغمية كاملة، وقد نوع في موسيقى التفعيلة سواء بالإيقاع المنتظم، أو بالاستعانة بالزحافات والعلل، والتي تكسر حدة الإيقاع وتنوع فيه، فقد نوع في الاستخدام بين البحور الطويلة، والبحور القصيرة، ومجزوءات البحور.

القافيـة: يمثل الوزن والقافية ركنين أساسيين من أركان بناء القصيدة العربية، لأنهما يساعدان الشاعر على التعبير عن أفكاره الذاتية، ومن ثم إيصال ما يريد قوله إلى ذهن المتلقي، وهذه العملية لا تتم إلا بالاختيار الأمثل للوزن والقافية، ولم يخرج ابن زيدون عن النهج المألوف في الأوزان مطلقاً[2]، فإن للقافية دوراً في استكمال جمالية الأثر الفني، وعلى بعث الإيحاء في النص الشعري، وتشيع بتكرارها في نهايات الأبيات أجواء نغمية لأنها بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع

1- إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص196.

2- علي عبد العظيم، ابن زيدون عصره وحياته وأدبه، منشورات، المكتبة الأنجلو، القاهرة، 1955، ص348.

ترددها، ويتمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الأذن في فترات زمنية منتظمة[1]: وتشكل القافية قيمة جمالية لإضفاء أجواء موسيقية، وكذلك للقافية دور في تأكيد المعنى باعتبارها النهاية البارزة للوزن في البيت[2].

والقافية تستكمل دورها بلازمة نغمية وهي حرف الروي، فقد جاءت حروف الروي عند ابن زيدون متلائمة مع عواطفه ومشاعره وحالته النفسية.

وفي قصائد ابن زيدون جاءت قوافيه على معظم الحروف، فيكثر الاستخدام من حروف على حساب حروف تبعاً لحالته النفسية، أو ما يناسبها من بناء موسيقيّ، فمثلاً نجد الشاعر يستخدم (الهاء) حرفاً للروي، فالهاء تمتاز بأنّها عسرة للغاية وثقيلة[3] وذلك في قوله[4]: (البحر البسيط)

يـــا نازحـــاً وضـــمير القلـــب مثـــواه أنســـتك دنيـــاك عبـــداً أنـــت دنيـــاه

ألهتـــك عنـــه فكاهـــات تلـــذُّ بهـــا فلـــيس يجـــري ببـــال منـــك ذكـــراه

عـــل الليـــالي تبقينـــي إلـــى أمـــلٍ الـــدهر يعلـــم والأيـــام معنـــاه

فصوت الهاء في نهايات الأبيات يعكس أنين الشاعر، وشكواهُ، وخلجاته النفسية التي تعيش على الصدِّ والحرمان، مستخدماً الدهر وألفاظه التي تدل عليه مستنجداً بالليالي "علّ الليالي تبقيني

1- إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص246.

2- جابر عصفور، مفهوم الشعر، منشورات المركز العربي للثقافة، 2005، ص407.

3- عبد الله الطيب المجذوب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ج1، ط3، الكويت، 1989، ص55.

4- ابن زيدون، الديوان، ص148.

إلى أمل" فبعد الحبيبة عنه جعلته يألم، ولما لهذا البعد من ألم ومرارة، فقد عبر عنه بالألفاظ التي دلت على حرقة الشاعر، ولهفته ببقاء الأمل بعودة الحبيبة، وكذلك جاءت القافية تعبر عن هذا بصوت يخرج من إنسان بعسرة وصعوبة، إنسان يرغب بعودة الحياة والأمل، وكأنه وصل حد اليأس، هكذا يوحي صوت الهاء في نهاية الأبيات.

فقد نظم ابن زيدون على أكثر حروف الهجاء ما عدا: الجيم، والخاء، والذال، والزاي، والصاد، والغين، وزاد نظمه في حروف تبوأت السيادة، وهي الراء 35 نصاً، والدال 26 نصاً، واللام 25 نصاً، والباء 18 نصاً، والميم 17 نصاً، والنون 16 نصاً، والغين 14 نصاً، وما تبقى من الحروف تراوحت النصوص من نص إلى سبعة نصوص، فالحروف التي سادت كانت حروفاً جهرية مثل الراء والدال واللام.

الايقاع الداخلي:

لا يقتصر البناء الموسيقي على الإيقاع الخارجي، بل هناك إيقاعات تعزفها المفردات، وهي إيقاعات الكلمة والحروف، حسب انتظامها في هيكل الأبيات، وتكرارها وتكرار حروفها، ويتحقق الانسجام الموسيقي على رأي الدكتور المجذوب في نمطين هما: التكرار المحض، وتنويع أوزان الكلمات، والتكرار المحض للإيقاع يرد في نوعين رئيسيين هما: ترديد الألفاظ في القصيدة، وترديد الحروف في البيت الواحد[1].

1- عبد الله الطيب المجذوب، المرشد إلى فهم أشعار العرب، 2، ص494

مثال[1]: (البحر الطويل)

أجـــل إنّ ليلـــى حيـــث أحياؤهـــا الأســـدُ مهـــــاهٌ حمتهـــــا فـــــي مراتعهـــــا أســـــد

كرّر كلمة "الأسد" و"أسد"، والحروف بتكرار حرف الحاء والتاء، وكذلك والهمزة، فقد تلون البيت بتناغم ألوان الترديد اللفظ والحرف، مما ساهم في خلق موسيقى قائمة على التنويع؛ لتأكيد المعنى، وإعطاء صورة معبرة عن طبيعة الأشياء، ويكتسب الإيقاع أهميته داخل النص الشعري، وذلك من أنه يؤدي وظيفةً جماليةً ذات رتابة لدى الملقي والمتلقي، ويجعل دور المتلقي مركزياً في عملية الإيصال، مما يساعد على تحطيم الفواصل بين شعور المتلقي وشعور الفنان، فتتيح لهما التوحد في عالم شعوري واحد[2].

والتصريع: هو اتفاق العروض والضرب بالقافية، وينمّي الموسيقى الداخلية، ويساعد على أن تكون الموسيقى أكثر جمالاً، لأن التصريع نهاية موسيقية لكل شطر، مثال قوله[3]: (البحر الرمل)

كـــم لـــريح الغـــرب مـــن عـــرفٍ نـــدى كالشـــراب العـــذب فـــي نفـــس الصّـــدى

حيـــث عَبّـــادُ فتـــى المجـــد الـــذّي نُصّـــت الـــدُّنيا بـــه نـــصّ الهـــدى

1- ابن زيدون، الديوان، ص351.

2- بسام قطوس، البنى الإيقاعية في مجموعة محمود درويش، حصار لمدائح البحر، أبحاث اليرموك، سلسلة الأداب واللغويات، ج9، ع1، 1991، ص41.

3- ابن زيدون، الديوان، ص446 – 447.

وقوله[1]: (البحر الكامل)

اقـــدم كمـــا قـــدم الربيـــع البـــاكر واطلـــع كمـــا طلـــع الصـــباح الزاهـــر

فتكرار الأصوات اقدم، قدم، اطلع، طلع، وكذلك التصريع الباكر والزاهر، أدى دوراً موسيقياً داخل البيت.

وكذلك ما ينمي الموسيقى الداخلية رد الصدر على العجز، كقوله[2]: (البحر الطويل)

لعمـــرك مـــا للمـــال أســـعى, فإنمـــا يـــرى المـــال أســـنى حظـــه الطبـــع الوغـــد

والجناس كذلك ينمي الموسيقى الداخلية، كذلك التدوير له فائدة شعرية، وليس مجرد اضطرارٍ يلجأ إليه الشاعر، ذلك أنه يسبغ على البيت غنائية وليونة، لأنه يمده ويطيل نغماته[3]. وذلك في قوله[4]: (البحر المتقارب)

وجاهـــد فـــي الله حـــق الجهـــا د مـــن دان مـــن دونـــه بالصـــنم

والتكرار كذلك ينمي الموسيقى الداخلية، مثال ذلك تكرار الليل في قول ابن زيدون[5]: (مجزوء الكامل)

1- ابن زيدون، الديوان، ص506.

2- نفسه، ص365.

3- نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين،بيروت، ط5، 1978، ص122.

4- ابن زيدون، الديوان، ص414.

5- نفسه، ص182.

يـــــا ليـــــل طـــــل لا أشـــــتهي إلا بوصـــــــــــــل قصـــــــــــــرك

يـــــا ليـــــل طـــــل أو لا تطـــــل لا بـــــــــد لـــــــــي أن أســـــــــهرك

لـــــو بـــــات عنـــــدي قمـــــري مـــــا بـــــت أرعـــــى قمـــــرك

يـــــا ليـــــل خبـــــر إننـــــي أَلْتـــــــــذُّ عنْـــــــــهُ خبـــــــــرَكْ

فتكرار الليل في كل بيت يكشف عن موقف جديد، وهذا التكرار المقرون بالنداء يبين رغبة الشاعر الملحة في تأكيد المعاناة التي يواجهها، وكذلك تكرار الزمن (الليل) يعبر عن الوحشة التي تعكس حزن الشاعر، فالتكرار أضفى على الأبيات موسيقى جميلة، فتكرار حرف النداء (يا)، وتكرار لا النافية، وتكرار الكلمات الليل، طل، قمري، بات، خبر، كذلك استخدام الطباق (وفي، غدرك) كل هذا الأمور ساعدت في إبراز المعنى ودلت على حالة الشاعر المليئة بالمعاناة والألم.

ومثال ذلك تكرار كلمة (الليل، والصبح) في قوله[1]: (البحر الطويل)

وليـــــل أدمنـــــا فيـــــه شـــــراب مدامـــــة إلـــــى أن بـــــدا للصـــــبح فـــــي الليـــــل تأشـــــير

وجـاءت نجـوم الصـبح تضـرب فـي الـدّجى فولـــــت نجـــــوم الليـــــل والليـــــل مقهـــــور

الأغراض الشعرية:

كان لطبيعة الحياة والمواقف التي خاضها ابن زيدون دور في تنوع الأغراض الشعرية عنده، فحبه لولادة وتعلقه بها كان له أثر في شعر الغزل من شوق وفرحة بلقاء الحبيبة، وحنين إليها، ومرارة

1- ابن زيدون، الديوان، ص245.

الفراق والهجر، وكذلك قربه من الحكام ومنصبه في الدولة كان له دور في شعر المدح والهجاء والإخوانيات، وما كتبه من قصائد في الوصف وكذلك الرثاء، وسجنه، وعزله من منصبه، وما عاناه في السجن كان له أثر كبير في شعر العتاب والشكوى، والشاعر نظم في مختلف الأغراض، فنظم في المدح الذي يعد من أكثر الأغراض في شعر ابن زيدون نظماً، حيث بلغ عدد القصائد 37 قصيدة، وعدد الأبيات 905 بيتاً، مدح ابن زيدون بني جهور، وبني عبّاد، غيرهم، وكانت هناك قصائد في المديح الخالص، ولم يضف إليه غرضاً أخر، مثال ذلك مدحه للمعتضد بالله ابن عباد ملك إشبيلية، وقصائد المدح الخالص قليلة إذا ما قورنت بالتي يمزج بها أغراضاً أخرى.

كقوله[1]: (البحر الطويل)

لـيَهنِ الهُـدى إنجـاحُ سـعيكَ فـي العِـدا وأن راح صـنعُ اللهِ نحـوكَ واغتـدى

وهناك قصائد للمدح استهلها بمقدمة غزلية، وكذلك يمزج المدح بأغراض كالوصف والشكر والتهنئة. مثال ذلك قوله[2]: (البحر الكامل)

اقـدم كمـا قـدم الربيـع البـاكر واطلـع كمـا طلـع الصـباح الزاهـر

فغرض الوصف منسجم مع غرض المدح، فكان شفاؤه من المرض بمثابة قدوم الربيع، وطلوع الصباح المشرق، فيوظف عنصرين من عناصر الزمن في الوصف، وهما: الربيع، والصباح توظيفاً إيجابياً؛ لتوضيح فكرة شفاء الممدوح، وعودته إلى الحياة من جديد.

1- ابن زيدون، ديوان، ص467.

2- نفسه، ص575.

وأحياناً كان يجعل من الممدوح نداً للدهر، والمتحكم بالدهر المسيطر عليه، أو يجعله هو الدهر مثال قوله[1]: (البحر الطويل)

أرى الـــدهر: إن يـــبطش فأنـــت يمينـــه وإن تضـــحك الـــدنيا فأنـــت لهـــا ثغـــر

الغزل: ويعد الغزل في شعر ابن زيدون من أهم الموضوعات، عرف ابن زيدون بحب ولادة، فنجم عن هذا الحب شعر في الشكوى والعتاب والحنين والشوق والهجر والفراق، مثال ذلك قوله في الفراق[2]: (البحر الطويل)

لحـــا الله يومـــاً لســـت فيـــه بملتـــقٍ محيـــاك مـــن أجـــل النـــوى والتفـــرقِ

وكيـــف يطيـــب العـــيش دون مســـرةٍ؟ وأي ســـــرورٍ للكئيـــــب المـــــؤرقِ؟

قوله في العتاب[3]: (البحر الوافر)

أيوحشـــني الزمـــان وأنـــت أنســـي ويظلـــم لـــي النهـــار وأنـــت شمسِـــي؟

ويعد الغزل من أكثر الأغراض من حيث عدد القصائد، فقد بلغ 83 قصيدة، وعدد الأبيات 621 بيتاً، فكانت ألفاظ الدهر حاضرةً في غزلياته، فتذكر أيام الأنس، وتمنى أن تعود، وتحسر على الماضي السعيد، وشكا وتذمر من الحاضر، ومن الفراق، قوله[4]: (البحر البسيط)

1- ابن زيدون، الديوان ، ص547.

2- نفسه، ص174.

3- نفسه ، ص185.

4- نفسه، ص 143.

إن الزمـــان الـــذي مـــازال يضـــحكنا أنســـاً بقـــربهم قـــد عـــاد يبكينـــا

حالـــت لفقـــدكم أيامنـــا فغـــدت ســـوداً وكانـــت بكـــم بيضـــاً لياليـنـــا

الرثاء: بلغ عدد قصائد الرثاء (7) قصائد، وعدد أبياتها (260) بيتاً، ومنها ما جاء في الرثاء الخالص، ومنها ما مزجه بالمديح، فكان في قصائد الرثاء يحمل الدهر مسؤولية حدوث المصائب ويشكوه، وهو المتسبب بالموت، فيطلب من الممدوح الصبر والتحمل، فيكون الدهر القوة المسيطرة، ولا سبيل للممدوح مع هذه القوة إلا الصبر، فهو مستسلم لحكم الدهر.

الهجاء: نظم ابن زيدون (7) قصائد في الهجاء، وعدد أبياتها (82) بيتاً، وقد كان الدهر حاضراً في قصائد الهجاء، من ذلك قوله في هجاء ابن عبدوس [1]: (البحر المتقارب)

"أبـــا عـــامر" أيـــن ذاك الوفـــاء إذ الـــدهر وســـنان، والعـــيش غـــض؟

الوصف: اشتمل ديوان ابن زيدون على مقطعات في الوصف الخالص، بعضها يطول وبعضها يقصر، لكن الوصف يتغلغل في القصائد بصفة عامة، فالشاعر يصف الممدوح، ويصف الخمور، ويصف الطبيعة، ويصف أفعال الدهر، ويصف حبيبته، ولكن هناك قصائد تخص الوصف وحده، مثال قوله[2]: (البحر الطويل)

كأنّـا –عشـيَّ القطـر– فـي شـاطئ النهـر وقـــد زهـــرت فيـــه الأزاهـــر كـــالزُّهر

1- ابن زيدون، الديوان، ص584.

2- نفسه، ص244.

وأغراض أخرى نظم فيها ابن زيدون: كالإخوانيات التي بلغ عدد القصائد (27) قصيدة، وعدد الأبيات (210) أبيات، وفي المطيرات (10) قصائد، وعدد الأبيات (181) بيتاً، والشكوى والعتاب (15) قصيدة، وعدد الأبيات (209) أبيات.

وفي جميع الأغراض التي نظم عليها ابن زيدون نجد مفردة الدهر حاضرة.

وفيما يتعلق بالبحور وتناسبها مع أغراض الشعر، فقد جاءت بعض الأغراض كالغزل في معظم بحور الشعر التي نظم عليها ابن زيدون عدا المنسرح، وكذلك الإخوانيات، وفي الأغراض الأخرى نجد أن ابن زيدون كان يتخيّر في الأوزان، فنظم على بحور، ولم ينظم على أخرى.

الفصل الثاني

صورة الدهر في شعر ابن زيدون

صورة الدهر في شعر ابن زيدون.

أولاً: الدهر القوة المتصرفة المغيّرة للأشياء :

1- الوجه السلبي للدهر

- **الدهر المهلك**
- **الدهر المبدل**
- **الدهر المفرق**
- **الدهر الخائن**
- **الدهر المفسد**
- **صروف الدهر**
- **نوائب الدهر وريبه**
- **خطوب الدهر**
- **مصائب الدهر وأرزاؤه**

أً- عوائد الدهر على الشاعر

- **الموت**
- **الشيب والشباب**
- **ب- موقف ابن زيدون من الدهر**
- **التحدي والمواجهة والاستسلام**

2- الوجه الحسن للدهر

ثانياً: الدهر الزمني

- **الزمن الجزئي**
- **الزمن الكلي**

أولاً: الوجه السلبي للدهر:

نسب الشعراء في العصر الجاهلي إلى الدهر الأفعال السلبية، فكانوا متشائمين منه، ويحملونه السبب في كل ما يحدث لهم، وأن الدهر عندهم إله غير محسن، ولا يملك إيجاد الحياة أو الرزق أو العطاء، وإنما هو إله مميت وقاهر، وهو إله مفرق، ومقلب، ومفنٍ.[1]

وإنّ سهام الدهر لا تخطىء الإنسان، والإنسان لا يملك أمامه سوى الاستسلام، فقوة الدهر أفنت الأحبّة حتى أيقنت النفوس أن لا خلود، وأن الدهر لن يبقي على أحد، ومن ذلك قول عمرو بن قميئة[2]: (البحر المتقارب)

كبـــــــرت وفـــــــارقني الأقربـــــــون وأيقنـــــــتْ الـــــــنفس ألا خلـــــــودا

وبـــــــان الأحبّـــــــة حتـــــــى فنـــــــوا ولـــــم يتـــــرك الـــــدهر مـــــنهم عميـــــدا

وهناك من الشعراء من حاول محاربة الدهر والوقوف بوجهه، ولكنه لم يستطع التغلب عليه، يقول طرفة بن العبد[3].(البحر الطويل)

ومـــن حـــارب الأيـــام طاشـــت ســـهامه ومـــن أمـــن المكـــروه فالـــدهر عائقـــه

ولابـــدَّ مـــن مـــوت وشـــيك أو أجـــل فحيـــث يكـــون المـــرء فـــالموت لاحقـــه

1- محمود أحمد الحلحولي، الدهر في الشعر الجاهلي والإسلامي، ص57.

2- عمرو بن قميئة، الديوان،عني بتحقيقه وشرحه وعلق عليه، حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، 1965، ص188.

3- طرفة بن العبد، الديوان، تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصّقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1975، ص180.

والجاهليون شتموا الدهر، وصوروه بالحيوان المفترس الذي يحدث الشرور للناس، ويفسد عليهم أمورهم، وكذلك صوروه بالغول، وبمظاهر الطبيعة، فالجميع لم يسلم من سطوة الدهر حتى الحيوانات، فالدهر هو الذي يفسد ما صَلُحَ من أمور، وفي ذلك يقول الشاعر دويد بن نهد:[1] (بحر الرجز)

ألقـــىَ علـــيَّ الـــدهر رجـــلاً ويـــدا والـــدهر مـــا أصـــلح يومـــاً أفســـدا

وابن زيدون ردد قول الشعراء الجاهليين في معظم الأحيان في القول بأن الدهر قوة تهلك الناس وتفرق الأحبة، ورغم شيوع لفظه الدهر ومتعلقاتها في شعر ابن زيدون إلا أنهَ لم يفرده كموضوع خاص في مواضيع شعره التي تطرق إليها، إنما نجده يتخلل جميع الأغراض والموضوعات؛ ليوصل فكرةً ما، أو ليعبر عن حالة نفسية عاشها.

استخدم ابن زيدون الدهر على غير عادة بعض الشعراء الذين نجدهم يتذمرون منه، فنلاحظ أن ابن زيدون وظفه في كلا الجانبين الإيجابي والسلبي، فنجد أن الجانب الإيجابي طغى على الجانب السلبي في كثير من المواقف.

فنجده يمدح الدهر ويدعو له، وتارةً يشبهه بالممدوح، وتارةً يجعل الممدوح متحكماً به، وأخرى نجده مقبلاً عليه كريماً في عطاياه، وفي المقابل نجده يشكوه ويتذمر منه، وتارةً مستسلماً لحكمه، وأخرى يواجهه عن طريق الصبر أو الممدوح، فهو رمى ابن زيدون بالأحداث الجسام التي أفقدته محبوبته، وأبعدته عن السلطة وعن بلده، وأدخلته السجن، وكان استخدامه له بحسب الظروف التي ألمت به.

1- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 1، ص48.

بالرغم من نفي الإسلام وإنكاره على الجاهليين في اعتقادهم أنَّ الدهر هو المهلك، وبالرغم من أنَ ابن زيدون نشأ في بيت فقه، وثقافته الدينية، إلا إننا وجدناه يذكره ويتابع الجاهليين في اعتقادهم في بعض الأحيان في ذمه وشتمه، وتحميله المسؤولية في كل ما حدث.

ونهي الإسلام كان له أثر في صرف بعض الشعراء عن ما هو مأثور عن الجاهليين في التبرم من الحياة، ودفعهم إلى الصبر على المكاره، والإيمان بقضاء الله وقدره في الحادثات، ولكن هذا الأمر لم ينطبق على جميع الشعراء، فهناك من الشعراء من نهج نَهْج الجاهليين في ذم الدهر، وجعله القوة الفاعلة المتحكمة في كل شيء، والحكم على الدهر بأنه جائر، ومن ذلك قول ذي الإصبع العدواني[1]: (البحر المنسرح)

أهلكنـــــا الليـــــل والنهـــــار معـــــاً والـــــدَّهر يعـــــدو مصـــــمماً جـــــذعا

وما لاحظناه أن الشعراء أكثروا من شكوى الدهر في العصر الأندلسي، وهذا يعود لأسباب: سياسية واجتماعية ونفسية، وهذا ما أشار إليه الدكتور لؤي علي الخليل في مقدمة كتابه: "كان شكوى الدهر بسبب الظروف، والخلافات التي نشبت بين العرب والبربر [2].

نظر ابن زيدون إلى الدهر كما نظر إليه الشعراء الجاهليون، ولكنه في بعض الأحيان نراه يسلم بالقضاء والقدر، وأن الأمر لله، وهذا الفصل سيكشف اللثام عن التبدلات، والتغيرات التي تطرأ على المعنى تبعاً لاختلاف دوائر السياق، وذلك على أساس أن المعنى منتج إنساني لغوي، وكلاهما

1- حرثان بن محرث ذي الأصبع العدواني، ديوان ذي الأصبع العدواني، تحقيق: عبد الوهاب محمد علي العدواني ومحمد نائف الدليمي، مطبعة الجمهور، الموصل، 1973، ص55.

2- انظر لؤي علي الخليل، الدهر في الشعر الإندلسي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، 2010، ص7.

"اللغة والإنسان" متغير متحيز بحسب ظروفه وانتماءاته" [1] تكلمنا سابقاً أن ابن زيدون مرَّ بمراحل، وظروف جعلته يلون في استخدامه للدهر تبعاً لهذه الظروف، وفي هذا كلّهُ كان للدهر استخدامات متعددة طبقاً لحالة الشاعر النفسية، وبالرغم من أن ابن زيدون يمتلك الحس الديني الذي نجده جليا في شعره، إلا أنه لم يغفل سلطة الدهر، تلك القوة التي تتحكم بالإنسان وما يجري حوله، فتغير وتبدل فيها كيف تشاء خيراً أو شراً موتاً أو حياةً، ولا يملك الإنسان أمام هذه القوة شيئا، فنجده مستسلما لها، فقد دارت سلطة الدهر في شعر ابن زيدون، وتمثلت في معانٍ كثيرة، رغم تفاوتها في نسبة الشيوع في شعر ابن زيدون، وطغيان جانب على أخر، إلا إنّ للدهر جانبين في شعر ابن زيدون: جانب سلبي، وجانب إيجابي، وسنبدأ بسلطة الدهر في الجانب السلبي ومنها:

1. الدهر المهلك:

جعل الشعراء الجاهليون الدهر هو المهلك، فالجاهلي يعتقد أن الدهر يمضي به إلى الموت، فشكى الدهر وحنق عليه، فالجاهلي كان يعتقد أن لا حياة بعد الموت، لذلك شكى الدهر وذمه رغبةً منه في الحياة.

لا شك كما أن الدهر فيه نهاية للحياة، كذلك فيه بداية حياة "فالزمان على هذا التصور هو رمز الفناء فبتقدمه تمضي حياة المرء نحو نهايتها"[2]:

1- لؤي علي الخليل، الدهر في الشعر الإندلسي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، 2010، ص7.

2- عبد العزيز شحادة، الزمن في الشعر الجاهلي، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، عمان، 1995، ص58.

فثمة صراع دائم بين الموت والحياة، وعلى الرغم من مجيء الإسلام ومعرفة الناس لحقيقة الموت، وأن الله هو المحيي والمميت، إلا أن بعض الشعراء كان يذكر في شعره أن الدهر هو الذي يفني، ومن ذلك قول جرير[1]:(البحر الطويل)

أنـــا الـــدَّهر يفنـــي المـــوت والـــدهَّر خالـــد فجئنـــــي بمثـــــل الـــــدهر شـــــيئاً يطاولـــــه

فالموت في نظر جرير من مسببات الدهر الذي لا تقدر عليه أي قوّة، ويجعل له صفة الخلود، ويطلب أن يؤتى بقوة أقوى من قوة الدهر.

وابن زيدون يتابع الشعراء السابقين بهذه الفكرة – فكرة خلود الدهر – وأنه يفني الجميع ولا يفنى، وذلك في قوله[2]: (البحر البسيط)

مـــــن مبلـــــغ الملبســـــينا بـــــانتزاحهم حزنـــــاً مـــــع الـــــدهر لا يبلـــــى ويبلينـــــا

عانى ابن زيدون من الدهر، وجعله عدواً يبلي جميع الأشياء الجميلة، واستخدم الثنائية الضدية؛ ليكشف عن مدى تأثير الدهر وقوته، فهو ثابت مسبب الحزن الدائم الذي لا يبلى، فالحزن يبلي كل شي وهو لا يبلى طوال الدهر، فالحزن من أفعال الدهر خالد لا يبلى، وبالمقابل يقوم بإهلاك الجميع، فهو قوة قاهرة لا يستطيع أحد أن يتغلب عليها، متسببة بالموت وإهلاك كل شيء جميل لديه.

1- جرير بن عطية، الديوان، شرح: مجيد الطراد، دار الفكر العربي، بيروت، 2003، ص278.

2- ابن زيدون، الديوان، ص142.

فنراه في قصائد الرثاء يحمل الدهر المسؤولية في الموت، من ذلك رثاؤه لأبي الوليد بن جهور في موت أمه[1]: (البحر الطويل)

هـو الـدهر فاصـبر للـذّي أحـدث الـدهر فمـن شـيم الأبـرار فـي مثلهـا الصـبر

ويؤكد هذا المعنى في أبيات أخرى من قصيدة أخرى له في الرثاء، فالدهر هو المهلك[2]: (البحر الطويل)

أأنفـس نفـس فـي الـورى أقصـد الـردى وأخطـر علـقٍ للهـدى أهلـك الـدهر

فهلاك الدهر للناس حقيقة يؤمن بها ويؤكدها، فالدهر قوة مهلكة لا سبيل أمامها سوى الصبر، فيمكن بالصبر مواجهته، ولكن سرعان ما يتحول ابن زيدون إلى الاستسلام أمام هذه القوة.

جعل ابن زيدون في قصائد الرثاء الدهر سبباً لكل المصائب، فبنى القصيدة على المصائب التي يحدثها الدهر: من إهلاك وتفريق وإفساد وغيرها، وبالرغم من ذلك فالدهر هو المخلف الذي يعود بالخير، ومن ذلك مدحه لابن جهور في قوله[3]: (البحر الطويل)

لعمـري لـنعم العلـق أتلفـه الـردّى فبـان ونعـم العلـق أخلفـه الـدهر

فيحمل الدهر المسؤولية في فقد أبي الحزم بن جهور، وبالمقابل فإن الدهر أخلف ابنه الوليد، ونجد هذا الأمر يتكرر في موازنة ابن زيدون بين فعل الدهر في الإساءة والإحسان وفي السرور والحزن في الوقت نفسه، لتعزية ابن جهور، ونفسه المضطربة من الدهر، فهو يؤمن إيماناً بأنّ الدهر

1- ابن زيدون، الديوان، ص539.

2- نفسه، ص 542.

3- نفسه، ص528.

هو المتصرف بجميع الأحوال خيرها وشرها، كذلك نجده في بعض الأحيان منصفاً في حكمه على الدهر، وليس حاملاً ساخطاً عليه، فكما أنّه المسيء جالب الشر، فهو المحسن جالب للخير.

الموت لا يعرف صغيراً ولا كبيراً، مهما طال العمر أو قصر، فلا بدّ منه، فالموت غاية ينتهي إليها كل إنسان، وذلك في قوله[1]: (البحر الطويل)

فـــــلا تبعـــــدن إنّ المنيـــــة غايـــــة إليهـــا التنـــاهي طـــال أو قصـــر العمـــر

يجعل ابن زيدون من الدهر مفجعاً يفجع بفعله فناء الأفضل من الناس، وبعدها يعلن أن مهما أفقد الدهر، وأهلك من الناس لا يبالي، لأنّه أخذ أعزّ الناس وأنفسهم[2]: (البحر الطويل)

أبـا الحـزم قـد ذابـت عليـك مـن الأسـى قلـوبٌ مناهـا الصـبر لـو سـاعد الصـبر

دع الـــدهر يفجـــع بالـــذخائر أهلـــه فمـــا لنفـــيس مـــذ طـــواك الـــردى قـــدر

تهـــون الرّزايـــا بعـــد وهـــي جليلـــة ويعـــرف مـــذ فارقتنـــا الحـــادث النكـــر

فقـــد نـــال فقـــدان الســـحابة لـــم يـــزل لهـــا أثـــر يثنـــى بـــه الســـهل والـــوعر

فهنا يعبّر عن مدى حزنه، وأن القلوب ذابت، فيدعو نفسه إلى الصبر، والصبر أصبح أكبر آماله، ولكن هذا المصاب تغلب على الصبر، فلا صبر أمام موت أنفس الرجال، فخطابه للميت إشارة إلى أنه ما زال حيّاً في القلوب، وكذلك إلى شدّة جزعه على هذا الفقيد، فيقول دع الموت يتخطف من يشاء من بعدك، فلم نعد نخشى الموت بعد فناء العظماء، فالموت بعده هين ولا يحزن،

1- ابن زيدون، الديوان، ص526.

2- نفسه، ص526-527.

ويواسي نفسه بسيرة الفقيد الحسنة، فهي حليٌّ لليالي تعطر الأيام، وسيرته باقية كبقاء أثر السحابة على الوديان والسهول، بما جادت عليه من الخير.

يجعل ابن زيدون من الدهر السلطة التي لا يعصى أمرها في قضية الموت، من منطلق إيمانه بحتمية الموت وسلطة الدهر، فيجعل من (المتوفى) إنساناً مستسلماً راضياً بالموت يلبي دعاءه[1]: (البحر الطويل)

إلـــــى أن دعـــــاه يومـــــه فأجابـــــه وقـــد قـــدم المعـــروف واســـتمجد الـــذخر

نلاحظ أن ابن زيدون يقرُّ بفاعلية الدهر وقدرته على الأهلاك، فهو يفني من يشاء، ولا يميّز بين إنسان كبير أو صغير، أو عظيم وحقير، ولا يملك مع هذا الأمر إذ دعاه يومه إلا الإجابة والإذعان له، فيدعو إلى الصبر والإيمان.

2. الدهر المبدل:

لا شك أن الدهر دوارٌ، ومن سماته التبديل والتغيير، فهو دائم التغيير في حياة الناس بين الخير والشر والفرح والحزن، ولكن بعض الشعراء كانوا يرون أن الدهر يقلب حياتهم من الخير إلى الشر، ونادراً ما كان الشعراء يرون في الدهر العكس، ونجد في شعر ابن زيدون إشارات صريحة يؤكد فيها على أن الدهر دوار، ويبدل الأحوال من حالٍ إلى حال، ومن ذلك قوله[2]: (البحر البسيط)

لا يكثـر العتـب فـي ذكـرى الصـديق بـه مـــن لـــيس يجهـــل أن الـــدَّهر دوار

1- ابن زيدون، الديوان، ص567.

2- نفسه، ص200.

لا يلوم الأصدقاء، لأنّ الدهر بتقلباته يرغم الناس على مخالفة ما يحبون، فتقلب الأصدقاء من تقلب الدهر، فهو الذي بدّلهم وغيّر حالهم، وهو بارع في تغييره للأمور، نجده في قصيدة الرثاء يواسي أبا الوليد بفقد أبي الحزم بن جهور، فبدل الدهر الإساءة بإحسان، بالمحصلة نجده هو القوة الفاعلة في التغيير والتبديل من الحسن إلى الإساءة وبالعكس، فالدهر أتبع الإساءة بإحسان واعتذر، فأساء بفقد أبي الحزم بن جهور، ولكنه أحسن إذ جاء بولاية ابنه الوليد[1]: (البحر الطويل)

ألـم تـرَ أنَّ الشـمس قـد ضـمها القبـر؟ وأن قـد كفانـا فقـدها القمـر البـدر؟

وأن الحيـا إن كـان أقلـع صـوبه فقـد فـاض للآمـال فـي إثـره البحـر

إسـاءة دهـر أحسـن الفعـل بعـدما وذنـب زمـان جـاء يتبعـه العـذر

فـلا يـتهنَّ الكاشـحون فمـا دجـا لنـا الليـل إلا ريثمـا طلـع الفجـر

وإن يـك ولَـى جهـور فمحمـدٌ خليفتـه العـدل الرّضـى وابنـه البّـر

لعمـري لـنعم العلـق أتلفـه الـردى فبـان، ونعـم العلـق أخلفـه الـدهر

يستخدم ابن زيدون الطباق والتضاد؛ ليوضح فكرة تقلب الدهر، وتغيّره من حال إلى حال: ضم – فقد / أقلع – فاض / إساءة – إحسان / الليل – الفجر / ولى – خلفه / أتلف – أخلف .

فهذا الطباق يبرز المعنى الذي أراد ابن زيدون إيصاله، وهو اعتذار الدهر عن الإساءة، والإحسان، بعد أن أهلك الدهر أبا الحزم بن جهور، فقد أحسن بولاية ابنه أبي الوليد، وكذلك إشارة إلى أن هذه التقلبات التي تحدث هي من فعل الدهر، وأن لا شيء يبقى على حاله، فالدهر يقلب الأشياء بين الحسن والقبح، فهو لا يستقر على حال.

1- ابن زيدون، الديوان، ص523-524.

ويعبر عن هذا المعنى بالصورة الفنية الجميلة، فهو يصور أبا الحزم بالمطر الذي بعد إقلاعة (موته) ينتج عنه السيول، والخير الذي يبشر بالحياة بالخير من السيول التي تخلف هذا الإقلاع، فتبعث الحياة من جديد، كما صور الزمان بمجيء (أبي الوليد) بالإنسان الذي يخطئ ويسيء، ثم يقدم الاعتذار عن الإساءة، ويأتي بالإحسان، وأنّ الواشين لم يتهنّوا بموت أبي الحزم الذي شبهه بالليل، الذي سرعان ما يزول وينقشع، ويبزغ الفجر بولاية ابنه من بعده.

فولى الأب ليخلفه الأبن الرضي البرّ، والذي ولّى هو من أكرم الناس، والمخلوف كذلك، ويؤكد هذا بقوله: "لنعم العلق أتلفه الردى، ولنعم العلق أخلفه الدهر" بهذا الأمر يكشف عن فاعلية الدهر في التغير والتبديل بين الإساءة والإحسان.

يتحدى ابن زيدون الدهر المغيير المقلب للأحوال في حفاظه على الحبّ والود، رغم تغيير الدهر للقلوب في المحبة والمودة، إلا أنّه لا يتغير[1]: (البحر الخفيف)

أمـــــلٌ يَـــــرعَمُ الجفـــــاء إليـــــه وهـــو ثبـــت المقـــام ماضـــي العـــزيم

ووداد يغيـــــر الـــــدهر مـــــا شـــــا ء ويبقـــــى بقـــــاء عهـــــد الكـــــريم

وهنا يؤكد على حفظه للود في كثير من المواطن[2]: (مجزء الرمل)

ووادي لـــــــــــك نـــــــــــص لـــــــــم يخالفـــــــــه قيـــــــــاس

1- ابن زيدون، الديوان، ص284.

2- نفسه، ص285.

لا يأمن ابن زيدون مكر الدهر، حتى وإن أقبل عليه بالمسرات، فإنه سرعان ما يتحول ويحرمه لذة الحياة[1]: (البحر البسيط)

لـــيس الركـــون إلـــى الـــدنيا دليـــل حجـــا فإنهـــــــــا دول أيامهـــــــــا متـــــــــع

فالأيام دول بين الناس، ومن جاءه يوم سعيد فليغتنم هذا اليوم، فإنَّ السعادة لا تدوم، وسرعان ما تتبدل النعمة بؤساً، ويؤكد هذا المعنى في قوله[2]: (مجزوء الرمل)

فـــــــاغتنم صـــــــفو الليـــــــالي إنمـــــــا العـــــــيش اخـــــــتلاس

فالدهر غير منصف، فهو شغوف بأن يحول بين النابهين وبين بلوغ ما يطمحون له[3]: (البحر البسيط)

أهـــــل النباهـــــة أمثـــــالي لـــــدهرهم بقصـــــرهم دون غايـــــات المنـــــى ولـــــع

وابن زيدون من النابهين الذين حال الدهر بينهم وبين تحقيق ما يصبون إليه من غايات، ووصف الدهر بأنه شغوف محبٌّ لهذا الأمر – منع الناس من تحقيق أحلامهم – .

فالدهر متلون متبدل لا يبقى على حال، فكما يغير حال الناس من النعيم إلى البؤس، فإنه قد يغير أحوالهم من البؤس إلى النعيم[4]: (البحر الرمل)

ولـــــئن ســـــاءك يـــــوم فـــــاعلمي أن ســـــــــيتلوه ســـــــــرور بغـــــــــدٍ

1- ابن زيدون، الديوان ، ص 297.

2- نفسه ، ص277.

3- نفسه، ص297.

4- نفسه، ص297.

يخاطب محبوبته ولادة ويطمئنها أن اليوم وإن قد أساء إليك فإنَّ هذا اليوم غير ثابت، فهو يقلب الأحوال بين الإساءة والإحسان، فلا بدَّ أن يعقبه يوم يجلو الإساءة، وتنعمين بالسعادة والسرور، فالزمان يميل وهو غير ثابت، ويطلب من محبوبته أن تبقى ثابته على العهد كما هو ثابت على عهده وحبه لها، وأن لا تتحول وتتغير كما يتغير الزمان[1]: (البحر الوافر)

عـــــذيري مـــــن خليـــــل يســـــتطيل يميـــــل مـــــع الزمـــــان كمـــــا يميـــــل

ويرضـــــى أن تضـــــيع ســـــدى حقـــــوقي وبـــــاعي فـــــي الهـــــوى بـــــاعٌ طويـــــل

كتـــــابي عـــــن ودادك لا يـــــزول وعهـــــدي مثـــــل عهـــــدك لا يحـــــول

فتقلب الدهر وتحوله وعدم ثباته على حالة، فمنعه لشيء ما لا يبقى على حال، فلا بدَّ أن يسمح بالعطاء بعد ذلك[2]: (مجزوء الوافر)

ألـــــم تعلـــــم بـــــأنّ الـــــدهر يعطـــــي بعـــــدما يمنـــــع

وشأن الدهر في التحول والتغيّر، فهو كما يمنح العزة لناس يأتي على أخرين بالذل[3]: (مجزوء الرمل)

وكـــــذا الـــــدهر إذا مـــــا عـــــزّ نـــــاس ذلَّ نـــــاس

فابن زيدون يقرُّ بأفعال الدهر التي جارت عليه، وبدلت أحواله، وبهذا الأمر يعطي نفسه أملاً إلى أنَّ الأمور ستتغير وتتبدل إلى الأحسن، بحكم أنَّ الدَّهر متغيير متلون، له جانبان من

1- ابن زيدون، الديوان، ص151.

2- نفسه، ص278.

3- نفسه، ص274.

التبديل، فإن نال الشاعر جانب القسوة، فلا بدَّ أن يأتي عليه يوم ويرأف الدهر بحاله، فإن أصابته مصيبة من الدهر سيعقبها إحسان، فالدهر دوار لا يثبت على حال، وابن زيدون يأمل من الدهر ويتوسل إليه بأن يسمح عنه، وهو في سجنه، لعله يخرج من هذا السجن[1]: (مجزوء الرمل)

وعســـــــى أن يســـــــمح الـــــــدهر فقـــــــــد طـــــــــال الشـــــــــماس

3. الدهر المفرق

وجدنا أنَّ الدهر متبدل متغيّر، يبدل الأحوال من حالٍ إلى حال، ولا يبقي على شيءٍ إلا ويحوله، ولاحظنا أن ابن زيدون بيّن أن للدهر المبدل حالات: فهو يبدل الحسن إلى القبيح، ويبدل القبيح إلى الحسن، وأنه غير منصف، ويقضي على طموح الطامحين، ويحول بينهم وبين الوصول إلى أمانيهم، وكذلك الدهر فهو مفرق، يفرق الأحبَّة، ويحمل ابن زيدون الدهر السبب في ذلك، وفي كثير من المحن التي توالت عليه، فقد جار الدهر عليه، وحال بينه وبين محبوبته ولادّة، وحال بينه وبين أيام الوصال، فأصبح ابن زيدون يتذكر الماضي بما فيه من سعادة ويحنو إليه، ويتذمر من الحاضر الذي فيه فراق، ويستشرف المستقبل أملاً بعودة تلك الأيام الجميلة التي قضاها بوصال المحبوبة له، من ذلك قوله[2]: (البحر الرجز)

عليـــــل دهـــــرٍ ســـــامني تعـــــذيبا أدنـــــى الضـــــنَّى إذ أبعـــــد الطيبـــــا

1- ابن زيدون، الديوان، ص277.

2- نفسه، ص154.

فالدهر ينزل بابن زيدون أقسى أنواع العذاب، وهو الفراق والبعد عن الأحبة، فينسب إلى الدهر أنهّ المتسبب في بعده عن وطنه وتغربه، فقد أنزل الدهر بالشاعر كل أنواع العذاب، وأبعد عنه النعيم، فحال بينه وبين وطنه، وما يتنعم به من نعيم وطيب، ومن ذلك قوله[1]: (البحر البسيط)

إن كـــان عـــادكم عيـــدٌ فـــربّ فتـــى بالشـــوق قـــد عـــاده مـــن ذكـــركم حـــزن

وأفردتـــــه الليـــــالي مـــــن أحبتـــــه فبـــات ينشـــدها _ ممـــا جنـــى الـــزمن_

" بـــم التعلـــل لا أهـــل! ولا وطـــن! ولا نـــــديم! ولا كـــــأس! ولا ســـــكن!"

فالشاعر يحمل الليالي (وهي قوة فاعلة) بعده عن وطنه وأهله عندما عاد عليه العيد، وهو بعيدٌ عن وطنه نازح عنه، غائب عن أهله، ورأى أنه غريب وكل أنس إلى أهله، وهو لا وطنه له ولا سكن، فالبعد عن الوطن من أقسى أنواع العذاب، فهو لا يقل قسوة في البعد عن الحبيبة التي تسبب الدهر ببعدها عنه، مما جعل أيامه سوداءَ مليئةً بالهموم والحزن، وقبل ذلك في وصاله بالحبيبة كانت الليالي بيضاءَ مشرقةً بوجود الحبيبة[2]: (البحر البسيط)

حالـــت لفقـــدكم أيامنـــا فأصـــبحت ســـوداً وكانـــــت بكـــــم بيضـــــاً لياليـنـــــا

فالأيام هي من حالت بين الشاعر وبين محبوبته، فقلبت حياته إلى جحيم، ولقد استخدم الطباق؛ ليظهر شدة وقسوة هذا التقلب، والتغيير الذي طرأ عليه، فالأيام أصبحت سوداء مليئة بالهموم والمتاعب، بعد فراق الحبيبة، على عكس الليالي التي كانت مشرقةً منيرةً مليئةً بالسعادة أيام الوصال.

1- ابن زيدون، الديوان، 163.

2- نفسه، ص143.

فقد طابق بين: الأيام – والليالي / وبين سوداً – وبيضاً، فالليالي رغم أنها مظلمة في طبيعتها قد أصبحت مشرقةً بوجود المحبوبة، والأيام رغم إشراقها في طبيعتها قد أصبحت مظلمةً سوداءَ بعد فراق المحبوبة.

ولكن هذا البعد لم يكن يتسبب به الشاعر أو محبوبته، إنما هو الدهر الذي فرق بينهم عنوه، فهو يلتمس عذراً لمحبوبته ربما لحبه الشديد لها، أو أملاً في عودتها له[1]: (البحر البسيط)

والله مـــا فـــارقوني باختيـــارهم وإنمـــا الـــدهر بـــالمكروه يرمينـــي

ومـــا تبـــدّلت حُبَّـــا غيـــر حـــبِّهم إذاً تبـــدّلت ديـــن الكفـــر مـــن دينـــي

أفـدي الحبيـب الـذي لـو كـان مقتـدراً لكـــان بـــالنفس والأهلـــين يفـــديني

يـــا رب قـــرّب علـــى خيـــرٍ تلاقينـــا بالطـــالع السّـــعد والطّيـــر الميـــامين

فالزمان هو القاضي الذي قضى بتشتيت الشمل، فتسبب ببعد الشاعر عن الوطن وعن الأحبّة، رغم أنهم سيبقون قريبين منه؛ لمكانتهم عند ابن زيدون، وقد بددَّ الزمان النعيم الذي نعم به، فالزمان قاضٍ ظالم لم يقضِ بالعدل، فبقضائه أوقع الظلم على ابن زيدون، وعلى الأحبة فتفرقوا[2]: (البحر الطويل)

شـــحطنا ومـــا للـــدّار نـــأيٌ ولا شـــحط وشـــط بمـــن نهـــوى المـــزار ومـــا شـــطّوا

أأحبابنـــا ألـــوت بحـــادث عهـــدنا حـــوادث لا عقـــد عليهـــا ولا شـــرط

لعمـــركم إن الزمـــان الـــذي قضـــى بشـــتّ جميـــع الشـــمل منـــا لمشـــطٌ

1- ابن زيدون، الديوان، ص235.

2- نفسه، ص285.

ابن زيدون لا يعلق آماله على دهر قد يئس منه، ولا يثق به، فالدهر هو من فرق بينه وبين أحبته، فهو يدعو للأيام التي كانت مقبلة عليه، فكان في هذه الأيام يلتقي بالحبيبة، وكان سعيداً، وهو يتمنى، ويأمل على الزمان أن يساعده في وصاله بمحبوبته، ويهدي إليه تفاريق المنى[1]:

(البحر البسيط)

سقيا لعهدك والأيام تقبلني وجه السرور به جذلان مقتبلا

إذِ الزمان بليغٌ في مساعدتي يهدي إليَّ تفاريق المنى جملا

إن كان لي أملٌ إلا رضاك فلا بُلّغتُ يا أملي من دهري الأملا

فهو يؤكد على أن اللقاء بين الأحبة مرهون بسماح الدهر، فهو يمنع عنه أثمن وأنفس شيء وصاله مع حبيبته، فحنق على الدهر، لأنّ الفراق صعب على ابن زيدون تسبب ببكائه، وتغيّر من مُسعدٍ له إلى مُحزنٍ، وغيرّ نظرته عن الزمان الذي قد سعد به، فأصبح ينظر إليه على أنه قبيح[2]:

(البحر البسيط)

أمّا رضاكِ فعلقٌ ماله ثمن لو كان سامحني في وصله الزمن

تبكي فراقك عينٌ أنتِ ناظرها قد لجّ في هجرها عن هجركِ الوسن

إن الزمان الذي عهدي به حسن قد حال مذ غاب عنّي وجهكِ الحسن

مسألة الفراق والقطيعة سببت لابن زيدون كثيراً من الحزن والأسى، رغم أن ابن زيدون حظي بأرقى المناصب، وجاءت له الدنيا مقبلة فيقول: لو أن الزمان جمعه بمحبوبته وحقق له أمنيته في

1- ابن زيدون، الديوان، ص179.

2- نفسه، ص180.

الوصال، لكان من أكرم الأيام وأنبلهم أخلاقاً، فهو بذلك يشبه الزمان بالإنسان الكريم صاحب الأخلاق الحميدة الذي يقوم بتقريب المسافات بين الناس وجمعهم[1]: (البحر البسيط)

لو كان وفّى المنى في جمعنا بكم لكان من أكرم الأيام أخلاقا

فالدهر هو من تسبب بالفراق والقطيعة، وإن تم اللقاء، وجمع الأحبة فيكون هذا عنوة عنه، واستجابة الأماني لرغبة اللقاء[2]: (مجزوء الرمل)

ربما باعدك الدهر فأدنتك الأماني

والدهر يفرق ويحول دون بلوغ الآمال، فهو لم يسهّل للشاعر رؤية المعتمد، عندما طالت غيبته، فالشاعر يقول: لو أن الدهر سهل لي بلوغ أملي، وهو لقاء المعتمد لقصدتك سارياً إليك كما يسري طيف الخيال، فيقطع المسافات_ وإن كانت بعيدة_ بطرفة عين[3]: (البحر الوافر)

هَدِيَّةَ مَن_ لو أنّ الدّهرَ سَنَّى مُنَاهُ_ هدى إليكَ سُرَى الخيالِ

فالدهر شتت شمل الشاعر، والشاعر يهيب بالطبيعة_ ناطقة أو صامته_ أن تشاركه في نكبته، وتهتم بما آل إليه[4]: (البحر الطويل)

ألم يأن أن يبكي الغمام على مثلي؟ ويطلب ثأري البرق منصلت النّصل؟

وهلّا أقامت أنجم الليل مأتماً لتندب في الآفاق ما ضاع من تتلي

1- ابن زيدون، الديوان، ص140.

2- نفسه، ص596.

3- نفسه، ص511.

4- نفسه، ص261-262.

ولــو أنصــفتني_ وهــي أشــكال همتــي_ لألقــت بأيــدي الــذّلّ لمــا رأت ذُلّــي

ولا افترقــت ســبع الثريــا وغاضــها بمطلعهــا مــا فــرّق الــدهر مــن شــملي

قسوة الدهر وما حلَّ بابن زيدون من ألم الفراق، دعته أن يستعطف الطبيعة، ويدعوها أن تشاركه، فالغمام آن له أن يندب، والبرق أن يستل سيفه مطالباً بالثأر، وشبه نفسه بالنجوم في العلو والسمو، ولكن رغم أنهما مشتركان في هذه الصفة إلا أن النجوم لم تنصفه، فمصابه كبير حتى النجوم لو أنصفته وأبصرت حاله؛ لهوت من عليائها ذليلةً، وتفرق ائتلافها، ونقصت بعد تمامها، فالفراق مؤلم مفجع، فقد فرّق شمل الشاعر، فالشاعر يؤمل نفسه؛ ليخفف عنه شدة الفراق، وإن عزّ اللقاء في الدنيا، ففي يوم الحشر يأمل بلقاء الحبيبة، فالأسى والحزن سيطرا على الشاعر؛ فأرقاه وأصبح الصبر شيئاً يتلقنه تلقيناً من كثر المآسي التي تعرض لها الشاعر بعد أن كان سعيداً بلقاء الحبيبة[1]: (البحر البسيط)

إن كــان قــد عــزّ فــي الــدنيا اللقــاء ففــي مواقــــف الحشــــر نلقــــاكم ويكفينــــا

كأنّنــــا لــــم نبــــت والوصــــل ثالثنــــا والسّــعد قــد غــصّ مــن أجفــان واشــينا

سِــرَّانِ فــي خــاطر الظلمــاء يكتمنــا حتــى يكــاد لســان الصــبح يفشــينا

إنّــا قرأنــا الأســى يــوم النــوى ســوراً مكتوبــــة وأخــــذنا الصــــبر تلقينــــا

1- ابن زيدون، الديوان، ص146.

فالبين والفراق على الأحبة صعب؛ لهذا وجدنا ابن زيدون يحمل الدهر المسؤولية، ويتذمر منه ويشكوه، فنراه يقسم أن العشاق لو أقسموا يوم النوى أنهم موتى ما حنثوا في قسمهم، وهذا من شدة النوى، وقسوته على المحب[1]: (البحر البسيط)

تـــالله لـــو حلـــف العشـــاق: أنهـــم مـوتى مـن الوجـد_ يـوم البـين_ مـا حنثـوا

قـوم_ إذا هجـروا مـن بعـد مـا وصـلوا_ مـــاتوا، فـــإن عـــاد مـــن يهوونـــه بُعِثُـــوا

4. الدهر الخائن:

مرَّ ابن زيدون في حياته بين النعيم والبؤس، نعيم بوصال محبوبته له، وما حظي به من منصب وغيره، وبؤس في فراق وطنه، وحبيبته، وعزله عن السلطة، وسجنه، وفي كلتا الحالتين كان للدهر نصيب وافر في شعره: فرح، وشكوى، وتذمر، فوصف الدهر بصفات مشينة، كوصفه الدهر بالخائن ناقض العهد، سواء نقض العهد معه أو مع غيره، من ذلك قوله في وصف الدهر بالخؤون[2]: (البحر الخفيف)

مـــن عـــذيري مـــن ريـــب دهـــرٍ خئـــون؟ _كـــــل يـــــوم_ أراع منـــــه بغـــــدر

كلمـــا قلت:"حـــاك فيـــه ملامـــي" نهســـتني منـــه عقـــارب تســـري

وترتنـــي خطوبـــه فـــي صـــفيٍّ فاضـــلٍ نابـــهٍ_ مـــن الـــدهر_ وتـــرِ

1- ابن زيدون، الديوان، ص176.

2- نفسه، ص230.

يشبه الدهر بغدره بالعقارب التي لدغته غدراً، فالدهر لا مثيل له في الظلم، فقد ظلم ابن زيدون، ورماه بالمصائب التي لم يعتد عليها، فهو كل يوم يغدر به، فهل من أحد يقبل عذره، ويعذره على ما أصابه من أحداث الدهر.

لقد سعد ابن زيدون بالزمان الماضي الذي أنعم عليه، ولكن هذا الزمان تنكر له، وانقلب عليه وأدبر عنه، وجار عليه في أحكامه، فابن زيدون بهذا الوقت اعتاد على الدهر بأن يكون في صفه منعماً عليه، ولكنه غدر به فأساء إليه[1]: (البحر المتقارب)

أمـــا وزمـــانٍ مضـــى عهـــدُه حميـــداً، لقـــد جـــار لمّـــا حكـــم

قضـــى بالصّـــبابة ثـــم انقضـــى ومـــا اتّصـــل الأنـــس حتّـــى انصـــرم

ليـــالي نامـــت عيـــون الوشـــا ة عنـــا، وعـــين الرّضـــى لـــم تـــنم

ومالـــت علينـــا غصـــون الهـــوى فأجنـــت ثمـــار المنـــى مـــن أمـــم

وأيامنـــا مـــذهبات البـــرود رقـــاق الحواشـــي صـــوافي الأدم

بدأ حديثه عن الزمان الماضي بأنه حميد كالإنسان الذي يظهر ودهُ، وحبه في بادئ الأمر، فيعتاد عليه بهذا الأمر، ويؤمن جانبه، ولكنه سرعان ما ينقلب، ويتغير ويغدر، فاعتاد على هذا الزمان بالإقبال؛ ليوضّح أنه زمان جائر غدار، تكلم عن النعيم وكيف تحول وزال؛ ليوضّح غدر الدهر، فالزمان أسعده بالحب، وليالي الأنس التي مالت عليه، فمنحته أطيب الجنى وأعذب الثمار، وأيام الوصال كانت سعيدةً ناعمةً مذهبةً رقيقةَ الحاشية رائقةَ الصفحات، لكنها لم تدم، فقد تنكر له الزمان بعد عرفان، وكان يسعده بالوصال حتى باغته بالفراق، وأعطاه الحب والسعادة ولكنهما

1- ابن زيدون، الديوان، ص408-409.

انقضيا سريعاً، فهذي الأيام التي سعد بها في الماضي_ يبين ابن زيدون_ أنها كانت نتيجة غفلة الزمان عنه، ولكنه حمّل محبوبته مسؤولية تنكرها لهذه الأيام، وعدم حفاظها على العهد، في حين أنه بقي محافظاً، ولم يغدر[1]: (البحر الكامل)

هـــل غيـــر أن محـــض الوفـــاء لغـــادر؟ أو غيـــر أن صـــدق الوصـــال لقـــاطع؟

لـــم يهـــوَ مـــن لـــم يمـــس قـــرّة عينـــه ســـهر الصـــبابة فـــي خلـــيٍّ هـــاجع

واهـــاً لأيّـــام خلـــت!! مـــا عهـــدها _فـــي حـــين ضـــيعت العهـــود_ بضـــائع

زمـــن كمـــا راق السّـــقيط مـــن النّـــدى يســـتنُّ فـــي صـــفحات وردٍ يـــانع

أيـــام إن عتـــب الحبيـــب لهفـــوةٍ شـــفع الشـــباب فكـــان أكـــرم شـــافع

مـــالي وللـــدنيا؟ غُـــررِتُ مـــن المنـــى فيهـــا ببارقـــة السّـــراب الخـــادع

مـــا إن أزال أروم شـــهدة عاســـلٍ أحمـــي مجاجتهـــا بـــإبرةِ لاســـع

مـــن مبلـــغ عنّـــي الـــبلاد_ إذا نبـــت_ أن لســـت للـــنّفس الألـــوف بببـــاخع

أمّـــا الهـــوان فصـــنت عنـــه صـــفحةً أغشـــى بهـــا حـــد الزمـــان الشـــارع

فليـــرغم الحـــظّ المـــولّي أنّـــه ولّـــى فلـــم أتبعـــه خطـــوة تـــابع

إن الغنـــى لهـــو القناعـــة، لا الـــذي يشـــتفُّ نطفـــة مـــاء وجـــه القـــانع

يعبر ابن زيدون في الأبيات السابقة عن وفائه، ومنحه الود والحب لحبيبته التي غدرت وهجرته، فلم ينل من هذا الحبيب إلا القطيعة والألم، ثم يعود ليبين أن الزمان له يد في هذا العذاب، والقطيعة التي لحقت به، فذكر الأيام التي غفل الزمان عنه كيف سعد بها، وحظي بوصال حبيبته،

1- ابن زيدون، الديوان، ص400-402.

فيذكرّ الحبيبة بتلك الأيام، ولكنها أنكرتها، وأن ذكريات هذه الأيام السعيدة ما زالت في خياله لا تفارقه، ولا ينساها، فالماضي يمثل له السعادة حين غفل عنه الدهر، فيظل دائماً يعود إلى الماضي؛ ليسرّي عن نفسه التي أثقلها الحزن والألم، فيذكر من الأيام ما طاب له من العيش السعيد، ولكن هذه الأيام انطوت، وانطوى معها كلّ شيء جميل، فلم يبقَ منها إلا الذكريات، وحل به الزمان الخادع الذي غشه وانقلب عليه، وخدعه بالأماني الكاذبة التي شبهها بالسراب الخادع، الذي سرعان ما ينكشف وتظهر الحقيقة.

وفي عودته إلى الماضي تذكيراً للحبيبة به؛ ليحنن قلبها لعلها تعود إليه ثانيةً، لكنه لا يجني من هذه الذكريات إلا المرارة والألم، كالذي يطلب العسل فلا ينال منه إلا لسعة الإبر، وكما يشير إلى أنَّ أهل الوطن تنكروا له، فهو لن يهلك نفسه حزناً عليهم، فهو يحافظ على كرامته ويأبى إلا أن يكون صاحب عزة، فالحظ وإن انصرف عنه، فلن يتضرع له، ولن يتبع خطواته، فهو يصون كرامته ولا يفرط بها، وما هذا الأمر إلا ليصبر نفسه، ويقويها على كل ما حلَّ بها من مصائب، وغدرات الدهر، وفي مدحه لابن جهور الذي أسبغ عليه العطايا وسخا له بالعطاء دون طلب، وقد ساعده في بلوغ الآمال التي سعى لها، فيدعو للممدوح أن ينجيه الله من غدرات الزمان، فابن زيدون خبير يعرف تقلبات الزمان وغدراته، لأنّه نال منه ما نال[1]: (البحر الرمل)

أقبلـــــت نعمـــــاك تهـــــدي نفســـــها لـــــم أرغ حظّـــــي منهـــــا بالحيـــــل

فقلبـــــت اليـــــد مـــــن بطـــــن يـــــدٍ ظهرهـــــا_ الـــــدهر_ محـــــلٌ للقبـــــل

كلنـــــا بُلّـــــغَ مـــــا أملّـــــه فـــــابلغ الغايـــــة مـــــن كـــــل أمـــــل

1- ابن زيدون، ديوان، ص 343.

وإذا مـــــا رامـــــك الـــــدهر ففـــــت وإذا رمـــــــــت الأمـــــــــاني فنـــــــل

فالدهر من شيمه الإساءة، وعدم حفظ العهود، فقد ضيع العهد، وغدر بابن زيدون، و الآخرون لم يسلموا من غدراته، وفي ذلك يقول[1]: (البحر الطويل)

لـــئن ســـاءك الـــدهر المســـيء فلـــم يكـــن بـــأوّل عهـــد واجـــب الحفـــظ ضـــيّعا

فالممدوح لم يسلم من غدرات الدهر، والأصل فيه أن يرعى العهد ويحافظ عليه، ويؤكد غدر الدهر مع الممدوح في موقف آخر[2]: (البحر الطويل)

أعبـــاد يـــا أوفـــى الملـــوك، لقـــد عـــدا عليـــك زمـــان مـــن ســـجيته الغـــدر

في هذا الموقف نراه يقر بوفاء الآخرين؛ ليبين غدر الزمان، ويجعل صفة الغدر هي من طبائع هذا الزمان. غدر الزمان لم يقتصر على ابن زيدون، بل أصاب الملوك، وحلّ عليهم بالمصائب، فهو يقرّ بفاعلية الدهر، وأنه المتسبب في كل ما حصل له، وإن أمن جانبه، ونال السعادة منه، في بعض الأحيان، لأنَّه كان غافلاً عنه، وأنَّه لو لم يكن غافلاً لما سعد بشيء، ولعكر صفوه ونكد عيشه[3]: (البحر الطويل)

هـــو الـــدهر مهمـــا أحســـن الفعـــل مـــرةً فعـــن خطـــأ، لكـــن إســـاءته عمـــد

1- ابن زيدون، الديوان، ص554.

2- نفسه، ص564.

3- نفسه، ص356.

وهو يدعو أن لا تغتر بجانب من جوانب الدهر وإن أحسن، فكل جانب من جوانبه مصدر للأذى والشرور[1]: (البحر الطويل)

حـــــذارك أن تغتـــــر منـــــه بجانـــــب ففـــــي كـــــل وادٍ مـــــن نوائبـــــه "ســـــعد"[2]

5. الدهر المفسد:

كما نال الدهر من ابن زيدون، وجرعه المصائب والآلآم، فقد أنعم عليه، تابع ابن زيدون الشعراء السابقين في هذا الأمر، وحمله المسؤولية في كل ما حدث، فالدهر أفسد عليه حبه مع ولادة، وتسبب بالقطيعة بينهما، كما تسبب بسجنه وتغربه عن وطنه، وتأليب قلوب الحكام عليه، وعزله من المنصب، فحمّل الدهر جزءاً من المسؤولية، والجزء الأخر حمّله للواشين الذين أوغروا قلب الحاكم عليه، فالإساءة التي صدرت من الدهر لم تكن عفوية، بل كانت عن قصد، ومكيدة وتدبير من الدهر، والإحسان الذي يأتي منه عارض غير مقصود، قد أخطأ به الدهر[3]: (البحر الطويل)

هـــو الـــدهر مهمـــا أحســـن الفعـــل مـــرةً فعـــــن خطـــــأ، لكـــــن إســـــاءته عمـــــدا

فاستخدم الطباق؛ ليوصل فكرة تسبب الدهر بالإفساد، فالدهر أحسن مرة عن خطأ من غير قصد، ولكن إساءاته تأتي قصداً.

1- ابن زيدون، الديوان، ص356.

2- سعد: في كل واد سعد بن زيد، مثل يضرب في أنّ الشر منتشر في كل مكان

3- ابن زيدون، الديوان، ص 356.

وفي موقف آخر يشبه الدهر بالإنسان المذنب الذي يعترف بأفعاله المشينة، فالدهر يعترف بأنه لم يقدم السرور للناس ولو لساعة، لولا الممدوح حيناً، ولولا غفلة الدهر حيناً أخرى[1]: (البحر الكامل)

فالـــدهر معتـــرف بـــأنّ لـــم نكـــن لنسّـــــرَّ منـــــه- بســـــاعةٍ – لولاكـــــا

ونجد ابن زيدون يستعين على الدهر بملك الأقدار حتى ينصفه، ويحميه من جور الدهر، وما يتسبب به من مفاسد[2]: (البحر الطويل)

ولله فينـــــا علـــــم غيـــــبٍ، وحســـــبنا بـــه -عنـــد جـــور الـــدَّهر- مـــن حكـــمٍ عـــدلِ

لا أحد يسلم من أحداث الدهر حتى العظماء، وإن المصائب التي يحدثها مصائب عظيمة[3]: (البحر الخفيف)

مـــا تـــرى البـــدر- إن تأملـــت- والشمـــ ـــــس همـــــا يكســـــفان دون النجـــــوم

وهـــو الـــدهر لـــيس ينفـــك ينحـــو بالمصـــــاب العظـــــيم نحـــــو العظـــــيم

ويضرب مثالاً على أنَّ الأحداث- أحداث الدهر العظيمة – لا تصيب إلا العظماء، فظاهرة الكسوف والخسوف لا تصيب النجوم إنما تصيب الشمس والقمر.

1- ابن زيدون، الديوان، ص445.

2- نفسه، ص264.

3- نفسه، ص280.

والدهر ليس متسبباً بالأحداث المشينة وحسب، إنما يساعد الواشين، ويقف معهم في إفساد علاقة الشاعر بمحبوبته، ويؤمن على دعاء الواشين[1]: (البحر البسيط)

غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغصّ فقال الدهر آمينا

فابن زيدون في هذا البيت يبين صفاء ونقاء الحب بينه وبين ولادة، فكأنما أحدهما يسقي الأخر بسهولة، ولكن السقيا تحولت إلى غصة، لأنَّ عيون الوشاة حاقدة على صفاء علاقتهم، فحولت هذا الصفاء إلى غصة، وساعدهم الدهر في هذا، فنتجت القطيعة والفراق بينهما[2]: (البحر البسيط)

فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا وانبت ما كان موصولاً بأيدينا

فكأن الدهر لا يحب إلا العبث، وإفساد علاقة المتحابين، ويرغب في تشتيت شملهم.

والدهر يحول بين النابهين وبين تحقيق غاياتهم التي يصبون إليها، فهو مولع شغوف بهذا الأمر[3]: (البحر البسيط)

أهل النباهة أمثالي لدهرهم بقصرهم دون غايات المنى ولع

فالدهر ليس عادلاً، لا يحكم بعدل بين الناس، يرفع من مكانة أناس ويعزهم، ويرمي بآخرين، ويحط من شانهم، فيذلهم ويجور عليهم[4]: (مجزوء الرمل)

1- ابن زيدون، الديوان، ص142.

2- نفسه.ص142

3- نفسه، ص297.

4- نفسه، ص142

وكـــــــذا الـــــــدهر، إذا مـــــــا عـــــــزّ نـــــــاس ذلَّ نـــــــاس

ويصفه بالبخل في كثير من المواطن، وصفة البخل صفة عامة فهو بخيل في كل شيء ولا يجود، فإن جاد فذاك من العجب[1]: (مجزوء الكامل)

يـــــا مـــــن عجبنـــــا أن يجـــــو د بمثلـــــه الـــــزمن البخيـــــل

ويتحدى الزمان بأن يأتي بمشابه أو نظير لممدوحه- أبي الحزم بن جهور- ويصف الزمان بالبخل[2]: (البحر الوافر)

"أبـــا الحـــزم" الزمـــان- بـــأن تثنـــى إذا عـــــدت فواضـــــلكم- بخيـــــل

وهو لا يبلي الطموح والرغبات، ولا يحقق الأمنيات، إنما هو شغوف بالتفريق بين العشاق، فابن زيدون يصور الزمان في بعض الأحيان أنه متجبر قاسٍ، مكارهه كثيرة أصابته وأصابت حبيبته، وهو لا يستطيع ردّها، ويأبى الدهر أن يلبي طلباته، وفي ذلك يقول[3]: (البحر الوافر)

ولـــو أن الزمـــان أطـــاع حكمـــي فـــديتك- مـــن مكارهـــه- بنفســـي

فالزمان لا يجري على الحال التي يريدها ابن زيدون بل يعانده، ولا يلبي طلبه، ورغم ذلك كله نجد ابن زيدون منصفاً في حكمه على الدهر، فبرغم إقراره بفساد الدهر وإفساده، لكنه يذكر أن للدهر جانباً إيجابياً، فهو يجرح ويداوي، وليس هذا الأمر إلا لضعف ابن زيدون أمام قسوة الدهر،

1- ابن زيدون، الديوان، ص297.

2- نفسه، ص333.

3- نفسه، ص175.

وحالته النفسية المتشتته بين الماضي بكل ما يحمله من سعادة، وحاضره المليء بالمآسي بعد فراقه لمن أحب، وكذلك ليسري عن نفسه لعل الأمر يتغير، ويتغير معه الدهر، فيعود كما كان.

وعبر عن هذا الأمر في قصائد الرثاء، وغيرها من المواقف، مثال ذلك قوله[1]: (مجزوء الرمل)

سـرك الـدهر وسـاء فـاقنِ شـكراً وعـزاء

فالدهر هو الصانع للسرور والإساءة، والمسؤول عن كل ما يحدث، فكما أساء بموت ابنة المعتضد، فقد أحسن إلى المعتضد في موقف آخر، وما لاحظناه أنه يحمل الدهر السبب في الإفساد، وتعكير صفوه في مواقف كثيرة، وبالمقابل هناك أمثلة يورد فيها أن الدهر يقدم الإحسان والإساءة في نفس الموقف، كما أنّه يورد أمثلة يتحدث فيها عن إحسان الدهر في مواقف كثيرة تبعاً لحالته النفسية والواقع المعاش، وسيتناولها البحث في الوجه الحسن للدهر.

1. صروف الدهر:

وردت في معاجم اللغة "صرف" في لسان العرب، وجمعت على صروف وصَرْفُ الدّهر: تصاريفه، نوائبه ومصائبه وحدثانه، وصروف الدهر نوائبه وشدائده، فهو يَصْرِف الأشياء عن وجوهها[2].

1- ابن زيدون، الديوان، ص559.

2- ابن منظور، لسان العرب، صرف.

فقد أكثر الشعراء الحديث عن الدهر وصروفه، فكانت نظرة الشعراء إليه نظرةً سلبيةً، فجعل من سماته الإهلاك لهم، والإفساد لجميع شؤون حياتهم، وفي هذا يقول عنترة[1]: (البحر الطويل)

دهتنـــي صـــروف الـــدهر وانتشـــب الغـــدر ومـــن ذا الـــذي فـــي النـــاس يصـــفو لـــه الـــدهر

وكـــــم طرقتنـــــي نكبـــــةٌ بعـــــد نكبـــــة ففرجتهـــــا عنّـــــي ومـــــا مســـــني ضـــــرُّ

فصروف الدهر تحمل دلالة في شعر عنترة أنّه لا يستطيع أحد أن ينجو منها، فهي مدركة الجميع، فالدهر هو المحدث للمصائب والنكبات، ويشير عنترة إلى أنه تعرض للكثير منها، ولكنه استطاع تحديها وتجاوزها، والدهر لا يصفو لأحد، فالكل معرض أن تناله صروف الدهر، فعنترة واجهها، وتصدى لها ولم تمسه بضرّ، فهي تحتاج إلى رجل شديد قوي ليصدها، ويتحملها حتى لا تمسه بأذى، فابن زيدون جعل الممدوح هو الذي يبعدها عنهم، فلا يصيبهم ضرّ منها، لوجوده بينهم[2]: (البحر البسيط)

كـم اشـترى- بكـرى عينيـه- مـن سـهرٍ، هـــدوء عـــين الهـــدى فـــي ذلـــك السَّـــهر

فـي حضـرةٍ غـاب صـرف الـدهر- خشـيته- عنهـــا، ونـــام القطـــا فيهـــا فلـــم يئـــر

فالممدوح سهر لينام قومه، وتعب ليرتاحوا، فلم تمسهم صروف الدهر، وحتى القطا نامت مطمئنة في حمايته، ولم تغيّر مكانها، وفي موقف آخر يجعل الممدوح متمرساً خبيراً برد بأس الدهر وصروفه عن قومه إن اشتدت[3]: (البحر الكامل)

1- عنترة بن شداد، ديوان، دار صادر، بيروت، 1992، ص155.

2- ابن زيدون، الديوان، ص256-257.

3- نفسه، ص327.

متمـــــرس بالـــــدَّهر، يقعـــــد صـــــرفه إن قـــام فـــي نـــادي الخطـــوب خطيبـــا

وفي موقف آخر يجعل من الممدوح إنساناً ذا قوة خارقة لا تستطيع صروف الدهر أن تنال منه، فهو الذي ألان قياد الدهر وكبح جماحه، وهزز عطفية للسماح[1]: (البحر الطويل)

فلـــولاك لـــم يســـمح مـــن الـــدهر جانـــب ولا اهتـــــزَّ أعطافـــــاً، ولا لان أخـــــدعا

لهذا لا يستحق الممدوح أن يرميه الدهر بنكباته، فيصيب قلبه الكريم، لأنَّ ذلك أمر موجع، وفي ذلك يقول[2]: (البحر الطويل)

ومـــا كنـــت أهـــلاً أن يصـــيبك حـــادثٌ فتصـــبح عنـــه مقصـــد القلـــب موجعـــا

فيدعو للممدوح أن لا تصيبه صروف الدهر، وأن يبقى آمناً منها، وأن يديم قصري الأمير بقربه، فهو الذي يدفع عنهم صروف الدهر[3]: (البحر الطويل)

فـــداما معـــاً فـــي خيـــر دهـــرٍ، صـــروفه حـــــرام عليهـــــا أن يطورهمـــــا هجـــــر

الممدوح من يحميهم من صروف الدهر، ومن جانب أخر تحدثنا عن المصائب التي أحلها الدهر بابن زيدون، وكيف جعل الدهر المتسبب بالموت، والقطيعة، والتقلب، والإفساد والمكر، فهذه كلها من صروف الدهر التي حدثت لابن زيدون.

1- ابن زيدون، الديوان، ص556.

2- نفسه، ص556.

3- نفسه، ص573.

فصروف الدهر تسعى إلى تغيير أحوال الناس، فقد لاحظنا كيف عبث الدهر بحياة ابن زيدون، فقلب حياته من النعيم إلى البؤس[1]: (البحر البسيط)

حالـــــت لفقـــــدكم أيامنـــــا، فغـــــدت ســـــوداً، وكانـــــت بكـــــم بيضـــــاً لياليـنـــــا

كما أن المصائب وصروف الدهر لا تخطئه، فقد وصفها بالقوّاس الماهر الذي لا تخطئ سهامه الشاعر، فحلت به المصائب التي كان يواسي نفسه بالأماني التي يأملها ويتمناها نهاراً، ولكنها أماني كواذب، وأصبح يقاسي الليل الطويل المليء بالهموم[2]: (البحر الطويل)

رمتنـــــــــي الليـــــــــالي عـــــن قســـــي النوائـــــب

فمـــــــــا أخطـــــــــأتني مرســـــــــلات المصـــــــــائب

أقضـــــــــي نهـــــــــاري بالأمـــــــــاني الكـــــــــواذب

وآوي إلـــــى ليـــــلٍ بطـــــيء الكواكـــــب وأبطـــــأ ســـــار كوكـــــب بـــــات يكـــــلأ

2. نوائب الدهر وريبه:

النوائب في اللغة: جمع نائبة، وهي ما ينوب الإنسان، أي ينزل به من المهمات والحوادث، والنائبة: المصيبة، واحدةُ نوائب الدهر، والنائبة النازلة، وهي النوائب والنوّب[3].

كثر ذكر النوائب – نوائب الدهر – في الشعر العربي، ودلّ على ما يرمي به الدهر من مصائب، وأدرك ابن زيدون أن نوائب الدهر لا يؤمن جوانبها، وقد حذر من ذلك، ودعا أن لا يغتر

1- ابن زيدون، الديوان، ص143.

2- نفسه، ص132.

3- ابن منظور، لسان العرب، نوب.

بجانب من جوانبه، فرأى أن كل جانب من جوانبه مصدرٌ للأذى والشرور، وفي ذلك يقول[1]: (البحر الطويل)

حـــــذارك أن تغتـــــرّ منـــــه بجانـــــب ففـــــي كـــــل وادٍ مـــــن نوائبـــــه "ســـــعد"

فابن زيدون لم يسلم من نوائب الدهر التي حلت به، فقد رسم صورة تعبر عن هذا المعنى، فالنوائب تقذف إليه من الأقواس التي يرمي بها رامٍ ماهر، لا يخطئ في رميه، فلا يستطيع النجاة من هذه المصائب التي أصابته، وهو يتمنى زوالها، وقصر الليل عليه، ولكن لا جدوى فالأمنيات كاذبة.

وهذه المصائب التي حلت به ظلمته وأصابته، فما أخطأته لأنها من دهر وتر، لا مثيل له في إحداث هذهِ الأمور[2]: (البحر الخفيف)

وترتتـــــي خطوبـــــه فـــــي صـــــفيٍّ فاضـــــل نابـــــهٍ –مـــــن الـــــدهر– وتـــــر

فهو يحاول مواجهة هذه النوائب بالتحدي والصبر، فيصف نفسه بأنه لا يجزع لها ولا يفزع، ولا يكون خوّاراً، لكنّه يبقى مهلل الوجه رائع المنظر كأن شيئاً لم يكن، فهي لا تؤثر به[3]: (مجزوء الوافر)

وكـــــــائن رامـــــــتِ الأيـــــــا م ترويعـــــــي، فلـــــــم أرتـــــــع

إذا صـــــــابتنيَ الجلّـــــــى تجلّـــــــت عـــــــن فتـــــــىً أروع

علـــــى مـــــا فـــــات لا يأســـــى وممـــــا نـــــاب لا يجـــــزع

1- ابن زيدون، الديوان، ص356.

2- نفسه، ص232.

3- نفسه، ص579.

وابن زيدون يواجه نوائب الدهر بالممدوح، فهو الذي يرد بأس هذه النوائب عنه، وحتى إنّ النوائب لا تدبر له المكائد، فهو في حماية ابن جهور وجاره، فالنائبات لا تصيب جار ابن جهور[1]: (البحر الكامل)

مـــن لا تعـــدّى النائبـــات لجـــاره زحفـــاً، ولا تمشـــي الضَّـــراء دبيبـــاً

ويرى ممدوحه أنّه صلاحٌ لكل من تطحنه النوائب، أو تصدمه الكوارث أو تتجهم له الحياة، فيدعو للممدوح أن لا تصدمه الدنيا في مصابه، فهو الذي يرد بأس الدهر عن غيره، فكيف لا يصبر على هذه المصيبة في فقده لأمه[2]: (البحر الطويل)

فـــلا تهـــض الـــدُّنيا جناحـــك بعـــدما فمنـــك – لمـــن هاضـــت نوائبهـــا– جبـــر

أمّا عن ريب الدهر فلم ترد في الديوان إلا مرة مسندة إلى الدهر، وذلك في قوله[3]: (البحر الخفيف)

مـــن عـــذيري مـــن ريـــب دهـــرٍ خـــؤون؟ –كـــــل يـــــوم– أراع منـــــه بغـــــدر

يتساءل من يلتمس له العذر، ولا يلقي اللوم عليه، بل يجعل الملامة على هذا الدهر الخؤون المتقلب الذي يأتي كل يوم بمصيبة، فهو غدار لا يؤمن جانبه، فريب الدهر تعني: صروفه، وريب المنون، وحوادث الدهر[4].

1- ابن زيدون، الديوان، ص327.

2- نفسه، ص546.

3- نفسه، ص232.

4- ابن منظور، لسان العرب، ريب.

3. خطوب الدهر:

نجد في لسان العرب الخَطْبُ هو الشأن أو الأمر، صغر أو عظم، وقيل هو سَبَبُ الأمر[1]. فخطوب الدهر هي أحداثه صغيرة كانت أم كبيرة، فلم يسلم ابن زيدون من خطوب الدهر التي ظلمته وأصابته، وكانت سبباً في عدم تحقيق ما يصبو إليه، أو إبعاده عما حققه، واستخدم ابن زيدون الخطوب بمعنى الأمر الشديد العظيم، وذلك في معرض المدح؛ ليجعل من الممدوح رجلاً قويّاً يتحدى الأمور، ويبرز صفات الممدوح، فيجعله في مقابل الأمر الشديد العظيم، فهو من يؤمنه من الخطب الشديد الذي يخافه، وهو الذي يحقق له الآمال التي يرجوها ويرقبها[2]: (البحر الطويل)

لأمّنتني الخطب الذي أنّا خائف وبلغتني الحظَّ الذي أنا آمل

فالخطوب شكلت هاجساً لدى ابن زيدون جعلته يخاف منها، فهي كانت سبباً بالمصائب والنكبات التي حلت به، وحالت بينه وبين تحقيق آماله، فاتخذ من الممدوح درعاً يحميه، ويقيه من خطوب الدهر، فهو تحت حمايته –صاحب العزم– الذي يدفع عنه الخطوب، وتحت ظل كرمه العطوف السخي بعطائهِ، فهو دائم العبوس في وجه هذه الخطوب، وكثير الضحك في وجه الشاعر، فقد طابق بين عابس وضحّاك؛ ليبين شدته مع الدهر وعطفه معه[3]: (البحر الكامل)

هو في ضمان العزم يعبس وجهه للخطب والخلق النّدي الضّحّاك

1- ابن منظور، لسان العرب ، مادة خطب.

2- ابن زيدون، الديوان، ص398.

3- نفسه، ص350.

فهو في كفالة الممدوح في دفع الخطوب عنه، لأنه صاحب خبرة، ومتمرس محنك يردها[1]:

(البحر الكامل)

متمـــــرس بالـــــدهر، يقعـــــد صـــــرفه إن قـــام فـــي نـــادي الخطـــوب خطيبـــا

فاستعان بالممدوح وهو شخص خبير متمرس صاحب بأس قوي، لمواجهة هذا الأمر العظيم الشأن.

وكذلك إن تعرض الممدوح لهذه الخطوب واشتدت عليه، فإنه يقابلها بوجهٍ بسام مشرق، فجعل ابن زيدون للخطب وجهاً اربدَّ من شدته، ولكن صبر الممدوح وتحمله تجعله يحل هذه القسوة ويتجاوزها[2]:

فمـــا اربّـــد وجـــه الخطـــب إلا لقيتـــه بصـــفحة طلـــق الوجـــه أبلـــج أروعـــا

فالطباق بين وجه الخطب الذي اربَّد وهنا كناية عن شدة المصيبة، ووجه الممدوح المشرق البسام هنا وسيلة لمواجهة الدهر بالصبر والتحمل وقوة الممدوح، فكما أن ابتسامة وصبر الممدوح في وجه الخطب تبدده، فكذلك فإن آراءه الحكيمة تبدد الغموض وتوضح المشكلة وتكشفها، مثلما تتضح معاني الكتابة بتشكيل الحروف[3]: (البحر الطويل)

إذا أشـــكل الخطـــب الملـــمّ فإنـــه وآراءه كـــالخطّ يوضـــح بالشـــكل

1- ابن زيدون، الديوان، ص327.

2- نفسه، ص556.

3- نفسه، ص265.

وكذلك يقتبس من رأي الممدوح عندما تدلهم الخطوب[1]: (مجزوء الرمل)

مـــــن ســـــنا رأيـــــك لـــــي فـــــي غســـــــق الخطـــــــب اقتبـــــــاس

فالخطوب تفتك بالإنسان ولا نجاه منها إلا بالصبر، حتى إن الأنبياء أصابتهم تلك الخطوب، فالموت خطب من الخطوب التي تحل بالناس، وهذا الخطب ليس له دواء، فإذا حلَّ بالمرء فلا يملك أمامه إلا الصبر، والعزاء فيه أنه خطب غال الأنبياء، ولم يسلموا منه[2]: (مجزوء الرمل)

أنـــــــــــت طـــــــــــبٌّ أنّ داء المـــــــوت قـــــــد أعيـــــــا الـــــــدّواء

فتـــــــــــــــــــــــــأسَّ إنَّ ذاك الخطـــــــــب غـــــــــال الأنبيـــــــــاء

فالممدوح قادر على حل أعظم المشكلات في لمحة خاطفة من ذهنه الوقاد، ورؤيته الحاذقة، ورأيه يبدد ظلمات الخطوب[3]: (البحر الطويل)

رويّتـــــه فـــــي الحـــــادث الإدّ لحظـــــة وتوقيعـــه الجـــالي دجـــى الخطـــب أحـــرف

يـــــذلُّ لـــــه الجبـــــار خيفـــــة بأســـــه ويعنـــــو إليـــــه الإبلـــــج المتغطـــــرف

فالخطب مظلم لشدته، والخطوب كما بدا لنا فيما سبق تدلُّ على الأمر الشديد، والممدوح أهلٌ لأن يقف بوجه هذه الخطوب، فيدعوه أن لا يتردد في مواجهتها، فإنه شهم وأمضى عزماً في مثل هذه المواقف، وفي ذلك يقول[4] : (البحر الكامل)

1- ابن زيدون، الديوان، ص275.

2- نفسه، ص560.

3- نفسه، ص487.

4- نفسه، ص309

فعـــلام تتكـــل عـــن صـــنيعٍ مثلـــه ولأنـــت أمضـــى فـــي الخطـــوب وأشـــهم

فيدعو للمدوح أن يبقى سنداً لـه فـي مواجهـة الأعداء، وأن يـرميهم بنكبـات لا يستطيعون النهوض منها، فهو يواجـه الأعداء بالممدوح كذلك يواجـه بـه الخطوب، فالممدوح سيواجه الأعداء ويرميهم، فيجعل الممدوح يمتلك الخطوب[1]: (البحر الكامل)

وعـــدت علـــى الأعـــداء منـــك رزيّـــة لا يســـتقل بهـــا، وخطـــب صـــيلم

فيدعو له أن يوقى شر الحوادث الكريهة، فهو لا يستحق أن يرميه الدهر بخطوبه، وذلك في قوله[2]: (البحر الكامل)

ووقيـــت مكـــروه الحـــوادث واغتـــدت طيـــر الســـعود بـــأيككم تتـــرنم

ويجعل أجداد الأمير هم من تغلبوا على هذه الخطوب، ودفعوها حتى زالت، فلا عجب أن يحظى الممدوح بهذا القدر من المدح عند ابن زيدون، فأجداده من ساعدوا في إقامة الملك، ودفع الخطوب، فدفع الخطوب والشدة هي مسألة وراثية عند الممدوح[3]: (البحر المتقارب)

هـــم نعشـــوا الملـــك حتـــى اســـتقل وهـــم أظلمـــوا الخطـــب حتـــى اظّلـــم

1- ابن زيدون، الديوان، ص310.

2- نفسه، ص311.

3- نفسه، ص414.

4. مصائب الدهر وأرزاؤه وحوادثه:

مصائب الدهر كل ما يحدثه الدهر من الأمور الفاجعة التي تترك أثراً سيئاً، وهي كثيرة عظيم أثرها، وهي دائمة لا تنتهي، فالمصيبة في اللغة هي الفاجعة، يقال أصابه بكذا: فجعه به، وأصابهم الدهر بنفوسهم وأموالهم: جاحهم فيها، ففجعهم، وأصابتهم مصيبة فهو المصاب[1].

فأحداث الدهر ومصائبه دائمة، وهي لا تستثني أحداً، فهي تنال من عظيم الناس أيضاً، وفي ذلك يقول[2]: (البحر الخفيف)

وهو الدهر ليس ينفك ينحو بالمصاب العظيم نحو العظيم

والموت أحد مصائب الدهر التي تأتي على الإنسان، وما عليه إلا الصبر فالموت لا مرد له، والصبر به نوال الثواب، فابن زيدون يرى أن مصيبة الموت أخف من أن يفقد الإيمان بالله، فالموت مصيرٌ حتمي يؤول إليه كل إنسان[3]: (البحر الطويل)

مصاب الذي يأسى بميت ثوابه هو البرح، لا الميت الذي أحرز القبر

لم يسلم الشاعر من هذه المصائب التي تعاقبت عليه، بعد أن تبدلت عليه الأمور وانقلبت: من فراق الحبيبة، وتخلي الأصدقاء عنه، وسجنه. وفي قصيدة بعثها لأبي القاسم بن رفق يصف فيها

1- ابن منظور، لسان العرب، صوب.

2- ابن زيدون، الديوان، ص280.

3- نفسه، ص540.

كيف أن الدهر كان طروقاً لحياة الشاعر، فقد تجهمت عليه الحوادث النكراء عندما نأى عنه، يقول[1]: (البحر الخفيف)

طـــرق الـــدهر ســـاحتي مـــن تنائيـــك بجهـــــمٍ مـــــن الحـــــوادث نكـــــر

وكأن صديقه كان يدفع عنه غوائل الدهر، فيتساءل متمنياً رجوع الماضي بكل ما يحمله من مسرات[2]: (البحر الخفيف)

هـــل لِحَـــالِي زماننـــا مـــن رجـــوع؟ أم لماضـــــي زماننـــــا مـــــن مِكَـــــرّ؟

أيـــــن أيامنـــــا؟ وأيـــــن ليـــــالٍ كريـــــاض لبســـــن أفـــــواف زهـــــر؟

فتساؤل الشاعر ينبع عن لهفة إلى هذه الأيام والتشوق لها، لما حل به من مصائب يريد أن تزول عنه، فهو يتعجب كيف زالت هذه الأيام السعيدة.

فالحوادث هي من نوائب الدهر وصروفه، والحدث النازلة[3].وما نلاحظه أن ابن زيدون في استخدامه للحوادث، والمصائب، والصروف، والنوائب، والخطوب، كلها بنفس المعنى، وتحمل الدلالة ذاتها في المصائب التي حلت به وأثرت عليه، ولكن كان في كل مرة يطلق عليها مسمّى بما يتناسب مع محتوى النص وموسيقاه، والحادثات كغيرها، هي جند من جنود الدهر التي حلت بابن زيدون،

1- ابن زيدون، الديوان، ص233.

2- نفسه. ص233.

3- ابن منظور، لسان العرب، حدث.

فداهمته على حين غفلة، فحطمته ونالت منه من غير سابق إنذار، وهو آمن قرير[1]: (البحر البسيط)

حوادث استعرضتني، ما نذرت بها غرارة ثم نالتني على غرر

فالحوادث قد بددت عهد النعيم، فهي لا تلتزم بعهد ولا بشرط، وهي دائمة الغدر[2]: (البحر الطويل)

أأحبابنا ألوتَ بحادث عهدنا حوادث لا عقد عليها ولا شرط

شحطنا، وما للدّار نأيٌ ولا شحط وشط بمن نهوى المزار، وما شطوا

لعمركم إن الزمان الذي قضى بشت جميع الشمل منا لمشتطُّ

فهذا الحادث الذي حلَّ به، هو من جنود الدهر هجّر الشاعر عن وطنه، وأبعده عن أحبته، وكان نتيجة ذلك قضاء الزمان عليه ظلماً بالفراق، فالزمان ظالم في حكمه.

فالحادثات النكراء داهمت ابن زيدون، وأصابته بالوهن وأساءت إليه، ولكنه يعتبر أن هذا الأمر عادي، وكأنه أصبح معتاداً على إساءات الدهر، فيشبهها بجفن السيف الذي يترك آثاراً في صفحة السيف البتار، وهو يعجب من ضيم الدهر له، وهو في حماية ابن جهور[3]: (البحر الكامل)

فلئن تسمني الحادثات فقد أرى للجفن في العضب "الصقيل ندوبا"

ولئن عجبت لأن أضام "وجهور" نعم النصير لقد رأيت عجيباً

1- ابن زيدون، ديوان، ص254.

2- نفسه، ص285.

3- نفسه، ص326-327.

مـــــن لا تعـــــدَّى النائبـــــات لجـــــاره زحفـــــاً، ولا تمشـــــي الضـــــراء دبيبـــــا

فالحادثات التي ألمت بابن زيدون لم يعجب منها، وعدها أمراً طبيعياً، وعجب من حادث عدم النجاح والوصول إلى أبي الحزم، وفي ذلك يقول[1]: (البحر الوافر)

وأعجـــــب حـــــادث نظـــــري لـــــديكم إلـــــى غلـــــل النجـــــاح وبـــــي غليـــــل!

فهو شغوف بالقرب من أبي الحزم، فبعده عنه هو من الحوادث التي سيتعجب منها، فطموح ابن زيدون، وحبه للسلطة جعله يرى أن عدم النجاح في القرب من أبي الحزم يعتبر من أشد الحوادث التي لحقت به.

فهو يرى في الممدوح أنه الدافع للحوادث، ويطلب منه أن يدفع الحوادث التي حاولت أن تنال منه بسوء[2]: (البحر الكامل)

وإذا تحـــــدثت الحـــــوادث بالرّنـــــا شـــــزراً إلـــــيّ فقـــــل لهـــــا: إيـــــاكِ!

فالشاعر لا يسعد بشيء إلا والحادثات نيام غافلة عنه، وقد ذكرنا سابقاً في موطن آخر الليالي التي قضاها الشاعر بسعادة حين نام الدهر وغفل عنه وعن ومحبوته، فالشاعر لا يهنأ بشيءٍ ويسعد به إلا حين يغفل عنه الدهر[3]: (البحر الطويل)

محـــــلٌ غنينـــــا بالتصـــــابي خلالـــــه فأســـــــعدنا، والحادثـــــــات نيـــــــام

فمـــــا لحقـــــت تلـــــك الليـــــالي ملامـــــة، ولاذمّ مـــــــن ذاك الحبيـــــــب ذمـــــــام

1- ابن زيدون، الديوان، ص332.

2- نفسه، ص350.

3- نفسه، ص153.

فلم يعكر صفوهم شيء فقد قضى ليالي سعيدة، من غير ملامة ولا مذمة من الحبيب، والحادثات نيام.

فالحوادث لا تبقي شيئاً على حاله، فهي دائمة التغيير، فالشاعر ما زال محافظاً على عهده موفياً به، ولكن المحبوبة هي التي تغيّرت، والذي غيرها الحوادث، فالحوادث هي القوة التي فرّقت بين الحبيب وحبيبته، وغيّرت الحبيبة حتى تنقض عهدها في الحب والوفاء مع حبيبها، وفي ذلك يقول[1]: (البحر الطويل)

جفـــاني بإلطـــاف العـــدا، وأزالـــه -عــن الوصــل- رأيٌّ فــي القطيعــة حــادث

تغيّــرت عــن عهــدي، ومــا زالــت واثقــاً بعهـــدك، لكـــن غيرّتـــك الحـــوادث

فالحوادث من جنود الدهر تسبب القطيعة والجفاء بين الأحبة، كما أنها متغيرة تؤثر على النفوس فتغيّرها، وهي دائمة نقضان العهد غير وفيّة من صفاتها الغدر والخيانة.

ابن زيدون يجد في الممدوح تفريجاً لكرب الحادثات؛ لقوته الشديدة، ورأيه السديد[2]: (البحر المتقارب)

يُعُّـــدك صـــارم عـــزمٍ ورأي فترضـــيه خـــرّد أو أغمـــدا

ومـــا اســـتبهم القفـــل فـــي الحادثـــا ت إلا رآك لـــه مقلـــدا[3]

1- ابن زيدون، الديوان، ص183.

2- نفسه، ص218.

3- المقلد والمقلاد والإقليد: المفتاح.

فما أشكل شيء وعقد أمرٌ إلا كان مفتاحه، ويزيل غموضه، ويوضحه الممدوح، كذلك يكرر المعنى نفسه في قوله[1]: (البحر الطويل)

هــو الملــك الجعــد الــذي فــي ظلالــه تكــفُّ صــروف الحادثــات وتصــرف

فالملك كريم يصد صروف الحادثات، ويكف طوارقها، فيدعو للممدوح أن يقيه الله من الأحداث[2]: (البحر المنسرح)

وافــاني العقــد- زيــن ناظمــه- والوشــي لا راع حــادث صــنعه

وفي موضوع آخر يدعو للممدوح أن يبقى آمناً وسالماً من الحوادث[3]: (البحر المتقارب)

"أبــا بكــر" اســلم علــى الحادثــات ولا زلــت مــن ريبهــا فــي حــرم

فالممدوح كذلك رغم أنه يرفع الحادثات عن الآخرين، إلا أنه لم يسلم هو نفسه من هذه الحادثات، فالليالي سببت له المرض، ووصف الحادثات بأن لها وجهاً وقحاً، فهي لا تستحي؛ لأنها سببت إساءة للمعتضد، فالممدوح هو من أزال قبح الليالي وأظهر زينتها، فالليالي جحدت فضله وقابلته بالإساءة، وأنكرت إحسانه، فأرسلت إليه الحادثات التي تكمن في مرضه، فالليالي تحمل صفة نكران الجميل فهي خائنه، لا تحسن التصرف، والتعامل مع الآخرين حتى الذين يقدمون لها الخير، فهي غدارة[4]: (البحر الوافر)

1- ابن زيدون، الديوان، ص486.

2- نفسه، ص210.

3- نفسه، ص 415.

4- نفسه، ص433-434.

لقـــــد ســـــفرت بعلتـــــك الليـــــالي لنـــــا عـــــن وجـــــه حادثـــــةٍ وقـــــاح

ألســـــت مُصِـــــحَّها مـــــن كـــــل داء؟ ومبـــــدي حســـــن أوجههـــــا القبـــــاح؟

فالممدوح يقابل الحوادث التي ألمت بالناس بوجه مشرق، وصدرٍ واسعٍ حليم، وهو بذلك يفرج كربها عن الناس التي ضاقت بهم ذرعا[1]: (البحر الطويل)

ألســـت الـــذي- إن ضـــاق ذرع بحـــادث- تـــبلّج منـــه الوجـــه واتســـع الصـــدر؟

فالحوادث داهمت الملك من حيث لا يرى، وهو غافل عنها لم يتوقعها، فلم يستطع دفعها، وهو لا يملك دفعاً للقضاء المحتوم[2]: (البحر الطويل)

ولكـن عـررت الملـك- مـن حيـث لا يـرى- فلـــم يســـتطع للحـــادث الحـــتم مـــدفعا

الحادث الحتم هو الموت الذي لا نجاة منه، ومما نلاحظه بأن الحادثات تنوعت في أشكال الإساءات التي تقدمها منها: الفرقة، والمرض والموت، وغيرها. وكل هذه الأمور يواجهها الشاعر إمّا متسلماً، وإمّا صابراً، وإمّا مستعيناً بالممدوح، فمنها ما يستطيع مواجهته، ومنها لا يملك إلا الاستسلام أمامها.

ومن جنود الدهر التي تكررت كثيراً في شعر ابن زيدون، ونلحظها بشكل كبير في قصائد الرثاء هي الأرزاء، وهي من المصائب، فالرزية هي المصيبة، وجمعها أرزاء ورزايا، وقد رزأته رزيئة أي أصابته مصيبة والرزء: المصيبة بفقد الأعزة[3].

1- ابن زيدون، الديوان، ص545.

2- نفسه، ص553.

3- ابن منظور، لسان العرب، رزأ.

فالرزايا تأتي متواليةً متتابعةً على عكس النعييم الذي يأتي كلمع البرق سريعاً خاطفاً، فالرزايا كثيرة، والنعيم قليل[1]: (البحر البسيط)

تـــأتي الرّزايـــا نظامـــاً مـــن حوادثهـــا إذ الفوائـــــد فـــــي أثنائهـــــا لمـــــع

ذكر الرزايا والحوادث، وهما من جنود الدهر، بينما في المقابل ذكر الفوائد مرة واحدة؛ ليبين أن المصائب أكثر من الفوائد، فالمصائب تأتي منتظمةً متتاليةً، بينما الفوائد تأتي في لمع، مثل لمع البرق، فالرزيا تأتي كل يوم بمصيبة مبرحة، ومن شدة هول المصيبة كأن الأرض ضربها زلزال، فالزلزال مدمر، وأثاره تعم الجميع، فكذلك المصيبة تترك أثراً سيئاً على الجميع، فموت رفيقه القاضي أبي بكر بن ذكوان ترك وقعاً كبيراً في نفسه، فيؤكد على أن لحظات السعادة قليلة إذا ما قورنت بالمصائب، فلحظات السعادة ما هي إلا كطيف الخيال، وفي ذلك يقول[2]: (البحر الكامل)

مـــن سُـــرَّ لمّـــا عـــاش قـــلّ متاعـــه فـــــالعيش نـــــوم، والســـــرور خيـــــال

فـــي كـــل يـــوم ننتحـــى برزيّـــةٍ لـــــلأرض- مـــــن برحائهـــــا - زلـــــزال

فالأرزاء هي من صنيع الدهر، ولا يملك الإنسان معها شيئاً إلا الصبر، وفي ذلك يقول[3]: (البحر الطويل)

خليلـــــــيَّ إن أجـــــــزع فقـــــد وضـــــح العـــــذر

وإن أســـــــتطع صـــــــبراً فمـــــن شـــــيمتي الصـــــبر

1- ابن زيدون، الديوان، ص297.

2- نفسه، ص531.

3- نفسه، ص132.

وإن- يـــــــــــــك رزءاً- مـــا أصـــاب بـــه الـــدهر

ففـــي يومنـــا خمـــر، وفـــي غـــده أمـــر ولا عجـــــب، إنّ الكـــريـــــــم مـــــــرزأ

فالأرزاء من تتسبب بموت أم أبي جهور، وهي من تسببت بموت المعتضد، وصديقه أبي بكر بن ذكوان، وغيرهم، وهو يرى في فقدهم رزءاً جللاً، ويطلب في هذا الموقف الصبر، ويحذر أن يكون هذا الرزء فتنة يضيق منها العذر، وذلك في قوله[1]: (البحر الطويل)

حـــذارك مـــن أن يعقـــب الـــرزء فتنـــة يضـــيق لهـــا -عـــن مثـــل أخلاقـــك- العـــذر

ويحذر كذلك من فتنة ضياع الأجر، جراء الرزيّة التي أصابتهم بفقد أبي الحزم بن جهور، وفي ذلك يقول[2]: (البحر الطويل)

ومـــا الـــرزء فـــي أن يـــودع التـــرب هالـــك بـــل الـــرزء كـــل الـــرزء أن يهلـــك الأجـــر

وفي ذلك دعوة للصبر، وأن لا يجزع لفقد أبي الحزم، فالرزء هلاك الأجر وضياعه بعد الصبر، وليس بفقده، وهنا يكرر الرزء ثلاث مرات؛ ليؤكد المعنى – الصبر للحفاظ على الأجر.

فالأرزاء من جنود الدهر لها أثر كبير، فإذا وقع خيّم الظلام على الناس كالغمامة التي ما إن حلت حتى يسود الظلام[3]: (البحر الطويل)

فـــديناك! إن الـــرزء كـــان غمامـــةً طلعـــت لنـــا فيهـــا كمـــا يطلـــع البـــدر

1- ابن زيدون، الديوان، ص539.

2- نفسه، ص528.

3- نفسه، ص545.

ولكن الممدوح بصبره وقوته يبدد هذا الظلام والحزن، كما يبدد القمر الظلمة إذا طلع، ويكرر هذا الأمر في موقف آخر[1]: (البحر الطويل)

لـــك الخيـــر، إنّ الـــرزء كـــان غيابـــة طلعـــت لنـــا فيهـــا كمـــا يطلـــع البـــدر

فهذه جنود الدهر عند ابن زيدون، وإن كانت مختلفة في التسميات ولكنها تشير إلى المصائب الشديدة التي كان يسببها الدهر، وهذه المصائب كان الفاعل والمغيير فيها الدهر.

أ- عوائد الدهر على الشاعر

1. الموت:

نظر ابن زيدون إلى الموت نظرةً يقينةً بحتمية الموت، فرأى أن لا سبيل للنجاة منه، ولا يجدي معه غير الصبر، وفي هذا يتفق في نظرته- في بعض الأحيان- مع الدهر المتسبب في كل الأحداث ومنها الموت – في أن كلاً منها مسبب للقهر والحزن، ويقضي بتشتيت الشمل، فالموت هو أثر من آثار الدهر وأحداثه التي تصيب الإنسان، فنجد حديث ابن زيدون عن الموت كثيراً، فقد أخذ حيزاً كبيراً، ففي قصائد الرثاء نجده كيف عبر عن تأثره جراء موقف الموت، مما عكس وأثر على حالته النفسية، وهو يشير في بعض الأحيان أن الموت يقلب الناس، فيغيّر ويبدل الأحوال من حالٍ إلى حال، فالموت فاجعة تنبئ بالتغيير، وهو اغتيال للأنفس، ويأتي بغتةً من غير سابق إنذار، ولا يستطيع أحد دفعه بكل الطرق والوسائل[2]: (البحر الطويل)

1- ابن زيدون، الديوان، ص571.

2- نفسه، ص552-554.

أصـــرف الـــرّدى! لـــو أنّ للســـيف مضـــرباً لمـــا رعتنـــا، أو أنَّ فـــي القـــوس منزعـــا

فلـــو كنـــت إذ ســـاترت رام مجـــاهرٌ ذمـــار الهـــدى كـــان المحـــوط الممنّعـــا

إذا لثنـــاه الجـــيش مـــن كُـــلّ ألـــيس يشـــايع قلبـــاً فـــي الحفـــاظ مشـــيّعاً

"ومعتضـــدٌ بـــالله" يحمـــي ذمـــاره فـــلا ســـرب يُلفـــى- فـــي حمـــاه -مُرَوّعـــا

ولكـن عـررت الملـك- مـن حيـث لا يـرى- فلـــم يســـتطع للحـــادث الحـــتم مـــدفعاً

يغـــيظ العتـــاق الجـــرد ألا تـــرى لهـــا مجـــالاً، فتعنـــو فـــي المـــرابط خُشَّـــعا

وتـــأنف بـــيض الهنـــد أن لـــيس تنتضـــى، وســـمر القنـــا ألّا تهـــزَّ وتشـــرعا

هذه أبيات من قصيدة قالها ابن زيدون في رثاء أم المعتمد، يتحدث فيها عن فاجعة الموت التي آلمت بالمعتضد، وفي هذه الأبيات يحاول أن يوصل فكرة أنَّ الموت إن جاء فلا دافع له، وهو يأتي مباغتةً من غير سابق إنذار، فلا حامي من سطوة الموت لا السيوف، ولا السهام، ولا الجيوش العظيمة، والخيول العتاق، إنّ الموت كما يذكر جاء مباغتاً من حيث لا يرى الملك، فالخيول يعزُّ عليها أن لا تجد لها مجالاً للدفاع عنه، وانقاذه من براثن المنية، فتخضع للقدر المحتوم ذليلة خاشعة في المرابط، وكذلك السيوف يعزّ عليها أن لا تسل، وعلى الرماح ألا تشرع للدفاع عنه، وإنقاذ الملك من سطوة الموت، وهو بهذه الأبيات كرر أكثر من مرة فكرة أن الموت يأتي بغتة، وأن لا أحد يستطيع أن يدفع سطوة الموت، كائن حي كان أم جمادا.

فلا أمان من شبح الموت الذي يخيفهم في كل الأوقات[1]: (البحر الوافر)

أنلهـــو والحتـــوف بنـــا مطيفـــه؟ ونـــأمن والمنـــون لنـــا مخيفـــه؟

1- ابن زيدون، الديوان، ص211.

وكرر هذا المعنى في رثاء المعتضد في أن الموت لا دافع له، ولاحيله عليه، ولا لأحد قدرة حتى الجيوش القوية أن ترد القضاء المحتوم[1]: (البحر الطويل)

غشـــيت!! فلـــم تغـــش الطـــراد ســـوابح ولا جـــرّدت بـــيض، ولا أشـــرعت ســـمرُ

ولا ثنـــت المحـــذور عنـــك جلالـــة ولا عـــدد، دثـــرٌ، ولا نائـــل غمـــر

فالموت نهاية كل حيّ طالت حياته، والموت ليس له دواء، والمواساة فيه أن الموت لم يسلم منه الأنبياء[2]: (مجزوء الرمل)

أنـــــــت طـــــــبٌ أنَّ داء المـــــوت قـــــد أعيـــــا الـــــدّواء

فتـــــــأس إن ذاك الخطـــــــب غـــــــال الأنبيـــــــاء

فالدنيا طريق يفضي إلى الموت، ويدعو الناس إلى أن لا ينغروا بالعيش الخداع، وينسى الإنسان مصيره المحتوم، وهذا العيش والآمال الخادعة ما هي إلا كالسراب، وهي وهم وضلال[3]: (البحر الطويل)

ودنيـــا وجـــدنا العـــيش فـــي غفلاتهـــا طريقـــاً- إلـــى ورد المنيـــة- مهيعـــا

تعلـــل فيهـــا بـــالمنى!! فتغرّنـــا بـــوارق لـــيس الآل منهـــا بأخـــدعا

1- ابن زيدون، الديوان، ص564.

2- نفسه، 560.

3- نفسه، ص550.

فالموت مصيبة كبيرة لا يتحملها أحد، فصور مصيبة الموت لو أنها أصابت هضب متالع لانهد ركنّه، وهوت جوانبه من شدة وقع المصيبة، وتأثيرها على الفاقدين[1]: (البحر الطويل)

أصـــبنا بمـــا لـــو أن هضـــب متـــالعٍ أصـــيب بـــه لانهـــدَّ أو لتضعضـــعا

الناس مسافرون ومسرعون إلى الموت، كأنهم مسرعون إلى هدف منشود، فالموت غاية يحاول الناس إدراكها، فما بعد الموت حساب: إما تفضي به أعماله إلى النعيم فيهدى الصراط، أو إلى الجحيم[2]: (البحر الطويل)

حيـــاة الـــورى نهـــج إلـــى المـــوت مهيـــع لهـــم فيـــه إيضـــاع كمـــا يوضـــع الســـفر

فيـــا هـــادي المنهـــاج جـــرت!! فإنمـــا هـــو الفجـــر يهـــديك الصـــراط أو البجـــر

فالموت لا بد منه طال العمر أم قصر، فطول العمر وقصره سيان ما دامت النهاية هي الموت[3]: (البحر الطويل)

إذا المـــوت أضـــحى قصـــر كـــل معمَّـــر فـــإنّ ســـواء طـــال أو قصـــر العمـــر

ففي موت الآخرين عبر لنا، ولكن الأماني هي التي تخدع الناس[4]: (البحر الطويل)

لنا- في سوانا- عبرةٌ غير أننا نغـــرُّ بأطمـــاع الأمـــاني فنغتـــرُّ

1- ابن زيدون، الديوان. ص550.

2- نفسه، ص540.

3- نفسه، ص541.

4- نفسه. ص541.

يدعو ابن زيدون الناس إلى الاتعاظ بموت الآخرين، وأن لا ننخدع بالأماني الكاذبة، فابن زيدون لديه حس، وثقافة دينية يوظفها في شعره، فربما أنه استعان بقوله تعالى[1]: (وغرتهم الأماني حتى جاء أمر الله...)سورة الحديد آية(14)، فموت الآخرين عبرة لنا، ولكن طمع الإنسان هو الذي يدعوه إلى أن ينغر بالأماني الكاذبة.

عبر ابن زيدون في مراثيه عن مشاعر الحزن والأسى، ودعا الممدوحين أن يصبروا على هذا المصاب حتى يكسبوا الأجر والثواب، فهلاك الميت لا يكون مصيبةً، بمقابل هلاك وضياع الأجر، فالمصيبة هي في ضياع الأجر، وأكد المعنى هذا في قوله:

وما الرزء في أن يودع التـرب هالك بل الرزء كل الرزء أن يهلك الأجر

2. الشيب والشباب:

يعدُّ الشيب من أعمال الدهر، وهو إحدى علامات التي تشير إلى دنو الأجل، وكذلك فإنَّه مؤشر على ارتحال الشباب، وهو منفر للنساء ومؤذن بمفارقتهن[2]، فابن زيدون شاب ووخط الشيب عارضيه، ويوظف الشيب في شعره بدلالتين: شيب الرأس، والشيب كثرة الهموم، فالشيب ليس شيب الرأس فحسب، إنما هو توديع مرحلة الشباب، ووصوله لمرحلة متقدمة من العمر، يفقد بها أشياء كثيرة، رغم أنّ ابن زيدون شاب قبل أن يبلغ سن الثلاثين، وهذا الأمر يعزوه لفعل الدهر[3]. (البحر البسيط)

1- سورة الحديد، آية 14.

2- انظر محمد الحوراني ، الدهر في شعر ابن الرومي، ص148.

3- ابن زيدون، الديوان، ص253.

لـــم تطـــوِ بـــرد شـــبابي كبـــرةٌ، وأرى بـــرق المشـــيب اعتلـــى فـــي عـــارض الشـــعر

قبـــل الثلاثـــين، إذ عهـــد الصـــبّا كثـــبٌ وللشـــــبيبة غصـــــنٌ غيـــــر مهتصـــــر

فالشيب غزا رأسه وهو صغير في سن الشباب، وهو ينفي كبر سنه، وكأنه أراد أن يقول: شبت صغيراً وأنا في مرحلة الشباب، جراء ما أحل بي الدهر من مصائب وهموم، وأحداث عظام يشيب لها الصغير.

وكما هو معروف في الموروث الديني أن الإنسان من شدة أهوال يوم القيامة، لعظم هذا الأمر وعظم الأهوال تجعل الصغير المولود حديثاً يشيب من شدة الموقف، قوله تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ سورة المزمل أية(17)، فإذا شاب الإنسان وهو صغير دلالة على أن همّاً عظيماً اعتلاه ، وشدة خطوب الدهر وأهواله جعلت ابن زيدون يشيب صغيراً، ويؤكد هذا المعنى في أبيات أخرى، فقد شاب قلبه قبل أن يشيب رأسه من كثرة الأحداث والمصائب، والهموم التي لحقت به، وهو في سجنه، كما في قوله[1]: (البحر الطويل)

هرمـــت ومـــا للشـــيب وخـــط بمفرقـــي ولكـــن لشـــيب الهـــم فـــي كبـــدي وخـــطُ

فالدنيا أسرفت بحق ابن زيدون في الإساءة، فجنت على شبابه، وعجلت له بالشيب، فشاب قبل أوانه، وفي ذلك يقول[2]: (البحر الكامل)

مـــالي وللأيّـــام؟ لـــجّ مـــع الصّـــبا عـــــدوانها فكســـــا العـــــذار مشـــــيبا

محقـــت هـــلال السّـــنّ قبـــل تمامـــه وذوى بهـــا غصـــن الشـــباب رطيبـــا

1- ابن زيدون، الديوان، ص289.

2- نفسه، ص326.

رسم ابن زيدون صورة للشباب، فجعله كشجرة أغصانها رطبة، لكنّ هذه الشجرة هرمت وجفت قبل أوانها، وذبلت أغصانها، فالمصائب التي حلت به غدارة، محقت شبابه الذي شبهه بالهلال الذي لم يكتمل، فما إن أذن الشباب أن يبدأ حتى شارف على الرحيل؛ بسبب الهموم الجسام التي أحدثتها الدنيا وسلطتها عليه، وهو يؤكد في كل ما سبق على فكرة – أن الإنسان لو كان شاباً– فإذا تناولته أحداث الدهر أضعفته، وتظهر عليه علامات الكبر.

فالموت من أحداث الدهر التي لا ينجو منها أحد، لا كبير ولا صغير، ففي رثا المعتضد يذكر ابن زيدون أن الموت قد أجهز عليه وهو شابٌ، وفي ذلك يقول[1]: (البحر الطويل)

ففيه عـــلاء لا يســـامى يفاعـــه وقـــدْرُ شـــباب لـــيس يعدلـــه قـــدْرُ

وفي فجيعته بموت صديقه القاضي أبي بكر بن ذكوان، يخاطب القبر، ويقول له: لقد نزل فيك شابٌ زيّنك، كما يزين السيف اللامع جفنه إذا حل فيه، وهو بذلك يقول[2]: (البحر الكامل)

يـــا قبـــره العطـــر الثـــرى لا يبعـــدن حلـــو مـــن الفتيـــان فيـــك حـــلال

مـــا أنـــت إلا الجفـــن أصـــبح طيّـــه نصـــل، عليـــه– مـــن الشـــباب– صـــقال

فابن زيدون يندب الشباب ويأسف عليه، وكأنه جعل من الموت جنداً من جنود الدهر إذا حل بإنسان– كبير أو صغير– أماته، فكذلك الدهر سلط عليه وهو في شبابه جنداً من جنوده ألا وهو المشيب فشاب صغيراً.

1- ابن زيدون، الديوان، ص565.

2- نفسه، ص532-533.

ويضرب تشبيهاً على زوال الليل السعيد في لقاء الأحبة، وبعيداً عن أعين الوشاة، وسريان أشعة الضياء التي تكشف في سريانها خلسة الحبيب بزوال الشباب الذي أذن على الرحيل؛ ليحل محله الشيب، وكذلك صور الذئب الحذر الذي ينسل جراء حلول الضياء، فالشباب يوازي صورة الظلام السعيد، وصورة الشيب توازي صورة الضياء الذي يفرق الأحبة، كما يفرق الشيب الأحبة، وينفر المرأة من الرجل المشيب، وذلك في قوله في الأرجوزة[1]:

حيـــــث ألفـــــتُ الرشـــــأ الربيبـــــا

مخالفـــــاً فـــــي وصـــــله الرّقيبـــــا

كـــم بـــات يـــدري ليلـــه الغربيبـــا

لمـــا اثننـــى مـــن ســـكره قضـــيبا

تشـــدو حمـــام حليـــه تطريبـــا

هصـــرته حلـــو الجنـــى رطيبـــا

أرشـــف منـــه المبســـم الشـــنيبا

حتـــى إذا مـــا اعـــتن لـــي مريبـــا

شـــباب أفـــق هـــمَّ أن يشـــيبا

بـــادرت ســـعياً، هـــل رأيـــت الـــذيبا؟

1- ابن زيدون، الديوان، ص156.

كذلك حظ ابن زيدون بوفاء المعتمد له، هو حظٌ وافر ومنجد، مثل الشباب الغض مع أن حظه مما سواه، كما يقول: يدركه الشيب والفناء[1]: (البحر الكامل)

وشـــغوف حـــظ لـــيس يفتـــأ يجتلـــى غـــضَّ الشـــباب، وكـــل حـــظٍ يهـــرم

فيجعل من الشباب خير شافع إذا وقع في عتاب الحبيب، فالشباب يغفر الهفوات، ويشفع كل الذنوب في الأيام التي يعتب فيها الحبيب[2]: (البحر الكامل)

أيّـــام إن عتـــب الحبيـــب لهفـــوةٍ شـــفع الشـــباب فكـــان أكـــرم شـــافع

فكيف للشباب أن يشفع له بعد أن خط المشيب في عارضيه، فكأنه يتحسر على أيام الأنس التي قضاها مع الحبيبة، والتي لن ترجع، فقد حل الشيب في رأسه، فلا شفيع له أمام المحبوبة، فالشباب بمثابة الحجة والدليل التي تنجي صاحبها إذا حلت المصيبة، والشباب كريم، وقد كرر هذا المعنى في قصيدة أخرى[3]: (البحر الطويل)

أمـــا علمـــت أنّ الشـــفيع شـــباب؟ فيقصـــر عـــن لـــون المحـــبّ عتـــاب

فالشباب هو الجاذب للنساء، والشيب هو المنفر لهن، فالحبيبة بعد أن قطعت وصالها بابن زيدون وجفته، استخدم هذا المعنى بأن الشباب هو الذي كان يجذبها إليه، ويشفع الهفوات والزلات،

1- ابن زيدون، الديوان، ص320.

2- نفسه، ص401.

3- نفسه، ص366.

وما إن اعتلى الشيب رأسه حتى جفته المحبوبة، وأصبحت تنظر إليه بجفاء، كما تنظر المرأة إلى الرجل الكهل الذي شاب[1]: (البحر الوافر)

وكـــم لـــي مـــن فـــؤادك- بعـــد قـــرب- مكـــان الشـــيّب فـــي نفـــس الكعـــاب

ويضفي ابن زيدون على ممدوحه صفة الدهر في صورته الحسنة، فيجعل منه الفاعل المغير للأمور من القبح إلى الحسن، فيغير حاله من الشيب إلى الشباب، بسبب نعم الممدوح الوافره، فيذكر أنه بكرمه، ونعيمه ينسي الشيخ الفاني ظل شبابه، ويرى ظلال ونعم الممدوح أوسع وأندى[2]: (البحر الطويل)

لـــه ظـــل نعمـــى يـــذكر الهـــم عنـــده ظـــلال الصـــبا، بـــل ذاك أنـــدى وأورف

وكذلك مدح الشاعر للممدوح والثناء عليه، تخلع على أمجاد الممدوح غلائل الشباب، فيظهر المجد القديم غضاً يافعاً إذا ما هرم الدهر، وتحيفته السنون[3]: (البحر المتقارب)

تجـــدُّ لفخـــرك بـــرد الشـــباب إذا لـــبس الـــدهر بـــرد الهـــرم

فالدهر يشيب ويهرم، وثناء الشاعر على الممدوح يبقى شباباً غضاً لا يشيب، يردده الزمان جيلاً بعد جيل[4]: (البحر الطويل)

فـــأين ثنـــاء يهـــرم الـــدهر كبـــرةً وحليتـــه فـــي الغـــابرين شـــباب؟

1- ابن زيدون، الديوان، ص180.

2- نفسه، ص488.

3- نفسه، ص416.

4- نفسه، ص384.

فالشباب يقابل أيام السعادة التي سعد بها ابن زيدون بعطف الممدوح، ووصاله حيث أجاد عليه الزمان وأقبل[1]: (البحر الكامل)

واهـــاً لعطفـــك!! والزمـــان كأنمـــا صـــبغت غضـــارته ببـــرد صـــباك

والشيب يقابل الأسى، فيرسم الشاعر صورة له يبين فيها كيف يتكون، فهو يتكون نتيجة المآسي والمصائب التي حلت به، وأشعلت نار الأسى في صدره، فتصاعد من هذهِ النار – نار الأسى – شرر أشعل الشيب في رأسه[2]: (البحر البسيط)

هـــا أنهـــا لوعـــةٌ فـــي الصـــدر قادحـــة نـــار الأســـى، ومشـــيبي طـــائر الشـــرر

ب- موقف الشاعر من الدهر:

التحدي والمواجهة والاستسلام:

واجه ابن زيدون الدهر بالصبر، وكذلك عن طريق الممدوح؛ ليصل إلى ما كان يصبو إليه، إلا أنه في بعض المواقف كان مستسلماً لأحداث الدهر لا حول له ولا قوة، فالدهر قهر ابن زيدون، وحل به، فأبعد عنه كل ما كان يتمناه ويحلم به، فأبعد عنه محبوبته، وهجره من بلده، وسجنه، وعزله عن منصبه.

ففي قصائد الرثاء نجده يحمل الدهر المسؤولية في إرسال الموت على أحبته، ويلجأ إلى الدعوة إلى الصبر، وتحمل المصاب الذي حل، ولكننا وجدنا في النهاية أنّ لا قوة له أمام قوة الدهر

1- ابن زيدون، الديوان، ص344.

2- نفسه، ص254.

فيسلم بالقضاء والقدر، وأحياناً نجده يلتمس السماح، والعفو من الدهر وكأن الدهر شخص حاكم أو مسيطر عليه، فيرتجيه؛ ليسمح له العيش بأمان، ولا يعاقبه، ففي قصيدته- وهو في السجن- بعد أن استنفذ جيمع المحاولات، وبعد أن بث شكواه وآلآمه، ختم القصيدة بالطلب إلى الدهر السماح، لعله يسمح عنه، ويخرج من السجن[1]: (مجزوء الرمل)

وعســـــــى أن يســـــــمح الدهـــــــ ـــــــر فقـــــــد طـــــــال الشـــــــماس

وفي مواقف كثيرة نجده يرجو من الدهر أن يحقق أمانيه التي يصبو إليها، فهو يرجو الدهر أن يحظى برضا الممدوح[2]: (البحر السريع)

عتبـــــاك- بعـــــد العتـــــب- أمنيـــــة مـــــا لـــــي علـــــى الـــــدّهر ســـــواها اقتـــــراح

ومن جانب آخر من جوانب الاستسلام اعترافه بالأحداث الجسام التي سلطها الدهر عليه، فغلبه وقهره، في كل ما حلّ به من مصائب، ومن جانب آخر نجده يعترف بأن هناك من يوقفه عن الإساءة، فأيام السرور كانت نتيجة أسباب منها: غفلة الدهر، أو نتيجة قوة أكبر من قوته ألا وهي قوة الممدوح، وذلك في قوله[3]: (البحر الكامل)

فالـــــدهر معتـــــرف بأنّـــــا لـــــم نكـــــن لنســـــرّ منـــــه- بســـــاعةٍ- لولاكـــــا

فالدهر يقرّ بذلك أنهّ لولا قوة الممدوح لما هنأ، ولا سرَّ الناس بساعة واحدة، جراء ما يلحقه الدهر به، وكأن صورة الدهر هنا فقط للإساءة، وإنزال المصائب بالناس.

1- ابن زيدون، الديوان، ص277.

2- نفسه، ص249.

3- نفسه، ص445.

ونجده يجعل من الدهر عبداً مملوكاً له، يسيره كما يريد، وهذا عندما ينعم بحب ولادة، وكأن الدنيا أقبلت عليه بهذه الفترة، فلا أحد يعكر صفو حياته، لا الدهر ولا غيره[1]: (البحر المجتث)

الـــــــدهر عبـــــــدي، لمّـــــــا أصـــــبحتُ- فـــــي الحـــــبّ- عبـــــدك

وكذلك، لولا الممدوح لم يسمح الدهر، فالممدوح هو من ألّفّ قياد الدهر، وكبح جماحه وألان جانبه للسماح[2]: (البحر الطويل)

فلـــولاك لـــم يســـمح مـــن الـــدهر جانـــب ولا اهتـــــز أعطافـــــاً، ولا لان أخـــــدعا

ويكرر هذا المعنى في قصيدة أخرى[3]: (البحر الطويل)

ولـــولاك لـــم يســـهل مـــن الـــدهر جانـــب ولا ذلّ مقتـــــــــاد، ولا لان معطـــــــــف

فالدهر تحت سلطة الممدوح، فهو عبد مأمور يلبي الأوامر التي يسمعها، والتي يشير إليها الممدوح، فهو خادم مطيع يمشي مطيعاً بالإشارة[4]: (البحر الطويل)

ولمـــا حضـــرنا الإذن، والـــدهر خـــادم تشـــير فيمضـــي، والقضـــاء مُصـّـــرفُ

ويستخدم رضا المحبوبة عليه للتصدي لتصاريف الزمان، وفي ذلك يقول[5]: (البحر الوافر)

لقـــد أنفـــذت- فـــي الآمـــال -حكمـــي وأجريـــت الزمـــان علـــى اقتراحـــي

1- ابن زيدون، الديوان، ص165.

2- نفسه، ص556.

3- نفسه، ص497.

4- نفسه، ص496.

5- نفسه، ص437.

وكذلك في قوله[1]: (البحر الوافر)

أيوحشـــــني الزمـــــان وأنـــــت أنســـــي؟ ويظلـــــم لـــــي النهـــــار وأنـــــت شمســـــي؟

فالملك هو من روض الدهر، فكأن الدهر خيل شرسه ليس أليفاً، والذي روضه هو الممدوح، فأصبح سلس القيادة، وأمن جانبه[2]: (البحر الكامل)

يـــا أيّهـــا الملـــك الـــذي فـــي ظلّـــه ريـــض الزّمـــان فـــذلّ منـــه قيـــاد

فالممدوح عون له، ومساعد ومعين على تقلبات الزمان وجوره[3]: (البحر الخفيف)

يـــا "أبـــا القاســـم" الـــذي كـــان ردئـــي وظهيـــري- علـــى الزمـــان- وذخـــري

فما دام أنَّ الممدوح قريب من ابن زيدون، فهو لا يبالي بعثرات الزمان، فلما مرض وعاده المعتضد زال مرضه، فهو لا يبالي لهذا الزمان، وما أرسله إليه من مرض، فقد أصحّت عيادة المعتضد نفسَهُ، وشفتها من كل داء[4]: (البحر الرمل)

مـــا أبـــالي مـــن زمـــاني بعـــدها -إذ أصـــحّ الـــنفس- أن جســـمي أعـــل

يواسي ابن زيدون نفسه بأن للدهر وجهه حسن، فإن ساءه شيء من الدهر، فلا بدَّ أن يأتي الدهر بشيء حسن، وقد عبر عن هذا المعنى في كثير من المواقف، وكذلك في حديثه لولادة بعد أنَّ أساء إليها يوماً، بأن لابدَّ أن يحمل بطياته السرور، ويعتذر عن الإساءة[5]: (البحر الرمل)

1- ابن زيدون، الديوان، ص185.

2- نفسه، ص464.

3- نفسه، ص232.

4- نفسه، ص505.

5- نفسه، ص175.

ولـــــئن ســـــاءك يـــــوم فـــــاعلمي أن ســـــــــيتلوه ســـــــــرور بغـــــــد

وكذلك نجد ابن زيدون يواجه هذا الدهر بشجاعته وصبره، وأنه لن يركع له، ولن يستسلم لأحداثه الجسام، وبل سيقابلها ببسالة، وسيبقى صامداً ثابتاً في وجه الدهر، لا منهزماً[1]: (مجزوء الوافر)

وكـــــــــائن رامـــــــــت الأيـــــــــا م ترويعـــــــــي، فلـــــــــم أرتـــــــــع

ونلاحظ مما سبق أن موقف ابن زيدون كان متبايناً في مواجهة الدهر، بالاستسلام حيناً والمواجهة حيناً أخر، إما بالممدوح أو بالمحبوبه أو بنفسه، وهذا يشير إلى كثرة المواقف التي تقلب فيها الدهر عليه، ويعكس موقف ابن زيدون في مواجهته للدهر، وإصراره على تحقيق طموحه، وأهدافه التي يصبو إليها، وكذلك بأنه يواجه هذه المصائب، ويريد الخلاص منها، ومن المتاعب التي حلت به.

رابعاً: الوجه الحسن للدهر:

أشار البحث منذ البداية إلى أنّ ابن زيدون وظّفَ الدهر ومتعلقاته في ديوانه بالجانبين الإيجابي والسلبي، وفيما سبق تناول البحث الحديث عن الجانب السلبي للدهر، وكان في بعض الجوانب السلبية يتطرق إلى أنَّ الدهر يسيء ثم بعدها يعتذر، ويأتي بالحسن، فالجانب الإيجابي للدهر استخدمه ابن زيدون في كثير من المواقف التي ينبغي أن لا يغفل عنها البحث، فكما أنَّ ابن زيدون واجهته أحداث الدهر ونكلت به، وأفقدته الأمور التي كان يصبو إليها من جانب، أمّنَّ الدهر عليه، وأنعم عليه، وسرّه في كثير من المواقف، فالحاضر كان يشكل له الجانب السلبي في بعَض

1- ابن زيدون، الديوان، ص579.

الأحيان، بينما الماضي يشكل له الجانب الإيجابي الذي سعد به بلقاء الحبيبة، وسعد بليالي الأنس التي قضاها معها، فكان كثيراً ما يعود إلى الماضي؛ ليأنس به، ويسرّي به عن نفسه، ويتمنى عودته، وكذلك هروباً من الواقع المرير الذي ادلهمت عليه خطوبه، وفي ذلك يقول[1]: (البحر الخفيف)

هـــل لحـــالي زمانـــا مـــن رجـــوع؟ أم لماضـــي زمانـــا مـــن مكـــر؟

وأكثر في حديثه في المقابلة في بيان وجها الدهر الإيجابي والسلبي، فكما أن الدهر يقسو في جانب، فإنه في جانب آخر يلين، فاستخدام هذا المعنى في نفس البيت الواحد، أو في نفس القصيدة، أو نجده يكرر المعنى في قصائد أخرى.فالأوقات السعيدة التي قضاها في رفقة الأحبة قصيرة، بينما الأوقات العصيبة طويلة ومريرة على النفس، فنجده يتمنى زوالها ويهرب منها إلى تلك الأيام التي سعد بها، وهذا الأمر يتكرر كثيراً في ديوانه، فنجده يكرر هذا المعنى في أكثر من مقطوعة، من ذلك قوله[2]: (مجزوء الكامل)

يـــا ليـــل طـــل، لا اشـــتهي -إلا بوصـــل- قصـــرك

فاستخدم الليل مرتين: الأول يتمناه حتى إن كان قصيراً؛ لأنه يسعد به بلقاء حبيبته، والليل الثاني هو ليل قاسٍ مرير على نفسه، فقد انقطع وصاله بالحبيبة فيتمنى زواله، ويرى أنه ليل طويل، فارتبط الحسن بالزمان بوجود الحبيبة أو ما يطمح إليه، أما غيابها فيعني تبدل الوجه الحسن للزمان،

1- ابن زيدون، الديوان، ص233.

2- نفسه، ص182.

وعبوسه، وانقلابه على ابن زيدون، وتذمره منه، فالحبيبة تمثل له الحياة، فإن فارقته فحياته بلا معنى، ويتمنى الموت[1]: (البحر البسيط)

إن الزمـــان الـــذي عهـــدي بـــه حســـن قـد حـال مـذ غـاب عنّـي وجهـكِ الحسـن

أنـــتِ الحيـــاة، فـــإن يقـــدر فراقـــك لـــي فليحفـــر القبـــر أو فليحضـــر الكفـــن

وهو بذلك يستشرف المستقبل هروباً من الواقع، ويأمل بأن يكون المستقبل أفضل، فربما تتغير الأحوال، وينعم عليه الدهر، وعلى محبوبته بالمسرات، لأن من صفات الدهر التغيير والتبديل[2]: (البحر الرمل)

ولـــئن ســـاءكِ يـــومٌ فـــاعلمي أن ســـيتلوه ســـرور بغـــد

فالدهر في أوقات المسرات غافل أو نائم، فغفلته هيأت الظروف لابن زيدون حتى يقضي أوقاته متنعماً، فالدهر من وجهة نظره غافل عنه في دوام النعيم عليه، أما في صحوته فهو في بؤس، فهو يمطره بأقسى أنواع المصائب، فنراه يشكوه، ويسخط عليه لما آل إليه من حال، وفي ذلك يقول[3]: (البحر البسيط)

يـــوم كأيـــام لـــذات لنـــا انصـــرمت بتنـــا لهـــا حـــين نـــام الـــدهر ســـراقا

1- ابن زيدون، الديوان، ص180.

2- نفسه، ص175.

3- نفسه، ص140.

فالمسرات زائلة– وإن طالت– فالدهر متقلب يغير الأحوال، فلذلك يدعو ابن زيدون إلى اغتنام هذه المسرات، فهي عادة ما تكون قليلة، تأتي خلسة ثم تزول[1]: (مجزوء الرمل)

واغتنم صفو الليالي إنما العيش اختلاس

وكثيراً ما نجده يتحدث عن الليل بصورة إيجابية، فهو يفضل بقاء الليل، ويتمنى أن لا يزول أبد الدهر، ونراه ينفر من الصباح؛ لأنّه كاشف لأمره فاضحٌ لسره، فيتمنى أن لا يأتي[2]: (البحر الطويل)

يَوّد– إذا ما جنّه الليل– أنه أقام عليه– آخر الدهر– سرمداً

فالليل في وصاله وأنسه يشكل الستر والأنس بعيداً عن عيون الوشاة، والمتربصين به، وهو قصير يتمنى دوامه، على عكس النهار الذي يعد كاشفاً لأمره فاضحاً لسرّه، مفضياً به إلى الهلاك، فالليالي كريمة سمحة مانحة المرء كل ما يتمناه[3]: (البحر الكامل)

هذي الليالي بالأماني سمحة فمتى تقل: "هاتي" تقل لك:" هاكا"

فهي طوع أمر المتمني تعطيه بدون حساب كل ما يطلبه ويتمناه، فالليالي التي قضاها بالمسرات كثيرة، وقد كانت هذه الليالي مشرقة منيرة، جعلت الليل المظلم منيراً حتى الصباح، وفي ذلك يقول[4]: (البحر الوافر)

1- ابن زيدون، الديوان، ص277.

2- نفسه، ص473.

3- نفسه، ص439.

4- نفسه، ص430.

وربَّ ظـــــلام ليـــــلٍ جـــــنَّ فـــــوقي فنُبـــتِ عـــن الصّـــباح إلـــى الصّـــباح

فيستخدم الليل مشرقاً على عكس حقيقته؛ ليوصل فكرته التي أراد أن يعبر فيها عن مدى سعادته، وأنسه بهذه الليالي.

ويتحسر على ما مضى من أيام السعادة التي خلعها عليه الدهر، ويشبهها كأنها مصبوغة من شباب الممدوح النضير، ولكنه يؤكد أن ليل الوصال السعيد قصير مهما طال[1]: (البحر الكامل)

وأهـــاً لعطفـــك!! والزمـــان كأنمـــا صـــبغت غضـــارته ببـــرد صـــباك

والليـــل مهمـــا طـــال قصّـــر طولـــه هـــاتي وقـــد- غفـــل الرقيـــب- وهـــاك

فالليل هنا المدة الزمنية، وليس الليل بمعناه الحقيقي ولكنه رمز لها بالليل؛ لأن فيه ستر عن عيون الوشاة، والدهر نائم غافل، وهذه المدة قضاها في نعيم أبي الوليد بن جهور قبل أن يفسد الواشون علاقته بأبي الوليد[2]: (البحر المتقارب)

وليـــالي نامـــت عيـــون الوشـــا ة عنّـــا، وعـــين الرضـــا لـــم تـــنم

ومالـــت علينـــا غصـــون الهـــوى فأجنـــت ثمـــار المنـــى مـــن أمـــم

وأيامنـــا مـــذهبات البـــرود رقـــاق الحواشـــي صـــوافي الأدم

فالليل يطول ويقصر حسب حالة ابن زيدون النفسية[3]: (البحر الطويل)

أجـــل إن ليلـــي فـــوق شـــاطئ نيطـــةٍ لأقصـــر مـــن ليلـــي بآنـــة فالبطحـــا

1- ابن زيدون، الديوان، ص344 – 345.

2- نفسه، ص408 – 409.

3- نفسه، ص161.

فالليل كاتم للسر والصبح له لسان كأنه إنسان يفشي السر[1]: (البحر البسيط)

سـرّان فـي خـاطر الظلمـاء يكتمنـا حتـى- يكـاد لسـان الصـبح- يفشـينا

وهو يتمنى عودة الليالي الحميدة في معرض استذكاره لها، وشكوته من الليالي القاسية التي أمطرت عليه سهام النوائب وأصابته بها، وأدمت قلبه فأصبح ليله طويلاً، ونهاره مليئاً بالأماني الكاذبة، وفي ذلك يقول[2]: (البحر الطويل)

أقرطبـة الغـراء! هـل فيـك مطمـع؟

وهـل كبـدٌ حـرّى لبينـك تنقـع؟

وهـل لليالـيك الحميـدة مرجـع؟

إذا الحسـن مـرأىً- فيـك- واللهـو مسـمع وإذ كنـف الـدّنيا- لـديك- موطّـأ

فزمان النعيم قد ولى، وليالي الأنس قد رثّت[3]:

فقـل لزمـانٍ قـد تـولّى نعيمـه

ورثـت- علـى مـرّ الليـالي- رسـومه

كـم رقّ فيـه- بالعشـيّ- نسـيمه

ولاحـت لسـاري الليـل فيـه نجومـه: "عليـك مـن الصّـبّ المشـوق سـلام"

1- ابن زيدون، الديوان، ص146.

2- نفسه، ص132 – 133.

3- نفسه، ص131.

لم يقصد ابن زيدون بالليل الليل الحقيقي في الغالب، ولكنه استخدمه؛ ليعبر به عن الفترة الزمنية التي سعد بها، ووظف الليل لما يحمله من معاني الستر والأنس، وكذلك القوة الفاعلة التي تتحكم بالأمور فتقلبها كيف تشاء، وفيما سبق لاحظنا أنه سعد بالليل، فكان قصيراً، وطال عليه الليل عندما تكالبت عليه المصائب والحوادث، وفي أثناء سعادته كان يتمنى أن يطول ويخاف ويخشى زواله، وهو لا يحبذ النهار، فالنهار كاشف له، وهذا لا يعني أنه كان يسعد بالليل ويشقى بالنهار، فاليوم بأكمله ليله ونهاره كان سعيداً به، ويتمنى عودته، فاليوم ربما يعبر عن حاضره، والليل عن ماضيه.

وعندما يتذكر هذه الأيام يتمنى عودتها تنهال الدموع شوقاً لها، كما تتساقط حبات العقد[1]: (البحر الطويل)

تـــــذكرت أيـــــامي بهـــــا، فتبـــــادرت دمـــــوع، كمـــــا خـــــان الفريـــــد نظـــــام

فالأيام منحته السرور، وأقبلت عليه، فيتمنى عودتها، ويحن لها[2]: (البحر البسيط)

ســـــقيا لعهـــــدك والأيـــــام تقبلنـــــي وجـــــه الســـــرور بـــــه جـــــذلان مقتـــــبلا

وغيرها الكثير من الأبيات التي عبّر فيها عن الأيام التي أسعدته، وهذا بالمقابل تحدث بأبيات كثيرة عن الأيام التي أشقته، وهذا يعكس الصراع الذي عاشه ابن زيدون بين وصوله إلى ما

1- ابن زيدون، الديوان، ص152.

2- نفسه، ص179.

كان يصبو إليه، وفقدانه ما كان يصبو إليه، فالأيام التي أسعدته كثيرة، والأيام التي حلت به، وأشقته كثيرة[1]: (البحر الكامل)

في كل يوم ننتحى برزيّة للأرض- من برحائها- زلزال

وكذلك قوله[2]: (البحر الخفيف)

من عذيري من ريب دهر خئون؟ -كلَّ يومٍ -أراع منه بغدرِ

وكثيراً ما نجد ابن زيدون في قصائده المدح يبرز الجانب الحسن من الدهر، فالدهر بأيامه ولياليه خادم للممدوح[3]: (البحر متقارب)

ولا يزل الدهر أيامه لكم حشم والليالي خدم

فزمن الممدوح زمن مليء بالنعيم لما أغدقه على الناس، وعلى ابن زيدون[4]: (البحر الكامل)

زمن كما راق السقيط من الندى يستن في صفحات ورد يانع

فيدعو الله أن يحفظ هذا الزمن الذي أتى بالممدوح الذي أنعم عليهم[5]: (البحر الرمل)

يا أخا البدر سناء وسنا حفظ الله زمانا أطلعك

1- ابن زيدون، الديوان، ص531.

2- نفسه، ص232.

3- نفسه، ص417

4- نفسه، ص400.

5- نفسه، ص167.

وأحياناً يجعل ابن زيدون الممدوح من طوّع الدهر، وأرغمه أن يكون جواداً كريماً يأتي بالمسرات[1]: (البحر الطويل)

فِصاد أطاب الدهر، فالقطر في الثرى كما طاب ماء الورد في العنبر الورد

لقد أوفت الدنيا بعهدك نضرةً كأنك قد علمتها كرم العهد

لدى زمن غض أنيق فرنده كمثل فرند الورد في خجلة الخدّ

نسوّغ منه العيش في ظل دولةٍ مقابلة الأرجاء بالكوكب السعدَّ

ويلجأ ابن زيدون كثيراً إلى استخدام الدهر بالوجه الحسن، وذلك في أوقات مسراته، وفي قصائد المدح، فيجعل الدهر رامياً محترفاً، يرمي أعداء الممدوح بنبال تبطش بهم [2]: (البحر الوافر)

ولا زالت نبال الدهر تصمى عداتك أيها الملك النبيل

ويشخص الأزمان، ويجعلها تضحك، وكأن شخصاً أضحكها بشيء ما، وهو الممدوح، كما تضحك الأرض عندما ينبت فيها الزهر، فتكون رائحة مبهجة، فكذلك الدهر مقبل عليهم لأن الممدوح هو الذي طوع الدهر؛ ليغدق عليها بنعمائهِ[3]: (البحر الرمل)

تضحك الأزمان من علياكما ضحك الرّوضة عن ثغر زهر

ويكرر هذا المعنى في قوله[4]: (البحر الطويل)

1- ابن زيدون، الديوان، ص500.

2- نفسه، ص334.

3- نفسه، ص519.

4- نفسه، ص497.

ولــولاك لــم يســهل مــن الــدهر جانــب ولا ذلَّ مقتــــــــاد، ولا لان معطــــــــف

فالدهر هو من قدم المساعدة لابن زيدون؛ للقاء حبيبته، وبلوغ أمانيه، وفي ذلك يقول: [1] (البحر الطويل)

أحِبّتنـــــا: إنّـــــي بلغـــــت مُـــــؤمَّلي وســـــاعدني دهـــــري وواصـــــلني حبّـــــي

فالدهر يقدم المساعدة لابن زيدون؛ لبلوغ غايته التي طمح إليها، وهي لقاء الحبيبة، فالدهر يتقلب عند ابن زيدون حسب حالته النفسية، فإن راق له العيش وصفا مدح الدهر، ونسب إليه الحسن، وإن ساءَه العيش سخط عليه، وذمه وشكاه، ونسب إليه ما آل اليه.

فالليالي السعيدة التي توالت على ابن زيدون كثيرة، فنعم بهذه لليالي بالسرور بقدوم الحبيب، عندما غفل الرقيب عنهما، وفي ذلك يقول: [2] (البحر المتقارب)

ليـــالَي مـــا انفـــكَّ يُهـــدي الســـرور جيـــــبٌ ســـــرى، ورقيـــــبٌ غفـــــلْ

وكذلك الطبيعة الجميلة الفاتنة أهدت للشاعر السعادة، كما أهدى الحبيب السعادة له، فسعد بأيام كثيرة، وكان كثيراً ما يمدح تلك الأيام، ويدعو لها: [3] (البحر الطويل)

ويـــــوم يجـــــوفيَّ الرصـــــافة مـــــبهج

1- ابن زيدون، الديوان، ص120.

2- نفسه، ص127.

3- نفسه، ص130.

مررنـــــا بـــــروض الأقحـــــوان المـــــدبّج

وقابلنـــــا فيـــــه نســـــيمُ البنفســـــج

ولاح لنـــــا وردٌّ بخـــــدٍّ مضـــــرّج تـــــراه أمـــــام النَّـــــور وهـــــو إمـــــام

وأكـــــرم بأيّـــــام "العُقـــــاب" السّـــــوالف

ولهـــــو أثرنـــــاه بتلـــــك المعـــــاطف

بســـــودٍ أثيـــــثِ الشـــــعرِ بـــــيض السَّـــــوالفِ

فالدهر هو من جلب إليه المحبوبة، ومنحه اللحظات السعيدة خلسة، فيشخص الدهر، ويجعل له أكفّاً مانحةً. [1] (البحر الوافر)

ولمّـــــا أن جلتـــــكِ لِـــــيَ – اختلاســـــاً أكـــــفُّ الـــــدّهر للحـــــين المتـــــاحِ

فالزمان هو الذي أهدى إلى ابن زيدون المودة، فابن زيدون يقدم شكره للزمان: [2] (البحر البسيط)

إنَّ الزمـــــان الـــــذي أهـــــدى مودّتـــــه إلـــــيَّ مـــــرتهن شـــــكري بمـــــا فعـــــلا؟

1- ابن زيدون، الديوان، ص149.

2- نفسه، ص194.

ثانيا: الدهر الزمني في شعر ابن زيدون:

أولاً: الزمن الكلي (الماضي، الحاضر، المستقبل):

استخدم ابن زيدون الدهر بكلا الدلالتين: الزمن الحقيقي، والزمن الفاعل القوة المغيرة القاهرة، وفيما سبق تكلمنا عن القوة الفاعلة التي جعلت ابن زيدون في صراع بين نعيم الدهر وبؤسهِ، وهذا كلّهُ إن دلَّ على شيء فإنه يدلُّ على أنَّ الدهر متقلب، لا يؤمن جوانبه، فإن أنعم عليه مرة فقد ساءهُ مرات، فلاحظنا تقلبات الزمن على ابن زيدون، والحال التي كان عليها، والحال التي آل إليها، فاستخدم الزمن الحقيقي – بماضيه وحاضره ومستقبله – سواء بما دلَّ عليه من أسماء أو أفعال، ورأيناه في حاضره كيف يتألم من هذا الحاضر، ويحمل الدهر مسؤولية الأحداث التي أصابته، ويحاول الهروب إلى الماضي؛ لعلّه يستعيد شيئاً من الذكريات الجميلة التي أنس وسعد بها.

فالماضي يشكل له في غالب الأحيان السعادة، فقد نعم بوصل الحبيبة، وقربه من الحكام، وأنسه في بلده، وتمتعه بليالي الأنس، بينما الحاضر يشكل له التعاسة، وأنه فقد كل شيء، فقد نالته القطيعة من المحبوبة، وجفاء الحاكم له، وسجنه وتشريده من بلده، وكان يتطلع إلى المستقبل؛ لعله يعود إلى سابق عهدهِ بالماضي، فينعم بوصل محبوبته، والعودة إلى بلدهِ، ويتقرب من الحكم، فيتمنى أن يعود به الزمن إلى الماضي: [1] (البحر الخفيف)

هـــل لحـــالي زماننـــا مـــن رجـــوع؟ أم لماضـــي زماننـــا مـــن مكـــر؟

أيـــن أيامنـــا؟ وأيـــن ليـــالٍ كريـــاض لبســـن أفـــواف زهـــر؟

1- ابن زيدون، الديوان، ص233.

فالماضي يمثل له السرور، فعندما يستذكره تفيض عيناه بالدموع، لأنّه سعد بتلك الأيام، ونال فيها ما طمح إليه، والذي يدعوه للعودة للماضي حاضره المؤلم، فالدهر قد بدلّ حاله، وأحلَّ به المصائب، بعد أن كان سعيداً، فهو يحاول أن ينسى آلامه بعودته إلى الماضي، وهو يتناص مع بيت امرئ القيس حين بلغه مصرع أبيه، وكان في مجلس لهو وشراب، فهو يريد أن يشرب حتى يثمل، ولا يصحو، حتى يكون بعيداً عن ما آل إليه من مصائب، لعلّها تغيب عن ذهنهِ، فينساها، ولو للحظات، فاليوم يريد أن يطويه النسيان، أمّا الغد فله شأن أخر؛ لعله يحصل فيه التغير: [1]

(البحر الطويل)

تنشــق – مــن عَــرْفِ الصَّــبا – ماتنشَّــقا

وعـــــاوده ذكـــــر الَصِّـــــبا فتشـــــوقا

ومـــا زال لمـــعُ البـــرق – لمَّـــا تألقَّـــا

يهيـــب بـــدمع العـــين حَتّـــى تـــدفَّقا، وهـــل يملـــك الـــدَّمع المشـــوق المصّـــبأ؟

خليلـــيَّ – إن أجـــزع فقـــد وضـــح العـــذر

وإن أســـتطع صـــبراً فمـــن شـــيمتي الصـــبّر

وإن يـــك رُزْءاً مـــا أصـــاب بـــه الـــدهر

ففـــي يومنـــا خمـــرٌ، وفـــي غـــدهِ أمـــرُ ولا عجـــــــبٌ، إن الكـــــــريم مُـــــــرزَأ

1- ابن زيدون، الديوان، ص132.

فيستذكر الماضي كلمع البرق سريعاً، ولا يملك عودته بكل ما فيه من ذكريات جميلة، فتتدفق دموعه غزيرةً حزناً على تلك الأيام، فيدعو نفسه للصبر على ما حَلَّ به، ويرى أنّه أهلٌ للصبر، وأهلٌ لتحمل المصائب: [1] (البحر الطويل)

تـــــذكرت أيَّـــــامي بهـــــا، فتبـــــادرت دمـــــوعٌ، كمـــــا خـــــان الفريـــــد نظـــــام

وهو يتمنى عودة تلك الليالي الحميدة التي قضاها: [2] (البحر الطويل)

أقرطبـــةِ الغـــراء! هـــل فيـــك مطمـــع؟

وهـــــل كبـــــدٌ حـــــرّى لبينـــــك تنقـــــع؟

وهـــــل لليـاليـــــك الحميـــــدةٌ مرجـــــع؟

إذ الحســن مــرأى – فيــك – واللهــو مســمع وإذ كنـــــف الـــــدُّنيا – لـــــديك – مُوطَّـــــأ

فهو لا يستطيع نسيان تلك الأيام الجميلة التي قضاها في صباه: [3] (البحر الطويل)

أأنســـــى زمانـــــاً "بالعُقـــــاب" مغفـــــلا؟

وعيشـــــاً بأكنـــــاف "الرُّصـــــافة" دغفـــــلا؟

ومغنـــــــى – إزاءَ "الجعفريـــــــة" أَقـــــبلا

1- ابن زيدون، الديوان، ص152.

2- نفسه، ص133.

3- نفسه، ص133-134.

لـــنعم مـــرادُ الأنـــس روضـــاً وجـــدولا ونعـــــم محـــــلُّ الصَّـــــبوة المتبـــــوَّأ

فالشاعر بعد أن فارقته الحبيبة، ولم يبقَ له منها سوى ذكريات الماضي، فإنه أصبح في الحاضر يتلوع، وانقلب النعيم الذي منحه إياه الدَّهر إلى ويلات ومصائب حلت به، فأصبح لا يهنأ بشيء، وأصبحت حياته مآسي يتجرعها كل لحظة بعد الفراق: [1] (البحر البسيط)

إنّـــا قَرأنـــا الأســـى يـــوم النَّـــوى سُـــوَراَ مكتوبـــــةٌ، وأخـــــذنا الصَّـــــبر تلقينـــــا

وكذلك قوله في تكرار المعنى نفسه، فهو يأسف لفراقهم، ولا يطرب لشيء لا للخمر حين يسرع دبيبها في الجسم، ولا يهتز للأوتار حين تأسر ألحانها القلوب، ولا يتعلل إلا بتسمع أخبارهم: [2] (البحر الطويل)

أســـفت، فمـــا أرتـــاح – والـــرَّاح تعمـــلُ –

ولا أســـعف الأوتـــار – وهـــي ترسَّـــلُ –

ولا أرعـــوي عـــن زفـــرةٍ – حـــين أعـــذلُ –

ولاي – مـــــذ فـــــارقتكم – متعَّلـــــل ســـوى خبـــر مـــنكم – علـــى النَّـــأي – يطـــرأ

فبعد أن انقلب عليه الدهر، وفرق بينه وبين المحبوبة، أصبح لا يطيب له المنام، ولا يسوغ له الشراب، فالمحبوبة كالشمس التي توارت عن عينه، وحجبت فأصبح لا يراها، وكأن هناك حائلاً

1- ابن زيدون، الديوان، ص146.

2- نفسه، ص138.

بينهما، وإن طلعت فهي كالبدر حين يبدو نوره ساطعاً من وراء السحابة الخفيفة، وكذلك وجه الحبيبة ينير، ويشرق من تحت النقاب: [1] (البحر الجتث)

اللهُ يعلـــــــــــم أنـــــــــــي أصـــــبحت فيـــــك لمـــــا بـــــي

فـــــــلا يطيـــــــب منـــــــامي ولا يســـــــــــــوغ شـــــــــــرابي

يـــــــا فتنـــــــة المتقـــــــرّي وحجَّـــــــــــة المتصـــــــــــابي*

الشـــــمسُ أنـــــتِ، تـــــوارت عـــــن نـــــاظري – بالحجـــــاب

مـــــا البـــــدر شـــــقَّ ســـــناه علـــــى رقيـــــق السّـــــحاب

إلا كوجهـــــــــــكِ، لمّـــــــــا أضـــــــاء تحـــــــت النِّقـــــاب

فالماضي محمود بكل ما فيه من مسرات حظي بها ابن زيدون، وكذلك الماضي محمود بشبابه، أما الحاضر فقد زالت عنه النعم، وتقلب عليه الدهر وحلَّ به الشيب، فهو يتمنى أن يكون مستقبله كماضيه، من خلال إيمانه بتقلب الزمان بين الإحسان والإساءة، فإن أساء الزمان له يوماً، فلا بدَّ أن يحسن إليه، ويعتذر عن الإساءة، ويكرر هذا المعنى كثيراً في كثير من القصائد: [2] (البحر الطويل)

إســـاءة دهـــر أحســـن الفعـــل بعـــدما وذنـــب زمـــان جـــاء يتبعـــه العُـــذر

1- ابن زيدون، الديوان، ص150.

2- نفسه، ص523.

وقوله: [1] (البحر الرمل)

ولـــــئن ســـــاءك يـــــومٌ فـــــاعلمي أن ســـــــــيتلوه ســـــــــرور بغـــــــدِ

وقوله: [2] (البحر الخفيف)

إن أســـــاء الزّمـــــان أحســـــن دأبـــــا مثلمـــــا بـــــاين النَّقـــــيض النَّقـــــيض

فالزمان إن أساء بادر بالإحسان، كما يفعل المتناقضان.

فالماضي منح السرور لابن زيدون، أمّا الحاضر فحول الضحك بكاءً، فالزمان الحاضر زمان لا يرجى منه الوصال، والجمع بين ابن زيدون ومحبوبته، وذلك في قوله [3] (البحر البسيط)

إن الزمـــان الـــذي مـــا زال يضـــحكنا أنســـاً بقـــربهم قـــد عـــاد يبكينـــا

غـيظ العـدى مـن تسـاقينا الهـوى فـدعوا بـــأن نغـــصَّ فقـــال الـــدهر آمينـــا

فانحـــل مـــا كـــان معقـــوداً بأنفســـنا وانبـــت مـــا كـــان موصـــولاً بأيـــدينا

وقـــد تكـــون ومـــا يخشـــى تفرقنـــا فـــاليوم نحـــن ومـــا يرجـــى تلاقينـــا

1- ابن زيدون، الديوان، ص175.

2- نفسه، ص241.

3- نفسه، ص143.

بنى ابن زيدون هذه القصيدة على الثنائية الضديَّة التي بين فيها حاله مع المحبوبة قبل القطيعة، والحال التي آل إليها بعد القطيعة، فهذه المتناقضات هي من أبرزت الحال التي آل إليها الشاعر، وبينت مرارة الفراق، ووضحت الفارق الكبير بين الزمن الماضي والزمن الحاضر، فالدهر هو من تسبب بهذا كلِّه، فهو من منح الوصال، وهو من تسبب بالفراق، هذه الثنائيات الضدية وضحت المعنى، والفارق بين الماضي والحاضر، ونلاحظ أن الشاعر استخدم بعض الكلمات بعكس صيغتها، فعبر عن الماضي بصيغة المضارع؛ أملاً من الشاعر أن يستمر الماضي بكل ما يحمله من سعاده.

فالحاضر مؤلم حيث فقد حبيبته، وبَعُدَ عن وطنه وأهله، وفقد مكانته ودخل السجن بعد أن كان عزيزاً، أصبح مسجوناً مقيد الحرية، فيتذكر أيامه الخالية، ويحاول أن يقرنها بحاضره الذي آل إليه بكل ما هو قاسٍ ومؤلم، فيزيده حزناً وقهراً، ويذكر أن هذا ما فعله الزمن به.

ثانياً: الزمن الجزئي:

كان للزمن بكل أجزائه حضور في شعر ابن زيدون، الذي استخدم الزمن بكلا الاستخدامين الحقيقي والمجازي (القوة الفاعلة) التي أثرت عليه، وقلبت حياته من النعيم إلى البؤس، وردت ألفاظ الدهر ومتعلقاته في ديوان ابن زيدون بنسب متفاوته، فشاعت الأوقات الطويلة "كالدهر، الزمان، واليوم، والليل ..." وقلت الأوقات القصيرة "كالفجر، الصبح، والمساء، والساعات، واللحظات ...

عاش في زمن مليء بالتعاسة والشقاوة، فقد خسر كل شيء حازه، فأصبح يقاسي طول الوقت، ويتمنى زواله؛ وفي ذلك يقول: [1] (البحر المجتث)

فطـــــــــال ليلـــــــــكِ بعـــــــــدي كطـــــــــول ليلـــــــــي بعـــــــــدك

فالأوقات المشينة تكون طويلةً على المهموم، بينما الأوقات السعيدة تكون قصيرةً، فراوح ابن زيدون في ذكر الأوقات القصيرة، فكانت قليلةً في ديوانه، ربما لأن الأوقات السعيدة التي عاشها مرت بسرعة، فأصبحت في نظره قصيرةً، وأكثر من ذكر الأوقات الطويلة في ديوانه ربما لأنها غيرتّ حاله، وانقلب الزمن عليه، فوُلّدَ عنده إحساس بطول الأوقات، فأهتم بالأوقات الطويلة.

وعبر ابن زيدون عن هذا الإحساس – اختلاط الفرح بالحزن – فالقديم كان يضحكه، ويبعث الفرح في نفس، وأصبح الزمن الحاضر يبكيه، ويبعث اليأس في أعماقه، فابن زيدون يرى أن الزمن ثابت لا يتغير يؤثر في الأشياء فيغيرها، ولا يبقيها على حالها، فهو قاهر للآخرين ومبكٍ لهم، فالدهر مسؤول يهب السعادة ويسلبها أنى شاء.

سيتناول موضوع الزمن الجزئي الحديث عن بعض الأوقات الطويلة والقصيرة التي وردت في الديوان، وقد ورد في الديوان جميع الأوقات من أطول وقت إلى أقصر وقت.

1. العصر: هو الدهر، أو ساعة من ساعات النهار، والجمع "أعصُرٌ، وأعْصار، وعُصْرٌ، وعُصورٌ "ولكن ما عنته المفردة عند ابن زيدون هي فترة زمنية في عصر من العصور، أو

1- ابن زيدون، الديوان، ص165.

مرحلة زمنية معينة، وقد قصد بها الحقبة الزمنية في مرحلة من المراحل، أو وقت من الأوقات.

وفي ذلك يقول ابن زيدون: [1] (البحر الطويل)

تعــزَّ بحــوَّاء – التــي الخلــقُ نســلها – فمــن دونهــا، فــي العصــر يتبعــه العصــر

نســـاء النبـــي المصـــطفى أمهاتنـــا ثـــوين، فمغنـــاهُنّ – مـــذ حقـــبٍ – قفـــر

وهذه الأبيات من قصيدة طويلة لابن زيدون، معزيّاً الأمير أبا الوليد بن جهور في أمه، متهماً الدهر هو السبب الذي أحدث هذه المصيبة، وأن لا سبيل أمام الدهر سوى الصبر. فيخاطب أبا جهور، ويعزيه في أم البشر حواء، ومن تلاها من عظيمات النساء عبر العصور، وكذلك يعزيه بأمهات المؤمنين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم. اللاتي أقفرت بيوتهن منهن، فالبيوت أصبحت خاوية منهنّ منذ عصور سحيقة. فالمقصود بالحقبة العصور ذات المدد الطويلة القديمة.

وكذلك يستخدم ابن زيدون العصر بمعنى المدة القصيرة التي له عهدٌ بها (التي عاصرها) وذلك في قوله: [2] (البحر الرمل)

أصـــبحت دولتُـــهُ فـــي عصـــرنا كفرنـــدٍ عـــاد فـــي ســـيف صَـــدِى

1- ابن زيدون، الديوان ، ص545.

2- نفسه، ص447.

هذا البيت من قصيدة بعثها إلى المعتضد، يذكر فيها أن دولته ازدهرت بعد ذبول، كما يتألق السيف، ويعود إليه وشيه ورونقه بعد الجلا، فلم ترد لفظة العصر في ديوان ابن زيدون سوى ثلاث مرات، ومرة بلفظ "حقب" والمقصود بها العصور.

فتحدث ابن زيدون عن العصور منذ القديم، وبين أن عجلتها تتحرك من عصر آدم وحواء إلى عصره، فحديثة عن النساء التي توالى ذكرهن على مرّ العصور من زمن حواء إلى نساء النبي أمهات المؤمنين إلى أم أبي الوليد بن جهور؛ ليعزي أبا الوليد بن جهور بفقد أمه ليقول له: كثير من النساء العظيمات على مرّها فقدن.

2. الزمان:

استخدمه بكلا المعنيين الحقيقي والقوة الفاعلة، ففي استخدمه للمعنى الحقيقي قصد به المدة الطويله من الوقت، وكذلك المدة القصيرة من الوقت، وما لاحظناه من خلال إحصاء الأبيات التي ورد فيها لفظه الزمان، أو زمن أن ابن زيدون استخدمه في الغالب بالمعنى الإيجابي (زمن سعد به)، وذلك في قوله: [1] (البحر الوافر)

وأنّـــي – مـــن ظلالـــك – فـــي زمـــان نـــــدي الآصـــــال رقـــــراق الضـــــوَّاحي

1- ابن زيدون، الديوان، ص436.

وكذلك للزمان الجانب السلبي فقد وصفه بأنه غدار، وذلك في قوله: [1] (البحر الطويل)

أعبّـــاد يـــا أوفـــى الملـــوك لقـــد عـــدا عليـــك زمـــانٌ، مـــن ســـجيته الغـــدر

وكذلك وصفه بأنه زمان أدهم مظلم، وذلك في قوله: [2] (البحر الكامل)

ملـــــك تطلّـــــع للخـــــواطر غُـــــرّةً زهـــــراء يبـــــديها الزمّـــــان الأدهـــــم

واستخدم الزمن وقصد به مرحلة من مراحل العمر، وذلك في وقوله: [3] (البحر المتقارب)

وراحٌ تعيـــــد إلـــــى مـــــن أســـــنَّ طيـــــب زمـــــانِ الصِّـــــبا المقتبـــــل

واستخدم الزمن وقصد به المدة القصيرة، وذلك في قوله: [4] (البحر الطويل)

أأنســـــى زمانـــــاً "بالعقـــــاب" مغفـــــلا؟

وعيشـــاً بأكنـــاف " الرصـــافة " دغفـــلا؟

واستخدم الزمن وقصد به المدة الطويلة، وذلك في قوله: [5] (البحر الطويل)

وإن يـــك فـــي أهـــل الزمـــان مُؤَمّـــل فأنـــت الشـــراب العـــذب وهـــو ســـراب

1- ابن زيدون، الديوان، ص564.

2- نفسه، ص314.

3- نفسه، ص222.

4- نفسه، ص134.

5- نفسه، ص384.

3. الدنيا: استخدم ابن زيدون الدنيا بمعنى مدة الحياة الدنيا، استخداماً حقيقياً واستخداماً بمعنى القوة الفاعلة، وذلك في قوله: [1] (البحر الطويل)

حمـــدتم مـــن الأيـــام – لـــين خلالهـــا

وســـــرَّتكم الـــــدنيا بحســـــن دلالهـــــا

وقوله: [2] (البحر الطويل)

فـــلا تهـــض الـــدنيا جناحـــك بعـــده فمنـــك – لمـــن هاضـــت نوائبهـــا – جبـــر

واستخدم الدنيا بمعنى المدة الزمنية، وذلك قوله: [3] (البحر الطويل)

بشـــراك دنيـــا غضـــة العهـــد طلقـــة كمـــا ابتســـم النُـــوّارُ عـــن أدمـــع النـــدى

وقوله: [4] (البحر الطويل)

ســـيخلد فـــي الـــدنيا بـــه لـــك مفخـــر ويحســـــن فـــــي دار الخلـــــود مـــــآب

4. العام: ذكر العام مرة واحدة في ديوان ابن زيدون، في معرض مدح الأمير ابن جهور، وتهنئته بالعيد، فذكر العام مصحوباً بالعدد ألف، والعام كما هو معروف للخير، ولم يقل

1- ابن زيدون، الديوان، ص138 .

2- نفسه، ص574.

3- نفسه، ص486.

4- نفسه، ص380.

سنة، وذلك في قوله: [1] (البحر الطويل)

تلقـــاك بالبشـــرى وحيّـــاك بـــالمنى فبشـــراك ألـــفٌ بعـــد عامـــك قابـــل

5. الفصول:

لم ترد كلمة فصل أو فصول في ديوان ابن زيدون، إنما وردت كلمة ربيع 6 مرات، فقد اتخذت بعداً وصفياً جمالياً في معظم الأحيان، وذلك لقوله: [2] (البحر الطويل)

ولا ألّفـــت أيـــدي الرَّبيـــع بـــدائعي فمـــن خـــاطري نثـــرٌ ومـــن روضـــه لقـــط

وهذا البيت من قصيدة بعثها إلى أستاذه أبي بكر مسلم بن أحمد يشرح حاله ويرجو الشفاعة، ويقول له: لولاك ما أبدعت أثاراً من خواطري، فالربيع التقط الأثار، وأبرزها للأعين أزهاراً ونوّاراً.

وقد استخدمها؛ ليبين أنه يعيش في عهد جميل كالربيع، وأنه في سعة من العيش في ظل الممدوح، وذلك في قوله: [3] (البحر البسيط)

مُمتـــعٍ بـــالرَّبيع الطَّلـــق نازلهـــا يليـــهِ عـــن طيـــب آصـــالٍ نـــدى بكـــر

وكذلك في قوله: [4] (البحر الرمل)

نحـــن مـــن نعمـــائكم فـــي زهـــرةٍ حَـــدَّدت عهـــد الربيـــع المقتبـــل

1- ابن زيدون، الديوان، ص396.

2- نفسه، ص289.

3- نفسه، ص257.

4- نفسه، ص341.

6. الشهور:

ذكر لفظة الشهور مرةً واحدةً، ولكن ابن زيدون ذكر لفظة الشهر ثلاث مرات، وذكر ألفاظاً دالةً على الأشهر منها: كانون، وأيلول، ونيسان، مرة لكل منهما، وفي لفظة الشهور أسند إليها خير الشهور ليدلُّ بها على شهر رمضان، وذلك في قوله: [1] (البحر الكامل)

خيـــر الشـــهور اختـــرتِ عنـــد طلوعـــهِ خيـــــر البقـــــاع لـــــه بأســـــعد طـــــالع

وليدلُّ على أنه خير الشهور لتأدية الطاعات، وأسنده إلى شهور الصيام مرتين: وذلك في قوله: [2] (البحر الطويل)

أئـــن ينصـــرم شـــهر الصـــيام لبعـــده شـــأى صـــالح الأعمـــال مـــا أنـــت عامـــل

واستخدم كانون وهو أحد الأشهر ولكن استخدمه ليدلُّ على الشتاء، وأن كانون (الشتاء) طابت به الحياة في ظلال الممدوح رغم أنَّ جوّ الشتاء قارس، تحول إلى جوّ ممتع في ظلال الممدوح، وذلك في قوله: [3] (البحر الطويل)

طـــــاب كـــــانون لنـــــا أثناءَهـــــا فكـــــأَنَّ الشَّـــــمس حَلَّـــــت بالحمـــــل

1- ابن زيدون، الديوان، ص405.

2- نفسه، ص396.

3- نفسه، ص341.

وكذلك استخدم أيلول ليدلَّ على الخريف، ونيسان ليدلَّ على الربيع، وذلك في قوله: [1] (مجزوء الكامل)

قـــــد قلـــــت – لمـــــا هزَّنـــــي منـــــــه البـــــــديع المنتقـــــــد:

"نســـــــيمُ أيلـــــــول ســـــــرى؟ أم ورد نيســـــــــــــــــــانٍ ورد؟"

استخدم الشهر؛ ليبيّن أنَّ بني جهور أفضل الناس رغم أنهم من الناس، كما أن الجمع من أيام الشهر، ولكنها تفضّل عليها، وذلك في قوله: [2] (البحر البسيط)

مـــن الـــورى، إن يفوقـــوهم فـــلا عجـــب لـــذلك الشَّـــهر مـــن أيَّامـــه الجمـــع

7. أسبوع:

لم ترد في ديوان ابن زيدون إلا مرة واحدة، وذلك في معرض التهئنة بزواج المعتضد، وأن المعتضد سيغيب عنه أسبوع، وسيشعر ابن زيدون بالوحدة، فهو أسبوع أنس على المعتضد بزواجه، ولكنه أسبوع وحشة لدى ابن زيدون، لأنهّ سيقضيه وحده، رغم قصر الأسبوع، ولكنه طويلٌ على ابن زيدون، وذلك في قوله: [3] (البحر الكامل)

أســـبوع أنـــسٍ محـــدثٌ لـــي وحشـــةً علمـــاً بـــأنيّ فيـــه لســـتُ أراكـــا

1- ابن زيدون، الديوان، ص603.

2- نفسه، ص298.

3- نفسه، ص443.

8. الأيام:

تكررت هذه المفردة في شعر ابن زيدون ثمانين مرةً، دلت على الزمن الحقيقي، ودلت على الدهر القوة الفاعلة التي غيرت، وأثرت في حياة ابن زيدون، ومن ذلك قوله: [1] (مجزوء الوافر)

وكـــــــائن رامـــــــت الأيـــــــام ترويعـــــــي فلـــــــم أرتـــــــع

وقوله: [2] (البحر البسيط)

حالـــــت لفقـــــدكم أيامنـــــا، فغـــــدت ســـــوداً، وكانـــــت بكـــــم بيضـــــاً لياليـنـــــا

فالأيام حالت بين الشاعر وبين محبوبته، وأصبحت لياليه سوداً بعد أن كانت مشرقة، وكان هانئاً بها، وأن أيامه البيض أصبحت سوداً كذلك.

وابن زيدون مؤمن بأن الأيام تتغير، فإن أساءه يومٌ فسوف يأتي عليه يوم أخر يحمل معه المسرات، وذلك في قوله: [3] (البحر الرمل)

ولـــــئن ســـــاءَكِ يـــــومٌ فـــــاعلمي أن ســـــــيتلوه ســـــــرور بغـــــــد

نجد أن ابن زيدون سعد بأيام كثيرة، وشقي بأيام، ولكن من خلال تتبع الأبيات التي وردت فيها كلمة يوم، نجد أنَّ أغلبها عاشها ابن زيدون بسعادة، ولكنها قصيرة مرت مسرعة، لأنّ أيام

1- ابن زيدون، الديوان، ص579.

2- نفسه، ص143.

3- نفسه، ص175.

السعادة سرعان ما تزول، فهو يبكي على هذهِ الأيام التي قضاها بسعادة، ويتمنى عودتها ويحنُّ إليها، وذلك في قوله: [1] (البحر الطويل)

تـــــذكرتُ أيّـــــامي بهـــــا، فتبـــــادرت دمـــــوعٌ، كمـــــا خـــــان الفريـــــد نِظـــــام

وإذا حلت به مصيبة في يوم جعلها تتكرر في كل يوم، دلالة على قسوة اليوم، فهو لا يستطيع نسيانه، فهو يتكرر عليه كل يوم في تذكرها، ربما بفقد عزيزٍ عليه فهو لا يستطيع أن ينساه، فعبر عن ذلك بقوله: [2] (البحر الكامل)

فـــــي كـــــل يـــــوم ننتحـــــى برزَّيـــــة، لـــــلأرض – مـــــن برحائهـــــا – زلـــــزال

وقوله: [3] (البحر الخفيف)

مـــن عـــذيري مـــن ريـــب دهـــرٍ خـــؤون كـــــل يـــــوم أراع منـــــه بغـــــدر

ونلاحظ كلمة الأيام بصيغة الجمع أنها تكررت في الغالب لتدلَّ على أيام السرور، ورغد العيش الذي هنئ به شاعرنا، وذلك في قوله: [4] (البحر البسيط)

ســـــقيا لعهـــــدك والأيـــــام تقبلنـــــي وجـــــه الســـــرور بـــــه جـــــذلان مقتـــــبلا

1- ابن زيدون، الديوان، ص152.

2- نفسه، ص531.

3- نفسه، ص230.

4- نفسه، ص179.

وقوله: [1] (البحر المتقارب)

وأيامنـــــــا مـــــــذهبات البـــــــرود رقـــــــاق الحواشـــــــي صـــــــوافي الأدم

وغيرها الكثير من الأبيات التي يعبر فيها عن الأيام التي سعد بها، ونال ما صبا إليه.

فكما قضى أياماً هنئ بها، كذلك قضى أياماً في ظلمات السجن، وهو في ذلك يقول: [2] (البحر الطول)

مئـــين مـــن الأيـــام خمـــسٌ قطعتهـــا أســـيراً، وإن لـــم يبـــدُ شـــدٌّ ولا قمـــط

فعبر عن السنوات التي سجن بها بالأيام للدلالة على كثرتها، ولم يعبر عنها بالسنوات.

وقد عبر عن الأيام أنها متع وأنها دولٌ بين الناس، فمن نال منها بسعادة سوف يأتيه يوم ينال منه بشقواه، وهي دعوة من ابن زيدون إلى عدم التمسك بالدنيا لانها زائلة: [3] (البحر البسيط)

لـــيس الركـــون إلـــى الـــدنيا دليـــل حجـــى فإنهـــــــا دول أيّامهـــــــا متـــــــع

فالأيام أسرفت في الإساءة لابن زيدون من ذلك أنها عجلت عليه بالشيب، فشاب وهو صغير من كثرة المآسي التي ألمت به، ومن ذلك قوله: [4] (البحر الكامل)

مـــالي وللأيـــام؟ لَـــجَّ مـــع الصِّـــبا عـــــدوانها فكســـــا العـــــذار مشـــــيبا

1- ابن زيدون، الديوان، ص409.

2- نفسه، ص389.

3- نفسه، ص296.

4- نفسه، ص326.

محقـــت هـــلال الّســـن قبـــل تمامـــه وذوى بهـــا غصـــن الشـــباب رطيبـــا

9. النهار:

تكررت كلمة النهار في ديوان ابن زيدون تسع مرات، وذكر الألفاظ التي تدلُّ على وقت من أوقات النهار، وهي أجزاء النهار: الآصال ثلاث مرات، والغدو مرة واحدة، والصباح ستاً وعشرين مرة، والمساء مرتين، وكرر ذكر الفجر والضحى.

وتراوحت استخدامات للنهار بين إطار اللون، بياض النهار، وبين إطار التفاؤل حيناً، والانكدار حيناً آخر، وبين تساوي ضوء النهار بظلمه الليل حيناً، وذلك في قوله: [1] (البحر الكامل)

ســـأحب أعـــدائي لأنـــك مـــنهم يـــا مـــن يُصـــحُّ – بمقلتيـــه – ويســـقم

أصـــبحت تســـخطني فأمنحـــك الرّضـــى – محضـــاً – وتظلمنـــي، فـــلا أتظلـــمَّ

يـــا مـــن تـــآلف ليلُـــهُ ونهـــاره، فالحســـن بينهمـــا مضـــيءٌ مظلـــم

قـــد كـــان فـــي شـــكوى الصَّـــبابة راحـــةٌ، لـــو أننـــي أشـــكو إلـــى مـــن يـــرحم

بنى ابن زيدون هذهِ الأبيات على الثنائية الضدية في التواسل والشكوى إلى من لا يرحم، ألا وهو إنسان مقرب إليه، فأصبح ابن زيدون يحب أعداءه، لأن هذا الشخص الحبيب، والمقرب أصبح منهم، وهو شخص يقدم الداء والدواء في آن واحد، وهو يسخط عليه وابن زيدون يقابله بالرضى،

1- ابن زيدون، الديوان، ص181 .

وهذا الشخص يظلم ابن زيدون وهو لا يتظلم منه، وكأنّه يرى في ظلمه شيء طبيعي، فربما تساوى الظلم والعدل من هذا الشخص، رغم أن ظلم القريب قاسٍ على النفس، وكأنه يصور الظلم والعدل بالليل والنهار، ولكن الفرق بينهم بأن الليل مظلم والنهار مضي، فقد تآلف عدله وظلمه كما يتآلف الليل والنهار في قسوتها على ابن زيدون، فالشكوى فيها راحة، لأن الإنسان يخرج ما بداخلهِ، ولكنها انقلبت إلى عذاب، لأنها شكوى إلى شخص لا يرحم.

فانصراف الأمير عنه يظلم النهار عنده، وكأنه بغياب الأمير، وانصرافه عنه يصبح كأنه يسير في العتمة، كحال النهار إذا تغشاه الضباب، فاستخدم النهار الذي يغشاه الضباب؛ ليبين المعنى الذي أراده عند غياب الأمير وانصرافه عنه، وفي ذلك يقول: [1] (البحر الطويل)

فقد تتغشى صفحة الماء كدرةٌ ويغطو على ضوء النهار ضباب

وكذلك قرب الحبيبة منه يمثل الضياء، وغيابها يمثل الظلام، والوحشة وقد استخدم الثنائية الضدية بين النهار والظلمة؛ ليبين الفرق بين قرب المحبوبة منه، ونأيها عنه: [2] (البحر الوافر)

أيوحشني الزمَّان وأنتِ أنسي؟ ويظلم لي النَّهار وأنتِ شمسي؟

فابن زيدون يقضي النهار بالأماني الكواذب؛ ليخفف من قسوة المصيبة التي نزلت به، فالنهار يقضيه بالأمنيات؛ لينقضي مسرعاً، ولكنه يخلد إلى ليل بطيء الكواكب، وهذا كناية عن طول الليل، وعدم زواله، فالليل طويل على المهموم، وفي ذلك يقول: [3] (البحر الطويل)

1- ابن زيدون، الديوان، ص383.

2- نفسه، ص185.

3- نفسه، ص132.

أقضـــــي نهـــــاري بالأمـــــاني الكـــــواذب

وآوي إلـــــى ليـــــلٍ بطـــــئ الكواكـــــب وأبطـــــأ ســـــارٍ كوكـــــب بـــــات يكـــــلأ

وقد يتساوى الليل والنهار في الإشراق كما تساويا في الظلمة، وذلك في الأوقات التي يسعد بها ابن زيدون، وذلك في قوله: [1] (البحر الطويل)

نهـــــارك وضّـــــاح، وليلـــــك ضـــــحيان

وتربـــــك مصـــــبوحٌ، وغصـــــنك نشـــــوان

10-الليل:

لليل حضور فاعل وكثير في ديوان ابن زيدون، فقد ذكره في ديوانه أربعاً وثمانين مرة بلفظ: الليل، وليل، وليلة، وليالي، والليالي، وقد لمح له بألفاظ كثيرة مثل: الظلمة والظلام والدهمة والدجى والاناء والعشاء ...

والليل عند ابن زيدون ليلٌ سعد به وكان مشرقاً، وتمنى طوله، وحزن على زواله؛ لأن زوال الليل تعني زوال المسرة، وطوله استمرار للمسرة، والفرح، وهو في ذلك يقول: [2] (البحر الطويل)

وليـــــلٍ أدمنـــــا فيـــــه شـــــرب مدامـــــةٍ إلـــى أن بـــدا للصـــبح – فـــي الليـــل – تـــأثير

وجاءت نجوم الصبح – تضرب في الدجى – فولّـــــت نجـــــوم الليـــــل، والليـــــل مقهـــــور

1- ابن زيدون، الديوان، ص133.

2- نفسه، ص245.

فحزنـــا مـــن اللـــذات أطيـــب طيبهـــا ولـــم يعرنـــا هـــمٌّ، ولا عـــاق تكـــدير

خـــلا أنـــه لـــو طـــال دامـــت مســـرتي، ولكـــن ليـــالي الوصـــلِ فـــيهنَّ تقصـــير

فالليل كان حافلاً بالمسرات هنئ الشاعر به، وحاز أطيب الملذات، فعكر مجيء الصبح صفوه، فأنسن الليل بأنه مقهور، فالقهر كان لابن زيدون وليس لليل، فنسب القهر من نفسهِ لليل، لأن الشاعر كان لا يتمنى زواله، وتمنى لو طالت تلك الليلة؛ لطالت مسرته، ولكن ليالي الأنس كما يصفها بأنها قصيرة لأ تدوم.

فابن زيدون يدعو لاغتنام هذه الليالي السعيدة، لأنها سرعان ما تزول: [1] (مجزوء الرمل)

واغتـــــنم صـــــفو الليـــــالي إنمـــــا العـــــيش اخـــــتلاس

وليالي الأنس عند ابن زيدون ليالٍ مشرقة تعادل إشراق النهار، وكأنّه النهار من أوله وهو طلوع الفجر، فالليل كأنّه مشرق انفشع ظلامه فلم يعد مظلم، وهو يؤكد بأن ليالي الأنس قصيرة، وفي ذلك يقول: [2] (البحر الخفيف)

يـــا لهـــا ليلـــة تجلـــى دجاهـــا مـــن ســـنا وجنتيـــه عـــن ضـــوء فجـــر

قصـــر الوصـــل عمرهـــا وبـــودي أن يطـــول القصـــير منهـــا بعمـــري

فهو يكرر هذا المعنى في كثير من الأبيات بأن ليالي الوصل فيهنَّ تقصير، وليالي التي يبعد فيها عن محبوبته هي ليالٍ طويلة يقاسي طولها.

1- ابن زيدون، الديوان، ص277.

2- نفسه ، ص121.

فهذه الليالي التي ذهبت لن تعود، فيتسأل عن عودتها: [1] (البحر الطويل)

وهـــــل لليالي ـــــك الحميـــــدة مرجـــــع؟

إذا الحســن مــرأىً – فيــك – واللهــو مســمع وإذ كنـــــف الـــــدنيا – لـــــديك – موَّطـــــأُ

وابن زيدون يشعر بفقد الأمل في عودة الأيام، والليالي الجميلة، وذلك في قوله: : [2] (البحر البسيط)

لا لهـــــو أيّامِـــــهِ الخـــــالي بمرتجـــــعٍ ولا نعـــــــــيمُ لياليـــــــــه بمنتظـــــــــر

ووظف بيض الليالي، وقصد بها الليالي المقمرة، وذلك في قوله: : [3] (البحر البسيط)

هـــم الملـــوك، ملـــوك الأرض دونهـــم كمثـــل بـــيض الليـــالي دونهـــا الـــدرع

وكما أنَّ الشاعر عاش ليلاً هانئاً، وقد عانى من قصره، فقد عاش ليلاً قاسياً عانى من طوله، وتمنى زواله: : [4] (البحر المجتث)

فطـــــال ليلـــــكِ بعـــــدي كطـــــول ليلـــــي بعـــــدك

1- ابن زيدون، الديوان، ص133.

2- نفسه، ص253.

3- نفسه، ص298.

4- نفسه، ص165.

وقوله: [1] (البحر الرمل)

إن يطـــل، بعـــدك، ليلـــي، فلكـــم بـــتُّ أشـــكو قصـــر الليـــل معـــك!

وغيرها من الأبيات التي عبر فيها عن المعنى نفسه. فهو يشكو طول الليل في المآسي على عكس المسرات، يتمنى إذا جن الظلام أن لا يزول، ويبقى إلى آخر الدهر: [2] (البحر الطويل)

يـــودُّ – إذا مـــا جنّـــهُ الليـــل – أنـــه أقـــام عليـــه – آخـــر الـــدهر – ســـرمدا

ويعبر عن الألم والمعاناه من الليل القاسي بالجفاء، وبأن الليل ادلهم ظلامه؛ ليعبر عن قسوة لحظات العزلة، والألم من الوحدة، وفي ذلك يقول: [3] (البحر الطويل)

جفـــاء هـــو الليـــل ادلهـــم ظلامـــه فـــلا كوكـــب للعـــذر فـــي أفقـــه يســـري

وعبر عن الليل بالمصيبة، وذلك في قوله: [4] (البحر الطويل)

فـــلا يـــتهنّ الكاشـــحون!! فمـــا دجـــا لنـــا الليـــلُ إلا ريثمـــا طلـــع الفجـــر

وقد قصد بالليالي الأوقات أو الأزمان، وذلك في قوله: [5] (البحر الكامل)

يـــا أيهـــا الملـــك الـــذي عليـــاؤه مثـــل – تناقلـــه الليـــالي – ســـائر

1- ابن زيدون، الديوان، ص167.

2- نفسه، ص473.

3- نفسه، ص295.

4- نفسه، ص524.

5- نفسه، ص509.

وقوله: [1] (البحر الكامل)

قـــد قـــال شـــاعر كنـــدة فيمـــا مضـــى بيتـــــاً علـــــى مـــــرِّ الليـــــالي يعلـــــم

11-الساعات:

وردت في الديوان مرة واحدة بصيغة الجمع، وأربع مرات بالصيغة المفردة ساعة، ووردت مرتين بمعنى الآناء، وهي ساعة من ساعات الليل، وفي ذلك يقول:[2] (البحر الطويل

بطـــــاهرة الأثـــــواب، قانتـــــة الضـــــحى مســـــبَّحة الآنـــــاء، محرابهـــــا الخـــــدر

وقصد بالساعة ساعة تعرض الأعمال يوم القيامة: [3] (البحر الكامل)

لـــــك صـــــالح الأعمـــــال إذ شـــــيعتها بـــــالبر ســـــاعة تعـــــرض الأعمـــــال

وقصد بالساعة الوقت القصير وربما اللحظات، وذلك في قوله: [4] (البحر الكامل)

فالـــــدهر معتـــــرف بأنـــــا لـــــم نكـــــن لنســـــر منـــــه – بســـــاعةٍ – لولاكـــــا

وكذلك قوله: [5] (البحر المجتث)

1- ابن زيدون، الديوان، ص310.

2- نفسه، ص543.

3- نفسه، ص537.

4- نفسه، ص545.

5- نفسه، ص186.

بـــــــالله خـــــــذ مـــــــن حيـــــــاتي يومـــــــــــاً، وصـــــــــــلني ســـــــــــاعة

أراد بها الوقت القصير.

وفي صيغة الجمع (ساعات) عبر عنها بالوقت الطويل الذي أدام فيه اللهو: [1] (البحر الوافر)

وســـــــاعات يجـــــــول اللهـــــــو فيهـــــــا مجـــــــال الطـــــــل فـــــــي حـــــــدق البهـــــــار

1- ابن زيدون، الديوان، ص205.

الفصل الثالث

دراسة تطبيقية لقصيدة "طال الشماسُ"

دراسة تطبيقية لقصيدة "طال الشماسُ"

أرسل ابن زيدون هذه النفثة الحارة من سجنه إلى صديقه أبي حفص بن برد الأصغر، وتبلغ أبيات هذه القصيدة خمسة وعشرين بيتاً، وبنى هذه القصيدة على مجزوء الرمل، وهو يمتاز بالسلاسة والرقة[1]، وهو من البحور التي يحسن ويجود في الحزن والفرح والزهد[2] وكنا قد أشرنا سابقاً بأن مجزوء الرمل تغلّبَ على بحر الرمل التام، ومجزوءات البحور الأخرى في نسبة نظم الشاعر عليه، وكثرة الأبيات المدورة في هذه القصيدة، فجاء التدوير في أحدَ عشرَ بيتاً، وبنيت القصيدة على حرف السين، وهذه القصيدة رسالة بعث بها ابن زيدون لصديقه من داخل سجنه؛ ليشفع له لدى الأمير أبي الحزم، لعلّهُ يعفو عنه ويُخرِجه من السجن، وهي تجسد حال الشاعر ونفسيته المتعبة المثقلة بالأحزان والألم جراء السجن، وكذلك حاله بين الأمل واليأس، فجاءت متدفقة بالعواطف الصادقة لدى الشاعر، وكذلك بناء القصيدة على الثنائية الضديَّة التي تبين حال الشاعر، ونفسيته المضطربة بين اليأس من سجنه، وخوفه بأن يطول، وبين أملهِ بالخروج من هذا السجن، محملاً الدهر السبب فيما أفضى إليه، ومعلقاً آماله على الدهر في خروجه، وكذلك النظرة التي تقوم على الشك واليقين، وعنصر المفاجأة الناتج عن الثنائيات الضدية القائمُة بين الأشياء ونقيضها، فالدهر من يفعل الشيء ونقيضه.

أبيات القصيدة: [3]

مَـــــا عَلـــــى ظَنّـــــيَ بَـــــاسُ يَجْـــــرَحُ الـــــدّهْرُ وَيَاسُـــــو

1- عمر الأسعد، معالم العروض والقافية، ط1، مطبعة النور، عمان، 1984، ص131.

2- صفاء خلوصي، فن التقطيع الشعري والقافية، ط3، مطابع دار الكتب، بيروت، 1966، ص133.

3- انظر القصيدة في ديوانه، تحقيق: علي عبد العظيم، ص273.

رُبّمـــــــا أشْـــــــرَفَ بِـــــــالمَرْ ء عَلَـــــــى الآمَـــــــالِ، يَـــــــاسُ

وَلَقَـــــــدْ يُنْجِيـــــــكَ إغْفَـــــــا لٌ وَيُرْديـــــــكَ احْتِـــــــرَاسُ

والمحـــــــــــاذيرُ ســـــــــــهامٌ والمقـــــــــــاديرُ قيـــــــــــاسُ

ولكـــــــــمْ أجـــــــدَى قعـــــــودٌ ولكـــــــمْ أكـــــــدى التمـــــــاسُ

وَكـــــــذَا الـــــــدّهْرُ إذَا مَـــــــا عـــــــزّ نـــــــاسٌ، ذَلّ نـــــــاسُ

وبنُـــــــو الأيّـــــــامِ أخْيَـــــــا فٌ: سَـــــــرَاةٌ وَخِسَـــــــاسُ

نَلْـــــــبَسُ الـــــــدّنْيَا، وَلَكِـــــــنْ متعـــــــــةٌ ذاكَ اللّبـــــــاسُ

يـــــا أبـــــا حَفْـــــصٍ وَمَـــــا ســـــا وَاك فـــــي فهـــــمٍ إيَـــــاسُ

مِـــــنْ سَـــــنَا رَأْيِـــــكَ لـــــي فـــــي غَسَـــــقِ الخطَـــــبِ اقتبـــــاسُ

وَوِدادي لَـــــــــكَ نَـــــــــصٌّ لـــــــمْ يخالِفْـــــــهُ قيـــــــاسُ

أنَـــــــا حَيْـــــــرَانُ، وَلِلأمِـــــــ ـــــــر وُضُـــــــوحٌ وَالتِبَـــــــاسُ

مَـــــا تَـــــرَى فـــــي مَعْشَـــــرٍ حـــــا لـــــوا عـــــنِ العهـــــدِ وخاسُـــــوا

وَرَأَوْنـــــــــــي سَـــــــــــامِرِيّاً يُتّقَـــــــى مِنْـــــــهُ المِسَـــــــاسُ

أذْؤبٌ هامَـــــــــتْ بلَحْمـــــــــي فانْتِهَـــــــــاشٌ وَانْتِهَـــــــــاسُ

كلّهـــــمْ يســـــألُ عـــــن حـــــا لـــــي، وَلِلـــــذّئْبِ اعْتِسَـــــاسُ

إنْ قسَـــــــا الـــــــدّهرُ فلِلْمَـــــــا ءِ مـــــنَ الصّـــــخْرِ انبجـــــاسُ

وَلَـــــــئنْ أمْسَـــــــيْتُ مَحبُـــــــو ســـــــاً فَلِلْغَيْـــــــثِ احْتِبَـــــــاسُ

يلبُـــــــدُ الـــــــورْدُ السَّـــــــبَنْتَى وَلَـــــــهُ بَعْـــــــدُ افْتِـــــــرَاسُ

فتأمّـــــــلْ كيـــــــفَ يغشَـــــــى مقلـــــــةَ المجـــــــدِ النّعـــــــاسُ

ويفـــــتّ المســـــكُ فـــــي التُّـــــر بِ فَيُوطَـــــــــــا وَيُـــــــــــدَاسُ

لا يكـــــــــنْ عهْـــــــــدُكَ ورداً إنّ عهـــــــــدِي لـــــــــكَ آسُ

وأدرْ ذكـــــــــرِيَ كأســـــــــاً مـــــا امتطَـــــتْ كفَّـــــك كـــــاسُ

وَاغْتَـــــــنِمْ صَـــــــفْوَ اللّيَـــــــالي إنّمَـــــــا العَـــــــيْشُ اخْـــــــتِلاسُ

وَعَسَـــــــى أنْ يَســـــــمُحَ الدّهـــــــ ـــــرُ فقـــــدْ طـــــالَ الشِّـــــماسُ

دار موضوع ابن زيدون حول محور الشكوى والإعراب عما يقاسيه من الأسى والوحدة في سجنه، ونرى أن القصيدة دارت حول أربعة محاور في كل محور تحدث فيه عن موضوع ما، ولكن بعد التأمل وقراءة القصيدة نجد أنّ القصيدة بموضوعاتها مناسبة لحال الشاعر التي آل إليها، وأنها نسيج واحد، وهناك ترابط وثيق وتماسك بين هذهِ الموضوعات، وأنها جميعها تصب في غرض واحد.

المحور الأول:

مَـــــا عَلـــــى ظَنّـــــيَ بَـــــاسُ يَجْـــــرَحُ الـــــدّهْرُ وَيَاسُـــــو

رُبّمـــــــا أشْـــــــرَفَ بِـــــــالمَرْ ء عَلَـــــى الآمَـــــالِ، يَـــــاسُ

وَلَقَـــــــدْ يُنْجِيـــــــكَ إغْفَـــــا لٌ وَيُرْديـــــــكَ احْتِـــــــرَاسُ

والمحـــــــــاذيرُ ســـــــــهامٌ والمقـــــــــاديرُ قيـــــــــاسُ

ولكـــــــمْ أجـــــــدَى قعـــــــودٌ ولكـــــــمْ أكـــــــدى التمـــــــاسُ

وَكـــــــذَا الـــــــدّهْرُ إذَا مَـــــــا عـــــــزّ نـــــــاسٌ، ذَلّ نـــــــاسُ

وبنُـــــــو الأيّـــــــامِ أخْيَـــــــا فٌ: سَـــــــرَاةٌ وَخِسَـــــــاسُ

نَلْـــــبَسُ الـــــدّنْيَا، وَلَكِـــــنْ متعـــــــــةٌ ذاكَ اللّبـــــــــاسُ

يستهل الشاعر في هذا المحور قصيدته بفعل الدّهر وسجيته بين الجرح والمداواه؛ ليبعث الطمأنينة في نفسه، ويخفّف شيئاً من مصابه، وكذلك في أن التقلبات التي يحدثها الدّهر، تأتي على

الأشياء غير المتوقع حدوثها، فتصبح هي النتيجة غير العادلة حيناً، ومؤملة للشاعر حيناً آخر، فأحداث الدهر وتقلباته تأتي على عكس الواقع، وهذا الأمر يشكل للشاعر حيرة في أمرهِ، تنشأ وكأنها تشكل أملاً للشاعر، ولكنّ هذا الأمر مرتبطٌ بأمور يبنيها على الشك واليقين، فالدهر لا يثبت على حال، فهو يمنح السعادة حيناً، ويسلبها ويبدلها بالحزن حيناً آخر، فاليأس قد يفتح أبواباً للأمل، والمرء قد ينجو من المهالك وهو غافل، وقد يهلك وهو محترس، فهذهِ النتيجة غير المتوقعة في حدوثها؛ ليعبر ابن زيدون عن قسوة الدهر عليه، وليبين أن سجنه كان غير متوقع، فقسوة الدهر عليه قد تكون إيجابية، فربما يحنُّ عليه، فكما كان سجنه نتيجة غير متوقعة، فكذلك قد يكون خروجه من السجن، ولا بد للدهر كما قلب حياة ابن زيدون من الفرح إلى الحزن أن يعود ويقلب الحزن فرحاً، إيماناً من ابن زيدون بتقلبات الدهر، فالدهر يجعل من المستحيل ممكناً، ومن الممكن مستحيلاً، وهذا الأمر يبعث الأمل في نفس ابن زيدون، ويخفف من التعب الذي يحيط بنفسيتهِ، فالحذر قد يكون مخيفاً ومفزعاً، والأقدار هي أقواس ترمي بالمصائب، فالقعود قد يجدي على عكس الجد الذي قد يكدي، ويؤدي إلى الضرر، وهذهِ الأمور قائمة على الشك وليست يقينية، نلاحظ أن ابن زيدون يحاول أن يخفف عن نفسه قسوة السجن، بنظرته إلى الأشياء على عكس ما تكون، وهي قد تكون مستحيلة الحدوث في الحقيقة، ولكن هذهِ الأمور هي من عبثية الدهر في الأشياء في قلب الأمور على عكس المتوقع والواقع، فسهام الدهر طائشة، فالكل معرض أن يصاب بهذه السهام غير المتوقعة، وهذه السهام التي تطيش ليست كلها سهاماً تحمل المصائب، فقد تكون سهاماً تحمل المسرات، لأنَّ من سجيّة الدهر بأن يحسن ويسيء، فدخول السجن كان على غير المتوقع، وكان من الأمور التي ربما تكون مستحيلة في نظر ابن زيدون، فابن زيدون كان وزيراً مقرباً من بني جهور،

وقد أصبح ابن زيدون مسجوناً بفعل الدهر، فحصل ما هو على عكس الواقع، وهنا في هذه الأمور التي يستخدمها على عكس الواقع يأمل أن يعيد الدهر كرته عليه في تقلبه، ويخرجه من السجن على غير المتوقع، وهي من المفاجئات التي يحدثها، فدخوله السجن مبرر لخروجه، وجرحه مبرراً لدوائه.

فالدهر قد ينقلب من عدو، ليصبح صديقاً لابن زيدون، فينعم عليه، وهي من شيمه الإحسان بعد الإساءة، وهو يؤكده في أكثر من موضعٍ منها: [1] (البحر الطويل)

إســـاءة دهـــرٍ أحســـن الفعـــل بعـــدها وذنـــب زمـــانٍ جـــاء يتبعـــه العـــذرُ

وقوله: [2] (البحر الرمل)

لـــئن ســـاءكِ يـــومٌ فـــاعلمي أن ســـيتلوه ســـرور بغـــدِ

وقوله: [3] (مجزوء الوافر)

ألـــم تعلـــم بـــأنَّ الـــدهر يعطـــي بعـــدما يمنـــع

وغيرها الكثير من الأبيات التي تؤكد نظرة ابن زيدون اليقينية في تقلب الدهر بين الحسن والإساءة.

ويعود الشاعر ويبيّن حكم الدهر على الناس، فهو إذا "ما عزّ ناسٌ" "ذلَّ ناسٌ" ، وهو يرفع أناساً على حساب انحدار أناس آخرين، وهذا ما آلت إليه حاله بسببه، وهنا يتكلم عن انحداره من

1- ابن زيدون، الديوان، ص523.

2- نفسه،ص175.

3- نفسه، ص578.

العلو في رفعة المنصب والحرية والسعادة والعزة، إلى سلب المنصب والسجن والحزن والذلّ، ورفع هذا الأمر من مكانة الواشين الذين حلَّو محلَّ ابن زيدون بوشايتهم. فالناس دائماً مختلفون في طبائعهم بين سخي ماجد، وبين حقير خسيس، وعندما ننظر إلى البيت في قوله:

وبنـــــــو الأيـــــــام أخيـــــــا فٌ، ســـــــــــراةٌ وخســـــــــاسُ

فهو يقول بنو الأيام، وهي ربما من صفات الأيام التي تختلف في تواليها على الناس، فتارة هي معطاءةٌ سخيّةٌ جالبةٌ للسرور والفرح، وتارةٌ هي حقيرةٌ خسيسةٌ مانعةٌ للسعادة جالبةٌ للمصائب كطبائع البشر، فالدهر كالبشر له جانبان جانب خير وجانب شر، وهو يأمل من الدهر أن يجود عليه بجانب الخير، وهي رسالة إلى أبي حفص وتمهيد له في خطابه في المحور الثاني، بأنّ يكون من الناس سخياً ماجداً جالباً للخير، وليس من صنف الواشين الجالبين للمصائب والشرور، فيعمل على السعي لإخراج ابن زيدون من السجن. فالدهر الماجد السخي يوازي أبا حفص في كرمه وسخائهِ، والدهر الجالب للمصائب والشرور يوازي الواشين الذين أوغروا صدر أبي الحزم على ابن زيدون، فَزجّ بابن زيدون في السجن. ثم يعود ابن زيدون؛ ليبين أن هذهِ الدنيا زائلة بنعيمها ومتعها، وهنا يشير إلى تقلب الدنيا، فالنعيم فيها يزول، وكذلك الشقاء فيها يزول، وهي نظرة يقينية وهي حقيقة، ومن هنا نستِشرف أمل ابن زيدون في خلاصه من السجن، فالسجن لا بدّ أن يزول كزوال النعيم الذي كان حاصلاً لابن زيدون، وكأنّها رسالة مبطنة إلى أبي حفص، ودعوة له لاستغلال ما به من نعيم قبل زواله، لإخراجه من السجن، لأنّ تصاريف الدهر في تقلب، فربما يفضي أبو حفص إلى ما أفضى إليه ابن زيدون، عندئذ سيكون ابن زيدون محافظاً على عهدهِ ووداده لأبي حفص، لأن عهده له آس دائم، ووداده له نصّ لا مجال للشكّ فيه،فيقدم له المساعدة ويكون سخيّاً عليه، إذ ما سخا عليه

وساعده في إخراجه من السجن، وأن لا يكون أبو حفص من الناس الذين وصفهم بأنهم خساس، جاء هذا البيت تمهيداً لخطاب أبي حفص في المحور الثاني.

ما نلاحظه في هذا المحور أنّ ابن زيدون بنى كل شيء على الثنائيات الضدية الممكنة والتي ترمي إلى تقلب الدهر فالدهر: يأسو، ويجرح. وكذلك يبعث الأمل واليأس، ويعز أناساً ويذل أناساً آخرين، والدهر سخيٌّ وبخيل خسيس، كحال البشر: الذين هم أصناف: صنفٌ يجرح، وصنفٌ يداوي، صنف يبعث الأمل، وصنفٌ يبعث اليأس، وصنفٌ عزيز، وآخر ذليل، وصنفٌ سخيٌ وآخر بخيل خسيس، وكأن ابن زيدون بنى في هذا المحور، وفي القصيدة برمتها، آماله على الدهر بتقلباته وإتيانه بالمستحيل وجعله ممكناً، وعلى أبي حفص الذي يستعين به في أن يكون في الصنف الإيجابي، فأبو حفص في موازاة الدهر، فابن زيدون يستعين ويقاوم أحداث الدهر به حيناً، ويحذر أبا حفص ويستعين عليه بالدهر وأحداثه المتقلبة حيناً، ولكن هذهِ الاستعانة هي مبطنة، وليست مكشوفة وظاهرة.

وكذلك الثنائيات الضديّة غير الممكنة (العكسية) التي تأتي على عكس ما هو مألوف، فالقعود يؤدي إلى النفع، على عكس السعي الذي يؤدي إلى الكدّ والمضرّة، والغفلة تؤدي إلى النجاة على عكس الاحتراس الذي يؤدي إلى الردى والهلاك؛ ليؤكد نظرته من أنّ اليأس قد يؤدي إلى الأمل، فالشاعر لم ييأس من الدهر، الذي حلَّ به وأفضى به إلى ما أفضى . ولم ييأس من صديقه أبي حفص رغم من فقد ثقته، ويأسهِ من الكثير من الناس.

وهذا كلُّهُ يؤكد نظرة ابن زيدون، واستشرافه الأمل في دواء الدهر لجروحه، كذلك في عقد آماله في خروجه من السجن على يد أبي حفص. وكل هذا يبعث به ابن زيدون؛ ليخفف من حدة

نفسيته المتوترة والمتعبة، ولينقلها من اليأس إلى الأمل، فترتفع معنوياته؛ وليثبت لأبي حفص بأن قد يكون لك نظرة بحكم حريتك ومنصبك في صعوبة خروجي من السجن، ولكن هذه الأمور التي قدمها ترفع من معنوياته، وتثبت له بأنه قد يكون المستحيل ممكناً، فتأتي الأمور على عكس الحقيقة.

ونلاحظ في كل هذا أنَّ ابن زيدون بنى كلامه على الشك حيناً، وعلى اليقين حيناً آخر، وأنه قد يتولد من الشك اليقين، وكل هذا ليخفف من نفسيته المتعبة، وليبين حيرته في عبثية الدهر، وفي الحالة التي آل إليها.

المحور الثاني:

يـــا أبـــا حَفْـــصٍ وَمَـــا ســـا وَاك فـــــي فهـــــمٍ إيَـــــاسُ

مِـــنْ سَـــنَا رَأْيِـــكَ لـــي فـــي غَسَـــــقِ الحَطَـــــبِ اقتبـــــاسُ

وَوِدادي لَـــــــــكَ نَـــــــــصٌّ لـــــــمْ يخالِفْـــــــهُ قيـــــــاسُ

أنَـــــــا حَيْـــــــرَانُ، وَلِلأمِـــــــ ـــــــر وُضُـــــــوحٌ وَالتِبَـــــــاسُ

مَـــا تَـــرَى فـــي مَعْشَـــرٍ حـــا لـــوا عـــنِ العهـــدِ وخاسُـــوا

وَرَأوْنـــــــــي سَـــــــــامِرِيّاً يُتّقَـــــى مِنْـــــهُ المَسَـــــاسُ

أذْؤبٌ هامَـــــــــتْ بلَحْمـــــــــي فانْتِهَـــــــــاشٌ وَانْتِهَـــــــــاسُ

كلّهـــــمْ يســـــألُ عـــــن حـــــا لـــــي، وَلِلـــــذّنْبِ اعْتِسَـــــاسُ

يوجه الشاعر خطابه في المحور الثاني إلى أبي حفص، مستخدماً النداء "يا أبا حفص..." فهو يريد أن يبين له طلبه، وماذا عليه أن يفعل، ويستهل خطابه لأبي حفص بالإشادة به وبفطنتهِ، وأنه لا يساويه أحدٌ من الناس في الذكاء، ولا إياس بن معاوية الذي يضرب به المثل في ذكائه، والقصد من ذلك لاستمالته إليه واستدرار عطفه، ولإخباره بأن هذهِ المهمة بحاجة إلى ذكاء وفطنة، حتى يستطيع الخلاص من السجن، وهو عند حسن ظنٍّ ابن زيدون، فهو يقتبس من سنا رأيه في غسق الخطب، فابن زيدون قد ادلهمت عليه الخطوب، وأدخلته في ظلمات السجن، فيستخدم الثنائية الضدية بين "سنا رأيك" و"غسق الخطب"، وهذه الثنائية قد ساعدت على إبراز المعنى، وهو أن رأي أبي حفص السديد يضيء ويكشف الخطوب المظلمة، وهو يريد منه أن يستخدم رأيه السديد الذكي، ليخرجه من ظلمات السجن. فهو يستعين بالرأي السديد للممدوح في مواجهة خطوب الدّهر التي ادلهمت عليه، وقد وظفَّ ابن زيدون مثل هذا الأمر في كثير من الأبيات، منها قوله: [1] (البحر الطويل)

إذا أشـــــكل الخطـــــب الملـــــم فإنـــــه وآراءه كـــــــالخطّ يوضـــــــح بالشـــــــكل

1- ابن زيدون، الديوان، ص265.

فآراء الممدوح الحكيمة تبدد الغموض، وتوضح المشكلة وتكشفها، مثلما تتضح معاني الكتابة بتشكيل الحروف، وكذلك فإن رأي أبي حفص سيبدد ظلمة السجن، لأن آراءه مشرقة مضيئة، وهي ستزيل ظلمة الخطب، فالظلمة لا يبددها إلا النور.

فمدحه لأبي حفص؛ ليقربه منه، فهو يثبت له بأنَّ ودّه له خالص، وهو نصٌّ يقيني غير قابل للشك، فلا ينقصه ولا يغيره شيء فلا مجال للرأي فيه، لأن النص أصل، والأصل لا يزول بالفرع "القياس"، والأصل غير قابل للشك، على خلاف الفرع الذي يكون فيه خلاف، فهو يبيّن لأبي حفص حبه ووداده؛ ليجعله يستخدم رأيه السديد لمساعدته في مصيبته، فهو يبني حديثه على ثنائيات ضديّة، متنافرة فيما بينهما بالمعنى الحقيقي الظاهر، وفي المعنى الباطن أنَّ هذه الثنائيات قائمة على الشك واليقين، وهذا ما يؤكده في ذكره سابقاً عندما بنى أمور الدهر وعبثيته على أمور قابلة للشك، وأمور أخرى يقينية. وفي هذا كله يعكس حيرة ابن زيدون في الأمور التي تبدو واضحة لأسباب حيناً، ومبهمة لأسباب حيناً أخرى، فهذهِ الحيرة المتمثلة في حالة ابن زيدون وفي وصفه للأشياء، كأنها رسالة تدفع بقارئها للاهتمام بها، والعمل على إيضاحها، وهي من المسوغات التي تتطلب حكمة وذكاء أبي حفص؛ ليبين الأمور ويوضحها، وهو يتساءل عن القوم الذين خانوا العهد وغيّروا مواقفهم، وعدّوا ابن زيدون سامرياً، والسامري تحاشاه الناس، ولا يمسونه حتى لا يصابوا بالحمى، وهنا كناية عن العزلة التي يعيشها ابن زيدون في سجنه بعيداً عن الناس، وبعيداً عمن يحبهم، فالسامري له عزلة كذلك حتى لا يصاب من يمسهُ بالعدوى، وهي ربما تشبه التهمة التي تعرض لها ابن زيدون وهي التحريض على بني جهور، فالمحرض جزاؤه أن يعزل عن الناس حتى لا ينقل لهم هذه العدوى، وفي حديثه عن الناس الذين حالوا عن العهد رسالة لأبي حفص أن لا يحول

عن العهد ويخونه، وهي رسالة مبطنة تحمل التحذير، لأن الأمر لا يحتمل، فابن زيدون بعث كثيراً من الرسائل التي يستعطف بها أبا الحزم، ولكن بلا جدوى، وكأنّ هذه الرسالة يبعثها كرسالة أخيرة؛ ليخلص من السجن، ولا مجال للخطأ هنا، فالعمل والرأي السديد، والأمور المستحيلة التي يحدثها الدهر، والدهر كذلك في تقلبه، وغيرهما من الأمور: كالشجاعة عند ابن زيدون يستخدمها في هذه الرسالة؛ ليخلص من مما هو فيه، كذلك التهمة التي جرّم بها ابن زيدون هي تهمة كاذبة بشعة أوصلته إلى السجن، ويصف أعداءَه بأنهم حاقدون عليه، فهو يحاول أن يكشف ظلمهم وكذبهم ببصيرة رأي أبي حفص؛ لتثبت براءته. وهم كالذئاب المفترسة التي لا ترحم الفريسة فقد نهشوا لحمه كذباً، وكان هذا الأمر في غسق الليل، وهنا الظلمة تبين عدم وضوح الرؤية، فيطلب من أبي حفص أن يستخدم رؤيته المنيرة المشرقة؛ ليزيل هذه الحيرة، وهذه الظلمة التي حلَّ بها.

المحور الثالث:

إنْ قسَـــــا الـــــدّهرُ فلِلْمَـــــا ... ءِ مـــــنَ الصّـــــخْرِ انبجـــــاسُ

وَلَـــــئنْ أمْسَـــــيْتُ مَحبُـــــو ... ســـــاً فَلِلْغَيْـــــثِ احْتِبَـــــاسُ

يلبُـــــدُ الـــــورْدُ السَّـــــبَنْتَى ... وَلَـــــهُ بَعْـــــدُ افْتِـــــرَاسُ

فتأمّـــــلْ كيـــــفَ يغشَـــــى ... مقلـــــةَ المجـــــدِ النّعـــــاسُ

ويفـــــتّ المســـــكُ فـــــي التُّـــــر ... بِ فَيُوطَـــــا وَيُـــــدَاسُ

يضرب ابن زيدون في المحور الثالث مجموعة من الأمثال التي تصعد من دوافع الأمل في نفسه؛ ليقويها، وليصبرها على أفعال الدهر، كذلك؛ ليبين لأبي حفص بأن موقفه قويّ، وأنّ عملية خروجه من السجن سوف تكون سهلة سلسلة، كانبجاس الماء من الصخر القاسي، وكأنه يقول: بأن ما بعد الشدة إلا الفرج، فسيكون خروجه قويا من السجن كخروج الماء من الصخر نتيجة الضغط القوي، وكنزول الغيث بعد طول احتباس، وافتراس الأسد بعد الإقامة، وانتهاز الفرصة للافتراس.

وكأنهّ يؤكد فعل الدهر وعبثيته في إحداث المسرات والأحزان، فالدهر قد يقسو كالصخر لكنه قد يسمح له بالتدفق، وهذا الأمر يكون عنوة عنه، فالماء سلسل انسيابي يستطيع الخروج من هذا الصخر، وكذلك قد يحتبس الغيث لكنهّ لابُدُّ للسحب أن تجود بالمطر في وقتٍ ما وفي مكانٍ ما، وكذلك قد يمنع مانع أو عارض ما الأسد من الافتراس حيناً، ولكن لابُدَّ له أن يفترس، فالأمور التي يذكرها ابن زيدون هي أمور تعيد الحياة بعد الهلاك، فالماء يعيد الحياة للأرض بعد الجفاف، والأسد بافتراسه بعيد الحياة لنفسه، وهنا ثنائية ضدية باطنية في ثنائية الحياة والموت، وهي تشكل صراع ابن زيدون من أجل الحياة، وهذه تؤكد نظرة ابن زيدون في أن الدَّهر إذا ما عزّ ناس ذلَّ ناس، وهي تعكس حياة الأسد، فبالافتراس الأسد يمنح الحياة لنفسيه ويبقى عزيزاً، ويمنعها عن الفريسة فيتسبب بموتها، فحياة الأسد على حساب حياة الفريسة، وكأنها رسالة لأبي حفص بأن هذا الأمر يتطلب التضحية والمواجهة، فمواجهة أبي الحزم في هذا الموقف يتطلب الحذر، وعليه أن يستخدم الحكمة والرأي السديد؛ لتجاوز هذا الأمر، لينجو ابن زيدون، وينجو كذلك أبو حفص.

فابن زيدون يصف نفسه بالأسد؛ ليقوي نفسه، وليخفف من حدة التوتر والحيرة التي يعيشها، وهو غيث محتبس مهما طال فلابُدَّ أن تجود به السحب، فالمسألة هنا مسألة زمنية مرتبطة بعامل

الزمن، وكذلك خروج ابن زيدون من السجن إنما هو مسألة وقت، فلابُدَّ أن نقضي هذه المدة، أو بسبب ما من الأسباب لابُدَّ أن يخرج من السجن، وابن زيدون ماء قسا الدهر عليه، كما يقسو الصخر على الماء، فالماء يتعامل مع الصخر القاسي بليونة، فيتغلب عليه ويخرج، وهنا رسالة لأبي حفص أن يستخدم حكمته ورأيه السديد؛ ليخرج من السجن، وهذه هي الوسيلة للتعامل مع قسوة أبي الحزم، أو قسوة الدهر، فقسوة أبي الحزم تشبه قسوة الدهر، وكلاهما يشبه قسوة الصخر، فللدهر جانبان: جانب قسوة، كذلك له جانب لين، وأبو الحزم له جانبان كذلك: جانب قسوة، كذلك له جانب لين، وعلى أبي حفص أن يستغل هذا الجانب؛ وهذا مبرر لسهولة خروج ابن زيدون من السجن. وكذلك نزول الغيث بعد الاحتباس هي صورة لجانب من جانبي الدهر وهي السماح بعد القسوة، وصورة الليث الذي يلبد للافتراس، بصورة ابن زيدون المتصبر الذي يحاول أن يتحدى الدهر بنفسه، فيطلب الفرصة السانحة؛ ليتغلب عليه، ويخرج من السجن، كاستغلال الليث الفرصة المناسبة للافتراس، والتغلب على فريسته.

فابن زيدون يواجه الدهر بالممدوح أبي حفص، ويواجهه كذلك بنفسه، ويواجه الدهر بالدهر سواء الدهر الفاعل أو الدهر المدة الزمنية، فحال ابن زيدون كحال الأسد الشجاع الذي يبحث عن الأسباب التي تضمن له الحياة، وهو كالليث الذي يمنعه عارض ما، ولكنّ لابُدَّ لهذا العارض أن يزول، فهو يمتلك جميع الأسباب التي تسهل على أبي حفص مهمة إخراجه من السجن.

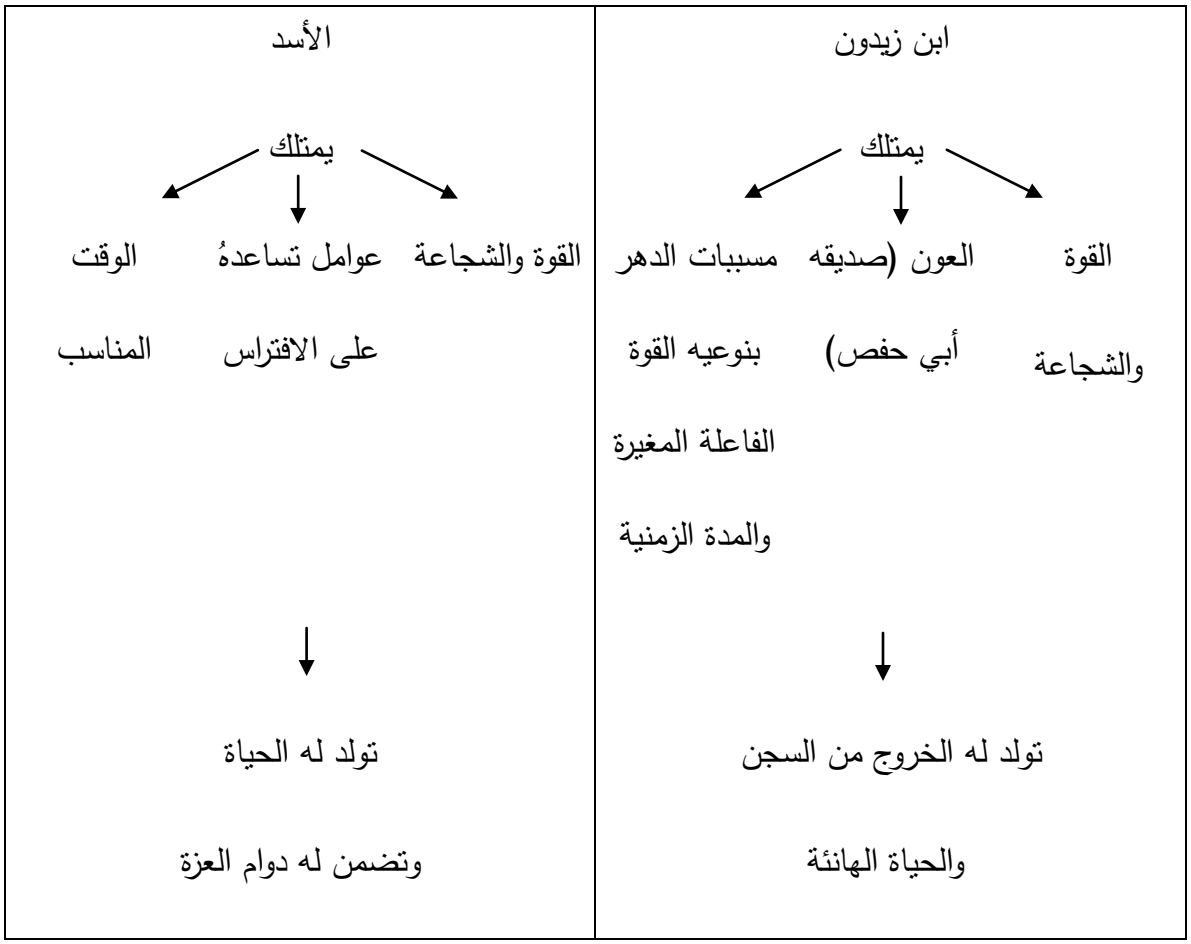

فهذه عبارة عن براهين يقدمها ابن زيدون لأبي حفص، ويطلب منه أن يمعن النظر فيها، فابن زيدون مجدٌ أغلق الدهر عليه، كما يغشى النعاس مقلة المجد، وابن زيدون مسك لا تقدر قيمته، وقد تجاهلها الآخرون عندما زج في ظلمات السجن، فظلمات السجن حالت بين ابن زيدون، وبين طموحه، كما غشي النعاس مقلة المجد، فالدهر هو المتسبب بكل هذا، فالمسك مطروحاً بالتراب مهان تحت النعال، بعد أن كان عزيزاً له قيمة، وهذا ما يعكس نظرة ابن زيدون في بادئ الأمر ويؤكدها، وكذا الدهر: (إذا ما عزّ ناسٌ ذلَّ ناسٌ) فالمسك كان مصاناً، وأصبح مهاناً، وهي حالة ابن زيدون، وابن زيدون كان نابهاً طامحاً صاحب مجد، فأمسى مسلوباً محاصراً بجدران السجن التي تمنعه أن يحقق مجده وينفع الآخرين، كما غشي مقلة المجد النعاس، فالدهر هو من منع ابن زيدون

من مواصلة طموحه وأمجاده التي سعى إليها، وقد عبر ابن زيدون عن موقف الدهر من النابهين الطامحين في كبح جماحهم ومنعهم من تحقيق غاياتهم، وذلك في قوله: [1] (البحر البسيط)

أهـــل النباهـــة أمثـــالي لـــدهرهم بقصـــرهم دون غايـــات المنـــى ولـــع

فابن زيدون بعد أن فقد منصبه لابُدَّ أن يظهر بهذه الأمثلة التي ضربها؛ ليقوي عزيمته، وليقنع نفسه والآخرين بأنّه ما زال ذا قيمة ومكانة محفوظة، فالسجن لن يحط من قدر ابن زيدون ومنزلته، ولكنّ الآخرين لم يشعروا ويقدروا قيمته، فقيمته كقيمة المسك، فالمسك يبقى مسكاً، ولكن الناس أحياناً لا تشعر بقيمته، فهو مسك محافظٌ على قيمته. وكأنّ ابن زيدون يتحدى حكم الدهر عليه، ولا يقبل به فهو ليس من الناس الذين ذلهم فهو عزيز مسكٌ أينما حلَّ.

المحور الرابع والأخير:

لا يكـــــــــنْ عهْـــــــــدُكَ ورداً إنّ عهـــــــــدِي لـــــــــكَ آسُ

وأدرْ ذكـــــــــرِيَ كأســـــــــاً مـــــا امتطَـــــتْ كفَّـــك كـــاسُ

وَاغْتَـــــــنِمْ صَـــــــفْوَ اللّيَـــــالي إنّمَـــــا العَـــــيْشُ اخْـــــتِلاسُ

وَعَسَـــــى أنْ يَســـــمحَ الدّهـــــ ـــــرُ فقـــدْ طـــالَ الشِّـــماسُ

1- ابن زيدون، الديوان، ص297.

يظهر استعطاف ابن زيدون في المحور الرابع لأبي حفص، فيطلب منه أن لا يكون عهده معه قصيراً سريع الذبول كالورد، إذ إن عهد ابن زيدون لأبي حفص طويل دائم كالآس، وهنا رسالة لأبي حفص حتى لا يكون كالمعشر الذين حالوا عن العهد وخاسو، وكذلك يطلب منه أن يستذكره دائماً كلما امتطت كف أبي حفص كأساً، وهي إشارة إلى أن يبقى أبو حفص مواصلا عمله دائما ذكره حتى لا ينساه، ويعمل على إخراجه من السجن، وعليه أن يستغل متع الدنيا، لأنّ هذه المتع زائلة، والدنيا زائلة، فالعيش اختلاس، وهنا يشير إلى الفكرة التي نادى بها في قوله:

نلـــــــــبس الـــــــــدنيا ولكـــــــــن متعـــــــــــــــةٌ ذاك اللبـــــــــــــــاس

فالعيش اختلاس، وهنا يشير إلى سطوة الدهر المتقلب الذي يتغير من حال إلى حال، وفي قوله: واغتنم صفو الليالي؛ ليؤمل لنفسه بأنَّ الليالي التي في طبعها قاسية قد تصفو، وعليه استغلال هذا الأمر؛ ليوصل الرسالة إلى أبي الحزم، ويأتيه في صفي العيش؛ ليصفح عن ابن زيدون، وهذه مناسبة وتؤكد لبدة الأسد وإقامته في تخيّر الوقت المناسب للانقضاض على الفريسة، فعلى أبي حفص استغلال الوقت المناسب والفرصة السانحة لإخراج ابن زيدون من السجن، وهذه الفرص قليلة وسرعان ما تزول فعليه اغتنامها.

واستخدم اغتنم وهي من الغنيمة التي يغتنمها الجيش المنتصر في المعركة، وهذه إشارة إلى سرعة الاغتنام، وقضية ابن زيدون في إخراجه من السجن هي معركة تتطلب سرعة وفطنه في الحصول عليها. وكلاهما يحتاج إلى تخطيط وتكتيك للانقضاض في الوقت المناسب، وفي النهاية يرجو من الدهر؛ ليؤمل نفسه، فرجاؤه من هذا الدهر أن يسمح ويجود كالسحابة بعد طول احتباس. بأن تجود وتنزل الغيث، فالدهر قسا وطالت قسوته، وعناده على ابن زيدون، وكأنَّ ابن زيدون يقول

للدهر: أما آن لك التقلب إلى الوجه الآخر (الإيجابي) فقد طالت قسوتك، فهنا يأمل، ويعقد أمله على تقلب الدهر كما ذكر في مستهل قصيدته أن الدهر يتقلب بين الجرح والدواء، فهو يريد من الدهر أن يداويه، ويمنّ عليه بإخراجه من السجن بعد أن جرحه وأدخله في غياهب السجن. وهنا يرجوه رجاء الإنسان المتأمل المتيقن بحدوث الشيء وتحقيق مبتغاه، فالدهر قاسٍ كالصخر، ولكن هذا الصخر لابُدَّ أن يسمح للماء أن يتدفق من خلاله، وأمله ورجاؤه كأنه مرتبط بالصورة التي ضربها فيما سبق: صورة الغيث والليث والماء الذي ينبجس من الصخر القاسي وغيرها من الصور ...

نلاحظ الأنا الشاعرة المفردة حاضرة، ويوظفها في كلمات تبين نظرة الحيرة في نفس الشاعر، والكلمات التي بدأها بـ"ظنيّ، وداوي، أنا حيران، ورأوني، بلحمي، حالي، أمسيت، عهدي، ذكري، سنا رأيك لي"، وهذا ضمير المتكلم بجمله يدلُّ على حال الشاعرة المفردة مضافاً إلى الاسم سبع مرات، ومرتين متصل بالفعل، ومرة مقرونة بحرف الجر، ووردت متصلة بالفعل في سياق قوله: "أمسيت، رأوني" وفي رأوني كأنهّ يحمل السبب في ما آل إليه بسبب الواشين، وفي صيغة المفرد في اتصال الضمير في كلمة "ظنيّ" نلاحظه يتأرجح بين الشك واليقين، فكلمة "ظنيّ" التي تحمل دلالتي" الشك، واليقين، فالشاعر في استخدامه يجعل القارئ يشاركه في حيرته، فهو يستخدمها كأنه متيقن في أنَّ لا بأس عليه إن أصابه الدهر، لأنّه يبرر هذا بأن من سجية الدهر بأنّه يجرح ويداوي، فإن أصابه الدهر فلابُدَّ أن ينعم عليه فهو متقلب، وهنا يستخدم اليقين؛ ليقوى نفسه، وليصبرها على ما حلَّ بها، فهو على يقين من تقلب الدهر الذي سينقلب به بعد الجرح إلى الدواء، وفي استخدامها بمعنى الشك في أنَّ لا بأس عليه إن أصابه وحلّ به الدهر؛ ليوصل رسالته إلى أبي حفص بأنه لا يعرف كيف سيواجه أفعال الدهر، وليبيّن له أن مصيره مجهول، ومصابه كبير ومؤلم، فهو يشرك أبا حفص في

حيرته؛ ليشاركه مصابه، وليحنَّ عليه ويساعده في إخراجه من السجن. وحيرة الشاعر تعكس حاله فكأنّ لسان حاله يقول: أين كنت من الحريّة وتقلد المنصب والعزة؟ وكيف تحولت هذه النعم إلى سجنٍ وخسران كل شيءٍ؟ فهو كما يرسل بهذه القصيدة إلى أبي حفص فإنه يرسلها إلى نفسه؛ ليخفف عن نفسه مصابه، ويبعث الأمل في نفسه، فالدهر متقلب تقلب عليه وأوقعه في السجن، فلا بُدَّ له أن يعيد الكرّة ويتقلب؛ فيخرجه من السجن، وهو يؤمن إيماناً يقينياً بهذا الأمر.

فالدهر يجرح ويداوي هذه الثنائية الضدية تبين حالة الشاعر النفسية وحيرته بين الشك واليقين في استخدامه لكلمة "ظنيّ"، فيقين الشاعر بأن الدهر يجرح ويداوي، وشكه إن بقي في هذا المكان كيف سيصبر على مصابه. فالدهر في منظور ابن زيدون اليقيني هو مالك السلطة المطلقة في تحويل الحياة بين السعادة والمعاناة، وهذا يؤكد قول الشاعر: وكذا الدهر إذا ما عزّ ناسٌ ذلَّ ناسٌ" ليؤكد ثبات يقينه بأن الدهر لا يثبت على حال فهو متقلبٌ دوار، أعزّ ابن زيدون وأكرمه في زمن، وتخلى عنه وذلّهُ في زمن آخر.

واستخدم كلمة "ناس" نكرة ربما ليكشف عن حاله التي آل إليها، وأصبحت نكرةً منكرة من قبل الأمير أبي الحزم بن جهور في غياهب السجن، فاستخدام الثنائية الضديّة بين عزّ وذلّ؛ ليكشف حال الدهر في تقلبه وحاله التي أفضى إليها بسبب الدهر يبين العزّ والذلّ، فالعزة في منظوره ثابتة وهي نظرته اليقينية إلى نفسه، بأنه سيبقى عزيزاً، وأن السجن وقسوة الدهر لن تجعلاه ذليلاً، كنظرة بعض الناس الذين لا يقدرون قيمته، فنظرة الناس إليه متفاوتة حسب طبيعة الناس الذين يقدرونه والذين لا يقدرونه، وهنا نظرة فيها نوعٌ من الشك، وهي ليست ثابتة، ويؤكدها بضرب مثال المسك الذي يفتُّ في الترب إلى صديقه الذي ربما يريد أن يذكره بقيمتهِ.

وقدم عزّاً على ذلّ إشارة إلى أنّه كان عزيزاً عند بني جهور وأمسى في السجن، وفي استخدامه لكلمة أمسيت محبوساً التي لم يقل فيها أصبحت محبوساً، لأنّ المساء هو من يعقب الصباح وليس العكس، فهو في الماضي القريب "الصباح" كان عزيزاً، ولكنّه في المساء أصبح محبوساً مُقيد الحريّة، فالدهر يتقلب في كل شيء في المعزّة والمذلّة، وفي الجرح وفي الدواء، فالدهر يفعل الشيء ونقيضه فقد يعتذر عن صنيعه ويعدل في الصباح والمساء، وكأنه يقول: ما أسرع تقلبات الدهر: فالدهر يتقلب بسرعة، وهو ربما دعوة لأبي حفص؛ ليستغل تقلبات الدهر، وليوصل ما حلَّ به إلى بني جهور؛ ليسرع في إخراجه من السجن، وكأن الشاعر يؤمل نفسه بسرعة خروجه من السجن في نظرته اليقينية تجاه تقلب الدهر، فهو في الصباح كان عزيزاً وفي المساء أسيراً فربما يتقلب الدهر، وما ينقضي المساء ويأتي صباح يعزّ به، ويخرج من ظلمات السجن إلى نور الحرية وضيائها، واستخدام المساء فالمساء فيه ظلمة، والصباح فيه نور وحرية، فالمساء قاسٍ كالصخر، وهو كذلك جزء من الدهر الزمني القاسي الذي قسا على ابن زيدون، والسجن كذلك قاسٍ كالصخر، والماء رمز الحياة، وهو ينبجس من الصخر القاسي الذي لا حياة فيه ولا رحمة لقسوته، فالصخر القاسي يوازي السجن والماء يوازي الحرية، فالماء سائل سلس الخروج، نتيجة الضغط سيخرج منفجرا، وهو يشبهه بنفسه التي سيكون خروجها من السجن سهلاً، كخروج الماء من الصخر، فدخوله السجن كان بسبب وشاية كاذبة فأمر البراءة والخروج سيكون سهلاً، لأنّ دخوله السجن كان سببه شيئا بسيطا، فأراد أن يخبر أبا حفص بهذا، فأراد أن يبين سبب دخوله السجن بسبب إثارة الشك من قبل الواشين لدى أبي الحزم بن جهور، فيقينه بوضوح هذا الأمر الذي سيزيل الشك واللبس عند أبي الحزم بن جهور، والذين رأوا الشاعر بقوله: "ورأوني سامرياً" يشير إلى أولئك الأشخاص من الناس

الذين تغيرت نظرتهم إلى ابن زيدون، فبعد أن كانوا يرونه إنساناً ذا قيمة، ويحاولون أن يتقربوا منه، تغيرت نظرتهم إليه فأصبحت كنظرتهم إلى السامري، فهم يبتعدون عنه ويضعونه في عزلة حتى لا ينقل العدوى إلى الآخرين، وهنا إشارة إلى أبي الحزم بن جهور في تغير نظرته من ابن زيدون، وكذلك القوم الذين حالوا عن العهد وخانوه، فهو يدعو أبا حفص بأن يكون عهده له ثابتاً دائماً لا يتغير، وهي تؤكد نظرته تجاه تقلب الدهر، وهؤلاء الواشون هم ذئاب هاموا بلحمه، وهي تؤكد الوشاية "الغيبة" فالذين هاموا بلحمهِ بأسنانهم هم بالواقع لم يأكلوا لحمه على الحقيقة، وإنما على سبيل المجار وهي كناية عن الغيبة، التي بسببها زجّ بابن زيدون في السجن، وهي تؤكد ثقافة ابن زيدون الدينية، قوله تعالى:{ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ }(سورة الحجرات أية12)، وكذلك استخدامه الذئاب ربما ليؤكد أن قصته التي ألقي فيها السجن، بأنها كذب كقصة الذئب الذي كان بريئاً من لحم يوسف عليه السلام، فلحم الشاعر بريءٌ من ألسنتهم الكاذبة، وشبه الواشين بالذئاب الذين يتربصون بالفريسة "ابن زيدون" وهذا التربص كان في الليل، فالذئاب هي رمز للمكيدة، وهذه المكيدة حيكت بالليل "الظلام" فالظلام يعكس حالتين" حالة الشاعر التي تقبع في ظلمات السجن، وقسوة السجن مع قسوة الليل في ظلمته، والحالة الثانية: الظلم الذي بسببه سجن، فالمكيدة حيكت ودبرت في الظلام، ولم يكن للأمر وضوح، فالأمر فيه لبس على أبي الحزم بن جهور، ولم تكن الحقيقة معروفة، وهذا يعكس قوله: "أنا حيران" فهو حيران في أمر واضح يقيني ببراءة ابن زيدون وكذب الواشين وغشهم، ولكن هذا الأمر شابه اللبس، لبسٌ على أبي الحزم، لأنّه أمرٌ حيك بليل، فلم يكن واضحاً عليهم، وكذلك حيرته في عدم تفهّم أبي الحزم بن جهور لهذا الأمر، وكيف أن مثل هذه المكيدة التي دبرت له مرّتْ على أبي الحزم، وهو يبرر لهم أن الأمر قد التبس عليهم ...

فهو ربما يمدح ويشيد بحنكة وحكمة أبي الحزم، ولكنه يستغرب كيف أنّ مثل هذه الأمور قد مرّت عليه، وهي رسالة لكي يتراجعوا عن هذا الأمر ويعدلوا عن سجنه، وهي رسالة لإيضاح الحقيقة، وهنا نلاحظ أن ابن زيدون يحمل الدهر السبب في ما حلَّ به في صورتيه: الدهر القوة الفاعلة، والدهر الزمن الحقيقي، فالدهر هو من انقلب عليه وسجنه، وهو من يأمل ويرجو منه أن يخرجه من السجن في تقلباته بين الإحسان والإساءة، وكذلك الدهر الزمن الحقيقي: بأن له وجهين: وجه مضي تكشف فيه الحقائق، ووجه مظلم معتم زيّفت فيه الحقيقة فسجن، فالزمن الذي حيكت فيه المكيدة هو الليل، والليل بطبيعة الحال قاسٍ مظلم زورت فيه الحقيقة، فهو يطلب من أبي حفص أن يكشف الحقيقة في زمن الليل، ولكن في الليالي الصافية التي صفي فيها العيش بسبب صفاء وإشراق لياليه، فابن زيدون يقابل الدهر بالدهر، وفي نهاية القصيدة يرجو ابن زيدون الدهر أن يكون سهلاً جواداً، ليسهل خروجه من السجن، فالحالة الزمنية عند ابن زيدون بدأت بالعزّ ثم تحولت إلى السجن، ثم إلى الأمل بالخروج من السجن، فابن زيدون يستشرف المستقبل ويأمل به، فهو يعلق ماله على المستقبل لعله يعود إلى سابق عهده، وتُكشَف فيه الحقائق التي شابها اللبس.

وما نلحظه في استخدامه للكلمات "ووادي" "عهدي" في معرض حديثة إلى أبي حفص، وهي من الأشياء اليقينية التي أثبتها النص فلا قياس يخالفها، ليبين لأبي حفص بأنّه ما زال على عهده محبّاً له متمسكاً بحبه، وحبه لأبي حفص وعهده له شيء يقيني لا مجال للشك فيه، وهو دائم، ليقابله أبو حفص الإحسان بالإحسان، "ووادي لك نصٌّ لم يخالفه قياس، فهو يرجوه ويتمنى في قوله: "لا يكن عهدك ورداً إن عهدي لك آس" أن لا ينساه، وينسى هذه المحبة، والعهد الذي كان بينهما، فالشاعر محافظ عليه وهو دائم الوفاء لأبي حفص، ويطلب منه أن يكون دائم الذكر له في

صحوته وفي سكره، فوفاء الشاعر ووداده الذي هو نص لأبي حفص مسوغ له أن يطلب منه ما طلبه في أن يكون دائم الذكر له.

وفي كل هذا كان ضمير المتكلم مفرداً، وفي قوله نلبسُ الدنيا يستخدم ضمير المتكلمين وربما هنا رسالة مبطنة لأبي حفص كما ذكرنا سابقاً، يحذره من زوال النعمة فكما زالت عن ابن زيدون وأصبح بحاجته، فربما تزول عن أبي حفص فمتاع الدنيا زائل، وعليه أن يستغل هذا المتاع في عمل الخير لمساعدة ابن زيدون، فربما يتقلب عليه الدهر كما انقلب على ابن زيدون وحطَّ من حاله، وقتئذٍ سيكون إذا أوفى لابن زيدون سيكون له وفيًّا، فوفاؤه له دائم، فالدهر دائر متقلب على الجميع، وكذلك في استخدامه لضمير المتكلم في قوله: "من سنا رأيك لي في غسق الخطب اقتباسُ" دلالة على أن يتعاون معه في مقاومة أحداث الدهر. فاستخدم ضمير المتكلم مع ضمير المخاطب الذي خاطب به أبا حفص، وقدم ضمير المخاطب على ضمير المتكلم دلالة على أنه بحاجة إلى أبي حفص لإزالة الظلم الحاصل له، فقدم أبا حفص على نفسه. ومتاع الدنيا زائل، وكذلك قسوتها زائلة، وهنا أشارة إلى تقلب الدهر، وهذا ما يؤكد نظرته في البيت الأول بين جرح الدهر ودوائه.

بنى الشاعر قصيدته على الثنائية الضدية؛ ليوضح رؤيته في سجية الدهر في التقلب بين الإحسان والإساءة، ففي المحورين الأول والثاني قدم ابن زيدون أعمال الدهر الإيجابية على الأعمال السلبية، وبعد ذلك قدم الأعمال السلبية للدهر على الإيجابية؛ ليبين كيف يتقلب الدهر، وكيف تقلب على ابن زيدون، فهو في بادئ الأمر كان يعيش في نعيم، فانقلب الدهر عليه وأدخله في جحيم السجن، وكذلك ليبين فعل الدهر بين الإحسان والإساءة. فالقصيدة مبنية على الثنائيات الضدية القائمة على الأمور التي تعكس حيرة الشاعر بين الشك واليقين، ومن الأمور التي بناها ابن زيدون

على اليقين: حال الدهر بين الجرح والدواء، وحال الدهر في رفع أناس على حساب أناس آخرين، وفي تقسيمه للناس بين ماجد سخيّ، وخسيس حقير وهي صفات تنطبق على أفعال الدهر، وفكرته اليقينية في زوال الدنيا ومتعها، وفي معرض مدحه لأبي حفص في ذكائه وفطنته، وفي ثبات ابن زيدون على العهد مقابل تغيّر المعشر، وكذلك ثقته بنفسه وتيقنه من الخروج من السجن فهو كالماء الذي ينبجس رغم قسوة الصخر، وهو كالأسد الذي يلبد للافتراس في تخير الوقت المناسب، وهو كالغيث الذي وإن طال فلا بد أن يهطل، وهو مسك وإن حلّ به ما حلّ، ودعوته لاستخدام الفرص السانحة وإيمانه بزوالها، وكذلك استخدامه "لقد" التي تفيد التحقيق في قوله" فقد طال الشماس" وهنا تأكيد على أن غيبته في السجن قد طالت، بالمقابل استخدم "قد" التي تفيد التشكيك في قوله "ولقد ينجيك إغفال" وما يفيد الشك كذلك كلمة "ظني" و"ربما" والأشياء التي قد تحصل على عكس ما هو مألوف، وهو يقوي شكه فشكه مدعم بالأمثلة الكثيرة، في استخدامه "لكم" التي تفيد تكثير حدوث مثل هذه الصدف، وهذا كله لتأكيد عبثية الدهر في صنع كل شيء ما هو مألوف وما هو غير مألوف إيجاباً وسلباً، وكذلك ليعكس حيرة الشاعر بين وضوح الأمر والتباسه. وهناك ثنائيات مستنتجة، كثنائية ضعف الشاعر وقوته، فضعف الشاعر يظهر في تشبثه بعبثية الدهر، وفي طلبه من أبي حفص، بالمقابل قوته في ثقته بنفسه فهو مصان كالمسك مهما حصل له، وفي وصف نفسه بالأسد، وفي مواجهة الدهر بنفسه وغيرها...

فالدهر في منظور ابن زيدون على ثلاث صفات: الدهر بين الإحسان والإساءة، كما جاء في قوله: "يجرح الدهر وياسو، وكذا الدهر إذا ما عز ناس ذل ناس"، الدهر القاسي، كما في قوله: " وإن قسا الدهر"، الدهر السموح الذي يرتجي منه ابن زيدون السماح، كما في قوله: " وعسى أن

يسمح الدهر" وفي هذه الحالات الثلاثة للدهر نجد أن ابن زيدون يمتلك الأسباب التي ستخرجه من السجن، وهي محاولة للتخفيف عن نفسه، ولإيصال رسالته لأبي حفص، ففي القسم الأول يعقد آماله على تقلبات الدهر، وفي الثاني يتحدى الدهر، وفي الثالث يلتمس السماح من الدهر. ونلاحظ أن الشاعر استخدم التقسيم؛ ليناسب وصف الدهر في التقلب بين الجانب الإيجابي والجانب السلبي.

أكثر الشاعر من استخدام الألفاظ التي تدل على فضاء الحرية، وكذلك الألفاظ التي تدل على عتمة السجن" سنا رأيك، غسق الخطب" ،"التباس، وضوح"،"قسوة الدهر، انبجاس الماء"،"يلبد الورد، افتراس" "الآمال، الياس" وغيرها من الألفاظ التي تدل على عتمة السجن منها" يغشى، اعتساس بمقابل صفو الليالي، احتباس"، وكذلك استخدامه لأسلوب الحصر " إنما العيش اختلاس".

فالتدوير الذي نجده في استخدام ابن زيدون في أحد عشر موضعاً يشير إلى تواصل المعنى، وقد استخدمه في مقاطع القصيدة التي لم يخلُ محور من المحاور الأربعة منه، كذلك حرف الروي السين الذي بنيت عليه القصيدة، والسين هو حرف مهموس رخو من حروف الصفير [1]، وكأن الشاعر أراد به لينفس عن همومه ومصائبه، وجاء حرف السين مضموماً؛ ليناسب موضوع القسوة وضمة السجن له، وقسوة الدهر التي يعيشها ابن زيدون، فالضمة من بين الحركات أشدها قوة وثقلاً، وهي مناسبة لموقف الحزن والشكوى، فالسين تعبر عن التنفيس عن النفس المضطربة والمتوجعة والمتأوهة.

1- المعجم الوسيط، باب السين، السين هو الحرف الثاني عشر من حروف الهجاء مزجه بين طرف اللسان، وفويق الثنايا العليا.

وهناك ثنائية ضديَّة في القصيدة غير واضحة وهي مستنتجة، وهذه الثنائية تظهر حالة الشاعر المحتارة التي تظهر تارةً بموقف مستلب ضعيف، وتارة بموقف القوة والاعتداد بنفسه. موقف الضعف في ترجيه للدهر بالمساح، وفي المواقف التي يظهر فيها قسوة الدهر، وموقف القوة في أمله، وضربه الأمثلة التي تؤكد قوته وثقته بنفسه، فهو كالأسد، وهو مسكٌ في ثقته في نفسه، وهو ماء سلسل يقاوم الصخر القاسي ليخرج من خلاله، وغيرها ...

نلحظ أن ابن زيدون استخدم التصريع، فهو يخلق تناسقاً بين أجزاء البيت الواحد، والتصريع له أهمية في جذب خيال المتلقي[1]، لما له من تأثير من الناحية الصوتية والجرس الموسيقى، فهو يخلق تناغماً داخلياً، وكما يرى قدامة بين جعفر: فإن التصريع يكون اقتدار الشاعر وسعة بحرهِ[2]. وهذا ما نجده في قوله:

مـــــا علـــــى ظنّـــــي بـــــاسُ يجـــــــرح الـــــــدهرِ وياســـــــو

وأدر ذكـــــــــــــري كأســـــــــــاً مـــــا امتطـــــت كفّـــــك كـــــاسُ

والتدوير له فائدة في أنه يبقي المعنى والإيقاع متصلاً، وكذلك يدلُّ على حالة التوتر التي كان يعيشها الشاعر، وكذلك في مدّ الصوت على طول البيت وليس على شطر واحد، وهو تحرر من التقيد بالشطر، كذلك يعكس نفسية الشاعر المتوترة والتواقة إلى التحرر من السحن، وقد كرر ذلك في أحد عشر بيتاً من القصيدة. شكلت الألفاظ المختلفة والمتضادة ملمحاً أسلوبياً في هذه القصيدة، لكثرتها، فقد أسهمت في إحداث الأثر الجمالي، وخلق عنصر التأثير عند التلقي، وهذا يعمل على جعل الإيقاع ليس ملتزماً بالألفاظ، بل يتجاوز إلى التركيب، فتوالي المتضادات تعمل على توليد

[1]- أحمد جاسم الحسين، الشعرية دراسة في شعر ابن زيدون المعتز العباسي، الأوائل للنشر والتنزيع، سوريا، 2000، ص51.
[2]- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق كمال مصفى، مكتبة الخانجي، مصر، 1967، ص51.

الإيقاع الناشئ عن التضاد، ويعمل على إحداث إيقاع خاص يؤثر في نفسية المتلقي، ويجعله يعيش الحالة التي يعيشها الشاعر، وخاصة ما نلحظه في هذه القصيدة من استخدام الطبقات على عكس المألوف، وكذلك الجناس، وما يعمل من إثراء النغمة الإيقاعية من خلال التكرار، وما يسهم في عكس التجربة النفسية للشاعر، ونقلها بصورتها إلى المتلقي.

أمّا القافية التي تعدُّ بأنها الحرف الذي يجيء في آخر البيت[1]، وهي ركنٌ يقوم الشعر عليه، ولها أثر في الإيقاع، فالوزن والقافية يبعثان من الموسيقى ما يجعله أقوى أثراً في النفس، وأكثر التصاقاً بالذاكرة، وأخف دفقاً على اللسان من النثر[2].

فالقافية نغمة تتكرر في جميع أبيات القصيدة، وكانت بحرف السين، فجاءت؛ لتنفس وتثبت ما ألم بالشاعر من أحزان أثقلته هي وحرف المد الألف، فعملت على إراحة النفس من الأحداث التي ألمت بها، هذا بالإضافة إلى أن الشاعر عمد إلى تكرار حرفي الألف والسين في أبيات القصيدة، مما ساعد تكرارهما على إحداث إيقاع موسيقي، ونفث زفرات الشاعر.

وما نلحظه في القصيدة أن ابن زيدون نوّع في استخدامه بين الجمل الاسمية والجمل الفعلية، في حين غلبت الجمل الفعلية على الجمل الاسمية، والجمل الاسمية والفعلية كانتا قصيرتين، ربمّا لأن الشاعر أراد أن يعبر عن فكرته، ويوصلها إلى أبي حفص بسرعة، فلا حاجة إلى استخدام الجمل الطويلة، والجمل القصيرة تعبر عن توتر الحالة النفسية لدى الشاعر.

عمد الشاعر إلى تقديم الخبر على المبتدأ في الجمل الاسمية كثيراً، ومن ذلك:

---

[1]- عبدالله الطيب المجذوب، المرشد إلى فهم أشعار العرب، ص3.
[2]- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ص119.

كلهـــــم يســـــأل عـــــن حـــــا لـــــــي وللـــــــذئب اعتســـــــاس

وإن قســـــــا الـــــــدهر فاللمـــــــا ء مـــــــن الصـــــــخر ائبجـــــــاس

ولـــــــئن أمســـــــيتُ محبـــــــو ســـــــاً فاللغيـــــــث احتبـــــــاس

يلبـــــــد الـــــــورد الســـــــبنتى ولـــــــه بعـــــــد افتـــــــراس

هنا تعبير عن حالة الشاعر المتأمل للخلاص من السجن، ونجد أن الشاعر قدم الخبر على المبتدأ بحيث جاء الخبر شبه جملة، وهذا "يوهم أنه صفة وأن الخبر منتظر"[1]. وهذا التعبير في اللغة وظفه ابن زيدون، لخدمة غرضه، كما أكده بالمعنى، فكذلك يؤكده باللفظ، فهو ينتظر الخلاص من السجن، كما ينتظر انبجاس الماء من الصخر بعد القسوة، وكذلك انهمار الغيث بعد احتباسه، وافتراس الأسد بعد لبدته، كل هذا يعكس استشراف الأمل عند الشاعر في الخلاص من السجن، وهذا ما بيّنه الشاعر في البيت الثاني:

ربمـــــــا أشـــــــرف بـــــــالمر ء علـــــــى الآمـــــــال يـــــــاسُ

وغيرها من الأبيات التي عمد فيها ابن زيدون في تقديم الخبر على المبتدأ، كما نلاحظ فصل الشاعر بين الفعل والفاعل بالجار والمجرور المكرر؛ لجعل المتلقي ينتظر، ولإضافة عنصر التشويق الذي يأتي بالمفاجأة عند ذكرهِ، كما في البيت السابق، وكذلك لجأ الشاعر إلى تقديم المفعول به على الفاعل؛ لإحداث عنصر المفاجأة في ترقب الفاعل، وذلك في قوله:

يـــــا أبـــــا حفـــــص ومـــــا ســـــا واك فـــــــي فهـــــــمٍ إيـــــــاسُ

[1]- الشيخ مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1992، ص268.

ونلاحظ أنه بدأ بالنداء "لأبي حفص" والنداء بمثابة صرخة استنجاد؛ لعله يستجيب ويخرجه من مصيبته، وكذلك؛ ليخرج نفسه من وحدتها في جعل إنساناً يحاوره ويناديه، ويؤكد بالبيت نفسه الإشادة بأبي حفص بضمير المخاطب الكاف "وما ساواك" مؤكداً بإسلوب النفي أن إياس بن معاوية لا يساوي أبا حفص في الذكاء والفطنة، وأن أبا حفص يفوقه ويتغلب عليه، وفي تكرار استخدامه لهذهِ الضمائر التي تكسب المعنى قوة، وتزيد من عنصر المفاجأة، والتشويق عند المتلقي في أنَّ الضمير يعود على عائد، وقد استخدم الضمير في أغلب أبيات القصيدة، وقد نوع في استخدامه بين ضمير المتكلم والغائب والمخاطب، وكان لها دور في توضيح المعنى، كتوضيح عزلة الشاعر، وانفراده في استخدامه لضمير المفرد المتكلم والغائب، والحديث عن الذين حالوا عن العهد وغدروا به؛ وليخرج الشاعر نفسه من هذهِ الوحدة والعزلة في استخدامه لضمير المخاطب، والنهي والطلب من الممدوح؛ ليساعده ولا يتخلى عنه، وفي استخدامه لضمير المتكلم المستتر في قوله "تلبسُ الدنيا"؛ ليواسي نفسه في أن الدنيا تتقلب على الجميع، وهي حقيقة في اغترار الناس بها، والنعيم فيها غير دائم فهو زائل، ولما لاستخدام الضمائر من دور في تنويع الإيقاع.

يستخدم الشاعر الجموع والمفردات ويكررها، الجموع مثل: الآمال، بنو، المحاذير، المقادير، سهام، قياس، ناس، خساس، الأيام، معشر، أذؤب، ورداً، الليالي. والمفردات مثل: باس، اغفال، احتراس، الخطب، الدهر، نص، الأمر، حيوان، التباس، العهد، للذئب، الماء، الصخر، الورد، المجد، كأس، كفك، الدنيا. وكأنها تحدث مفارقة ضدية؛ لبيان حال الشاعر المفردة بين ظلمات السجن، وما كان عليه من نعيم في وصاله في أيام نعيمه وحريته.

وكذلك لجأ ابن زيدون إلى تكرار الفعل في نفس البيت، مثل قوله:

ولقـــــــــد ينجيـــــــــك إغفـــــــــا لٌ ويرديـــــــــــــــك احتـــــــــــــــراس

ولكـــــــــم أجـــــــــدى قعـــــــــودٌ ولكـــــــــم أكـــــــــدى التمـــــــــاس

فهو يشكل بالإضافة إلى العلاقة الضديّة في توضيح المعنى، إلى ربط المعنى، وإحداث عنصر الحركة، والإيقاع الداخلي، وقد استخدم الشاعر الفعل بصيغة الماضي المضارع والأمر.

قد كثرت أدوات الربط، فالواو، أكسبت النص بأكمله تسلسلاً وانتظاماً، بالإضافة إلى أنه يعكس نفسية الشاعر المضطربة، وكثرت لأن الشاعر عمد إلى الإكثار من استخدام الجمل القصيرة، وكذلك كان لها دور في تنويع الإيقاع، بين المقاطع الطويلة والقصيرة وترتيبها في كل بيت، وهذا ساعد الشاعر في التخلص من الالتزام بالإيقاع المتكرر، مثال:

والمحـــــــــــــاذير ســـــــــــــهامٌ والمقـــــــــــــادير قيـــــــــــــاسُ

ولكـــــــــم أجـــــــــدى قعـــــــــودٌ ولكـــــــــم أكـــــــــدى التمـــــــــاسُ

ساعد في التنويع في الإيقاع في الانتقال من البدء بالمقطع الطويل في قوله" والمحاذير" إلى البدء بالمقطع القصير في قوله "ولكم أجدى" وما نلحظه في تكرار حركة الضم، لها أثر في انتظام الإيقاع، وإحداث جرس موسيقي منتظم، وكذلك تكرار التنوين "الضم، والفتح، والكسر" له دور في تنويع الإيقاع، ولما له من دور في إظهار حالة الشاعر التي تئن جراء السجن في استخدامه تنوين الضم، وحال الشاعر المكسورة في استخدام ضمير الكسر، وجاء تنوين الفتح؛ ليطلق الشاعر زفرات الضغط النفسي، ولتستريح النفس في المد، وكذلك تكرار الشاعر الألف التي جاءت بمثابة زفرات أو تنهدات يطلقها الشاعر؛ ليريح نفسه، ويخفف الضغط الموجود بداخله جراء سجنه.

ونجد الشاعر يلجأ إلى التقسيم، وذلك في قوله:

وكـــــــذا الـــــــدهر إذا مـــــــا عـــــــزّ نـــــــاس ذلَّ نـــــــاس

وبنـــــــو الأيـــــــام أخيـــــــا ف ســـــــــــــراةٌ وخســـــــــــاسُ

أنـــــــا حيـــــــران وللأمـــــــ ـــــــر وضـــــــوحٌ والتبـــــــاس

لبيان تقلبات الدهر بين الجرح والدواء، ولما له من دور في إحداث جرس موسيقى في التكرار والتقسيم.

وابن زيدون كرر المصدر الصريح، في إشارة إلى الحدث وإلى الاسم، فالمصدر اسم يدلّ على حدث غير مقترن بزمن، وهذا له دور في عنصر الحركة والثبوت في الوقت نفسه، وهو ما يعكس حال الشاعر، وحال الدهر، وقد أكثر الشاعر من هذا، وأن معظم هذه المصادر جاءت على الأوزان نفسها مما يحدث جرساً موسيقياً متناسباً مع حالة الشاعر في معاناته المتكررة، أو الآمال المنتظرة للخلاص من السجن، ليوصلها إلى الممدوح أبي حفص؛ ليشعره هو الآخر بالأحداث النفسية المأزومة التي يعانيها، وهذه المصادر هي: باس، إغفالٌ، احتراسٌ، قياسُ، التماس، اللباس، اقتباس، التباس، وضوح، قعود، فهم، غسق، نصٌ، العهد، المساس، انتهاش، انتهاسٌ، اعتساس، انبجاس، احتباس، افتراس، النعاس، اختلاس. ونلاحظ تكرار السين، وتكرار همزة الوصل بشكل كبير له دور في الإيقاع، وكذلك لربط الكلام، وهذا ما يعكس حالة الشاعر التي بحاجة إلى الوصل، وإدامة الذكر من الممدوح، ليساعده في إخراجه من ظلمات السجن.

كذلك تكرار الدهر والألفاظ التي تدلُّ على الدهر بمعناه الحقيقي، أو القوة الفاعلة، كل هذا يعكس حال الشاعر، وموقفه من الدهر، وأنّه حلّ به وأدخله في السجن، وليستعين به بتقلبه أو برجائه، وبالممدوح عليه، وبنفس الشاعر القوية للتغلب عليه والخلاص من السجن.

عمد الشاعر إلى تكرار أسلوب الشرط الذي يعكس نفسية الشاعر المترددة المأزومة، ونفسية التي تتوق إلى الحرية، والتي يبشر فيها جواب الشرط عن الخير المنتظر جراء تعسر الأمور بدايةً، وذلك في قولهِ:

إن قســـــــا الـــــــدهر فللمـــــــا ء مـــــــن الصـــــــخر انبجـــــــاسُ

ولـــــــئن أمســـــــيت محبـــــــو ســـــــاً فللغيـــــــث أحتبـــــــاسُ

وهذا ما يعكس نفسية الشاعر المستشرفة للأمل الذي قد ينجم عن اليأس، فهو يريد أن يقوى عزيمته، ولا يبقى منكسراً، لعلّه يتصبر على مصابه.

رسم ابن زيدون صوراً لها آثار جمالية، للكشف عن المعنى من خلال ضرب التشبيهات من الواقع والطبيعة، وهي تشبيهات حقيقية، قد تحدث وتتأزم وتشتد، ولكن ربما يأتي يومٌ عليها وتزول هذه الشدة وتفرج، بصورة سجنة وقسوة السجن عليه بخروجهِ، بسبب لين الدهر، وقوة ابن زيدون، فكلما اشتدت الأزمة فلا بدّ أن تلين، فما بعد الضيق إلا الفرح، فهذا ما يؤكده في الصورة بالإضافة إلى الشرط.

وغيرها من الصور في غير موضع الشرط، كصورة السامري مثلاً، أوضحها البحث سابقاً، وما نلحظه أن الشاعر راوح في إسلوبه بين استخدام الجمل الإنشائية والجمل الخبرية، ولكنّه غلّب

الجمل الخبرية على الإنشائية؛ ليعزز من نظرته بين الشك واليقين، ويرجع اليقين على الشك في استخدام الجمل الإنشائية، وكل ذلك ليعزز الشاعر نظرته التفاؤلية في استشرافه للأمل المنشود، وهو خروجه من السجن.

وما نلحظه من تخفيف الهمز في كلمات: "ياس، ياسو، ياس، يوطا، كاس"، فالهمزة حرف حلقي مطبق يحبس معه الهواء حين تنطقه، وهو ما يعبر عن حالة الانحباس التي يعيشها الشاعر، فالشاعر أراد الخلاص منه، ليرسل زفراته التي أطبقت على أنفاسه جراء السجن.

نوّع ابن زيدون بين الأساليب وكانت قليلة في الاستخدام، فاستخدم أسلوب النفي، وأسلوب الإستفهام، وأسلوب النهي، وأسلوب الترجي، وأسلوب الشرط، وأسلوب الحصر، وهذه الأساليب مجتمعة وظّفها ابن زيدون لإيصال رسالته، فأسلوب الحصر " إنما العيش اختلاس " جعل العيش الهانئ محصوراً بالاختلاس.

لجأ الشاعر إلى التكرار في استخدام بعض الكلمات؛ لتأكيد المعنى، واستخدم الشاعر الجناس الناقص بين (ياس وياسو، المحاذير والمقادير، أجدى وأكدى، عهدي وعهدك، نلبس اللباس، انتهاش وانتهاس، محبوسا واحتباس)؛ ليزيد من الإيقاع الموسيقي الذي ينشأ من تكرار الحروف.

شكل توظيف الكلمات الدالة على الكائنات الحية والنباتات والجمادات تكوين الصورة التي ساعدت في إبراز المعنى.

ما نلحظه على القصيدة في محاورها الأربعة أن ابن زيدون تنقل في حديثه بين الدهر والممدوح، ففي المحور الأول بدأ الحديث عن الدهر، ثم انتقل في المحور الثاني مخاطباً الممدوح، وفي المحور الثالث عاد للحديث عن الدهر، وفي المحور الأخير وجه خطابه إلى الممدوح، وختم

القصيدة راجياً الدهر؛ لعله يسمح، فهذا التنقل يعكس حيرة الشاعر بين الدهر الذي يتقلب بين الجرح والدواء، والممدوح الذي قد يستجيب لرسالة ابن زيدون أو لا يستجيب، وهو كذلك يستعين بالدهر على الدهر، وبالممدوح على الدهر للخلاص من السجن.

كرر ابن زيدون صيغاً صرفية على أوزان متفقة وأوزان مختلفة كان لها دور في الإيقاع والموسيقى، فكرر صيغة افتعال عشر مرات، والكلمات هي: "احتراس، التماس، اقتباس، التباس، انتهاش، انتهاس، اعتساس، احتباس، افتراس، اختلاس"، وكرر صيغة افتعال ثماني مرات، والكلمات هي: "سهام، قياس، سراه، خساس، قياس، مساس، نعاس، شماس"، وكرر صيغة مفاعيل مرتين، والكلمتان هما: "محاذير، مقادير"، وكرر صيغة أفعل مرتين، والكلمتان هما: "أجدى، وأكدى"، وكرر صيغة يفعل أربع مرات، والكلمات هي: "ينجيك، يرديك، يداس، يوطا"، وغيرها من الصيغ كصيغة: فعل وافعال وفعلان وفعلوا وانفعال ومفعل وفعلة وفعالي ويفاعله.

عمد ابن زيدون إلى تكرار التراكيب المتطابقة، وذلك في قوله:

وَلَقَـــــــدْ يُنْجِيـــــــكَ إغْفَـــــــا لٌ وَيُرْديـــــــكَ احْتِـــــــرَاسُ

والمحـــــــــــاذيرُ ســـــــــــهامٌ والمقـــــــــــاديرُ قيـــــــــــاسُ

ولكـــــــمْ أجـــــــدَى قعـــــــودٌ ولكـــــــمْ أكـــــــدى التمـــــــاسُ

وهذا التكرار يزيد من التدفق الموسيقي في القصيدة.

مَـــــا عَلـــــى ظَنّـــــيَ بَـــــاسُ يَجْـــــــرَحُ الـــــــدّهْرُ وَيَاسُـــــــو

– ∪ – – ∪∪ – – – ∪ – – ∪∪ – –

رُبّمـــــــــا أشْـــــــــرَفَ بِـــــــــالمَرْ ء عَلَـــــــى الآمَـــــــالِ، يَـــــــاسُ

– ∪ – – ∪∪ – – ∪ ∪ – – – ∪ – –

وَلَقَـــــــــدْ يُنْجِيـــــــــكَ إغْفَـــــــــا لٌ وَيُرْديـــــــــكَ احْتِـــــــــرَاسُ

∪ ∪ – – – ∪ – – – ∪ – – – ∪ – –

والمحـــــــــــــاذيرُ ســـــــــــــهامٌ والمقـــــــــــــاديرُ قيـــــــــــــاسُ

– ∪ – – ∪ ∪ – – – ∪ – – ∪ ∪ – –

ولكـــــــــمْ أجـــــــــدَى قعـــــــــودٌ ولكـــــــــمْ أكـــــــــدى التمـــــــــاسُ

∪ ∪ – – – ∪ – – ∪ ∪ – – – ∪ – –

وَكـــــــــذَا الـــــــــدّهْرُ إذَا مَـــــــــا عـــــــــزّ نـــــــــاسٌ، ذَلّ نـــــــــاسُ

∪ ∪ – – ∪ ∪ – – – ∪ – – – ∪ – –

وبنُـــــــــو الأيّـــــــــامِ أخْيَـــــــــا فٌ: سَـــــــــرَاةٌ وَخِسَـــــــــاسُ

ن ن – – – ن – – – ن – – ن ن – –

نَلْـــــــبَسُ الـــــــدّنْيَا، وَلَكِـــــــنْ متعـــــــــــةٌ ذاكَ اللّبـــــــــاسُ

– ن – – – ن – – – ن – – – ن – –

يـــا أبـــا حَفْـــصٍ وَمَـــا ســـا وَاك فـــــي فهـــــمٍ إيَـــــاسُ

– ن – – – ن – – – ن – – – ن – –

مِـــنْ سَـــنَا رَأْيِـــكَ لـــي فـــي غَسَـــــقِ الحَطَـــــبِ اقتبـــــاسُ

– ن – – ن ن – – ن ن – – – ن – –

وَوِدادي لَـــــــــكَ نَـــــــــصٌّ لـــــــمْ يخالِفْـــــــهُ قيـــــــاسُ

ن ن – – ن ن – – – ن – – ن – –

أنَـــــــا حَيْـــــــرَانُ، وَلِلأمِـــــــ ـــــــر وُضُـــــــوحٌ وَالتِبَـــــاسُ

ن – – – ن ن – – ن ن – – – ن – –

مَـــا تَـــرَى فـــي مَعْشَـــرٍ حـــا لـــوا عـــنِ العهـــدِ وخاسُـــوا

– ∪ – – – ∪ – – – ∪ – – – ∪ ∪ – –

وَرَأوْنـــــــــــي سَـــــــــــامِرِيّاً يُتّقَـــــــى مِنْـــــــهُ المَسَـــــــاسُ

∪ ∪ – – – ∪ – – – ∪ – – – ∪ – –

أذْؤبٌ هامَـــــــــتْ بلَحْمـــــــــي فانْتِهَـــــــــاشٌ وَانْتِهَـــــــــاسُ

– ∪ – – – ∪ – – – ∪ – – – ∪ – –

كلّهـــــمْ يســـــألُ عـــــن حـــــا لـــــي، وَلِلـــــذّئْبِ اعْتِسَـــــاسُ

– ∪ – – ∪ ∪ – – – ∪ – – – ∪ – –

إنْ قسَـــــا الـــــدّهرُ فلِلْمَـــــا ءِ مـــــنَ الصّـــــخْرِ انبجـــــاسُ

– ∪ – – ∪ ∪ – – ∪ ∪ – – – ∪ – –

وَلَـــــئنْ أمْسَـــــيْتُ مَحبُـــــو ســـــاً فَلِلْغَيْـــــثِ احْتِبَـــــاسُ

∪ ∪ – – – ∪ – – – ∪ – – – ∪ – –

يلبُـــــدُ الـــــورْدُ السَّـــــبَنْتَى وَلَـــــهُ بَعْـــــدُ افْتِـــــرَاسُ

– ن – – – ن – – ن – – – ن – –

فتأمّـــــلْ كيـــــفَ يغشَـــــى مقلـــــةَ المجـــــدِ النّعـــــاسُ

ن ن – – – ن – – – ن – – – ن – –

ويفـــــتّ المســـــكُ فـــــي التُّـــــر بِ فَيُوطَـــــــــا وَيُـــــــــدَاسُ

ن ن – – – ن – – ن ن – – ن – –

لا يكـــــــــنْ عهْـــــــــدُكَ ورداً إنّ عهـــــــــدِي لـــــــــكَ آسُ

– ن – – ن ن – – – ن – – ن ن – –

وأدرْ ذكـــــــــرِيَ كأســـــــــاً مـــــا امتطَـــــتْ كفَّـــــك كـــــاسُ

ن ن – – ن ن – – – ن – – ن ن – –

وَاغْتَـــــــنِمْ صَـــــــفْوَ اللّيَـــــــالي إنّمَـــــــا العَـــــــيْشُ اخْـــــــتِلاسُ

– ن – – – ن – – – ن – – – ن – –

وَعَسَـــــــى أنْ يَســـــــمحَ الدّهـــــــ ـــــــرُ فقـــــدْ طـــــالَ الشِّـــــماسُ

ن ن – – – ن – – ن ن – – – ن – –

ما نلاحظه على القصيدة تناوب المقاطع القصيرة والطويلة، مع غلبة المقاطع الطويلة على القصيدة وهذا ما يكون عليه الشعر، وتنوع في استخدام المقاطع القصيرة في الأبيات، فكرر المقاطع القصيرة منتظمة في كل شطر بثلاثة مقاطع، والطويلة بخمسة مقاطع في تسعة أبيات من القصيدة غير منتظمة، بمجموع ستة مقاطع قصيرة، وعشرة مقاطع طويلة في كل بيت، كما كرر في ستة أبيات في الشطر الأول المقاطع القصيرة ثلاث مرات، والطويلة خمس مرات، والشطر الثاني القصيرة مرتين والطويلة ست مرات، بمجموع خمسة مقاطع قصيرة، والطويلة إحدى عشرة مرة في البيت، وجاء في بيتين اثنين تكرار المقاطع القصيرة في كل بيت خمس مرات، والطويلة إحدى عشرة مرة، وفي الشطر الأول المقطع القصير مرتين، وفي الشطر الثاني ثلاث مرات، والطويل ست مرات في الشطر الأول، وخمس مرات في الشطر الثاني، وجاء تكرار المقاطع القصيرة في أربع أبيات مرتين في كل شطر، والطويلة ست مرات في كل شطر، وجاء في بيتين تكرار المقاطع القصيرة ست مرات في كل بيت أربع مرات في الشطر الأول، واثنين في الشطر الثاني، والمقاطع الطويلة أربع مرات في الشطر الأول، وست مرات في الشطر الثاني، وجاء في بيتين تكرار المقاطع القصيرة سبع مرات، والطويلة تسع مرات، في الشطر الأول القصيرة ثلاث مرات، وفي الشطر الثاني أربع مرات، وعلى العكس في البيت الثاني الشطر الأول أربع مرات قصيرة، والثاني ثلاث مرات، والطويلة خمس مرات في الشطر الأول، وأربع مرات في الشطر الثاني، والطويلةً أربع مرات في الشطر الأول وخمس مرات في الشطر الثاني.

فالتنوع في استخدام المقاطع ساهم في التخلص من الرتابة في الإيقاع فنجد تساوياً في المقاطع الطويلة والقصيرة في أشطر وتباينها في أشطر أخرى، أما على مستوى البيت فلم تتساوَ المقاطع الطويلة والقصيرة، وتنوع هذه المقاطع وتكرارها ساهم في الإيقاع والموسيقى.

الخاتمة:

اتخذ الدهر حيزاً في خيال الشاعر العربي، وكان له حضور في النص الشعري، فيما يتعلق بموضوعات الصراع بين الحياة والموت، فكان في نظر الشاعر العربي قوة تهدد حياته، وقوة تمنحه السعادة، وتمنحه الحياة، فابن زيدون استخدمه كما استخدمه الذين سبقوه من الشعراء في أنه قوة فاعلة تمنع وتمنح، وكذلك لم يغفل عن استخدامه بمعناه الحقيقي، فالعلاقة بينه وبين الإنسان تقوم على الحذر والخوف منه لأنه قوة قاهرة مسيطرة لا يستطيع أحد أن يتغلب عليها أو يقهرها.

فنرى ابن زيدون يواجه الدهر لكنه يفشل في مواجهته، فيرضخ له مستسلماً لحكمه، ينقاد لحكمه ويأتمر بأمره، فهو يائس منه، لا يسأل عن أي قوة فهو ينزع السلطة والقوة متى شاء، ويمنحها متى شاء، كذلك يسلّم أمره ويعلن عدم مقدرته على صنع أي شيء، وأحياناً يرجوه ويطلب منه قضاء حوائجه.

فحاولت الدراسة أن تبين موقف ابن زيدون من الدهر، وأثره في شعره، فجاء التمهيد باحثاً في مفهومه وأسمائه في معاجم اللغة، مبيناً موقف العربي منه وفكرته عنه، وموقف الإسلام منه، ولكن ما وجدناه أنّ الشعراء ما بعد الإسلام تابعوا شعراء العصر الجاهلي في موقفهم من الدهر، رغم أن الإسلام حرّم شتمه وذمه ونسبة الأحداث إليه، وتوصل إلى أن هناك فرقاً بينه وبين الزمن، وإن كان في بعض حالاته صورة من صور الزمن، فهو هو المدة الطويلة "الأمد الممدود" بينما الزمن محدود بمدة معينة.

وكذلك فإن الدهر هو قوة غيبية قاهرة تتصرف في الأشياء، كما رآه الجاهليون وسار الشعراء على دربهم ومنهم ابن زيدون، فتغيّرها بين الخير والشر، وبعدها جاء الحديث عن المؤثرات التي

شكلت صورة الدهر، فكانت مؤثرات سياسية ومؤثرات عاطفية تتمثل في قصة حبه مع ولادة، وغيرها من المؤثرات، فنلحظ أنَّ الدهرّ قلب حياة ابن زيدون وحال بينه وبين تحقيق طموحه.

وفي الفصل الأول: وقفت الدراسة على إحصائيات لألفاظ الدهر ومتعلقاته؛ لتخلص إلى شيوع ألفاظ الدهر في شعر ابن زيدون، وكذلك ساعد الدهر في تشكيل ورسم الصورة الفنية في شعرهِ، فنلاحظ أن بعض النصوص قد بناها على صورة الدهر، وكذلك وجدنا شيوع هذه الألفاظ في جميع الأغراض التي نظم عليها ابن زيدون، وابن زيدون لم يفرد للدهر موضوعاً خاصاً بل وجدنا سيطرة الدهر وألفاظه على نصوص في شعرهِ، فكان لها دور في لغة القصيدة وإيقاعها.

وفي الفصل الثاني: تم دراسة تجليات الدهر وحركة المعنى في شعر ابن زيدون، تبين أن للدهر سلطةً كبيرة على ابن زيدون والأشياء المحيطة به، فهو دهر مهلك ومبدل ومفرق وخائن ومفسد، وهذه تدلُّ على قدرة الدهر في تغييره للأشياء، وكلها مفردات تدلُّ على السلبية وعلى الشر.

والدهر يمتلك جنوداً في الأرض مهمتها القهر والتسلط متمثلة في الصروف والنوائب والريب والخطوب والأرزاء والحوادث، وكذلك فالدهر أثرَّ على ابن زيدون فأحدث الشيب له في سن مبكر، وهو في شبابه، وكان الشباب له شفيعاً عند النساء، فأعرضت النساء عنه بسبب ظهور الشيب، وكان للدهر وجه حسن أنعم على ابن زيدون في فترة، وتخلى عنه في فترةٍ أخرى، فأفقده منصبه، وهجره من بلده، وأدخله ظلمة السجن، وأبعده عن محبوبته، فاستعان ابن زيدون على الدهر بالممدوح حيناً، وبالمحبوبة حيناً أخرى، وبالدهر نفسه حيناً ثالثه، وبالصبر حيناً رابعة.

ولكنه كان يفشل في بعض الأحيان فيستسلم لحكمه، والدهر كان بمفهومه الزمني حاضراً في شعره ابن زيدون، فكان ابن زيدون يستحضر الماضي بما فيه من سعاده وفرح، ويمقت الحاضر بما

فيه من حزن وشؤم، ويستشرف المستقبل أملاً بأن يكون كالماضي فيسعد به، وينال مبتغاه، أما الفصل الثالث والأخير: فقد خلصت الدراسة التطبيقية إلى حضور الدهر في القصيدة، وأن القصيدة بنيت عليه، فهو جزء لا يتجزأ من بنية القصيدة، وقد لاحظنا كيف كان أثر الدهر على ابن زيدون، وكيف استعان بالممدوح أبي حفص في الوقوف بوجهه، وكيف استعان بالدهر المدة الزمنية على الدهر القوة الفاعلة للتخلص منه.

وقد توصلت الدراسة إلى أن شيوع ألفاظ الدهر بصورة غير اعتيادية في ديوان ابن زيدون، كان لها أثر، وأبعاد أخرى أثرت على شعر ابن زيدون، ونفسيته، وحياته، وشكلت ظاهرة من الظواهر التي استحقت الدراسة.

والله الموفق

الملخص باللغة العربية

العتوم، يوسف غازي. الدهر في شعر ابن زيدون. أطروحة دكتوراه، جامعة اليرموك، 2017، إشراف الأستاذ الدكتور يونس خيرو شنوان.

يعد ابن زيدون علم من أعلام الشعر العربي، وقمة من قمم الأدب الشاهقة، في الأندلس، فقد طارت شهرته التي قامت على أساس كونه وزيراً وأديباً، فهو يعد شاعراً من كبار شعراء الأندلس، فقد جمع بين الأسلوب الشعري القديم والحديث، وتأثر بشعراء المشرق، فكان شعره ديباجة رائعة وضوحاً وحلاوة وموسيقى، تظهر فيها البراعة، حتى سموه النقاد بحتري المغرب.

عاش ابن زيدون حياةً مليئة بالتقلبات عرضته لاختبارات وابتلاءات كبيرة، جعلته بين نعيم العيش وبؤسه، انعكس ذلك على شعره، وحمّله للدهر، فكان يمدحه حيناً، ويشكوه ويذمه حيناً أخرى، فكان في صراع معه مستسلماً حيناً، ومواجهاً له حيناً، مستعيناً عليه بالدهر نفسه، أو بالممدوح أو بالمحبوبة أو بالصبر، فاتخذ الدهر صوراً وأشكالاً متعددة في شعرهِ.

وبعد استقراء لديوان ابن زيدون، واسقصاء تكرار الدهر ومتعلقاته، تبين أن هذه الظاهرة تستحق الدراسة، لأن الأمر لم يبقَ في إطار التكرار بل خرج إلى صور متعددة، فالقراءة قامت على تحليل النصوص التي كشفت عن صورة الدهر، وأثره في شعر ابن زيدون، وأثره على حالته النفسية.

جاءت هذهِ الدراسة في تمهيد وثلاثة فصول، ففي التمهيد وقفت الدراسة على معاجم اللغة، وأفادت منها في التعرف على مفهوم الدهر وأسمائهِ بإيجاز، وكذلك على الدهر في الشعر ومظاهره بصور عامة موجزة، ونظرة العربي إلى الدهر، ونظرة الإسلام إلى الدهر، وكذلك المؤثرات التي

شكلت صورة الدهر في شعرهِ، فكانت ما بين المؤثرات العاطفية، والسياسية، وكذلك المؤثرات الثقافية الدينية والتاريخية والشعرية بإيجاز بما يخدم غرض الدراسة.

وجاء الفصل الأول تحت عنوان: الدهر في شعر ابن زيدون، فتناول فيها دراسة إحصائية لألفاظ الدهر ومتعلقاته، وكذلك الاستخدام الفني لصورة الدهر، وهيكل القصيدة في شعر ابن زيدون ولغتها، والمظاهر الأسلوبية كالتكرار والموسيقى والإيقاع والبديع من طباق ومقابلة وجناس، وكذلك الأغراض الشعرية، بما يخص نظرة ابن زيدون إلى الدهر.

وأمّا الفصل الثاني: فجاء تحت عنوان: صورة الدهر في شعر ابن زيدون، وجاء في قسمين: تحدثت الدارسة في القسم الأول عن الدهر القوة الفاعلة المغيّرة للأشياء بالوجهين السلبي والإيجابي، فكانت سلبيته من خلال وصفه: بالمهلك والمبدل والمفرق والخائن والمفسد، وصروف الدهر ونوائبه وخطوبه ومصائبه وأرزاؤه، وعرضت الدراسة عوئد الدهر على الشاعر، فكانت في الموت، والشيب والشباب، والتحدي والمواجهة والاستسلام، وفي القسم الإيجابي تناولت الدراسة الوجه الحسن للدهر، وفي القسم الثاني تعرضت الدراسة للرؤية الزمنية للدهر في شعر ابن زيدون بالزمنين الجزئي والكلي.

أمّا الفصل الثالث والأخير من الدراسة، فجاء تطبيقاً تحت عنوان: دراسة تطبيقية لقصيدة "طال الشماسُ" تناولتها بالدراسة والتحليل، وأثر الدهر على القصيدة، وعلى ابن زيدون، وموقفه من الدهر.

هذهِ الدراسة قامت على توضيح موقف ابن زيدون من الدهر، وكيفية استخدام الدهر ومتعلقاته، وكيف ساعد هذا الاستخدام في توضيح موقف ابن زيدون، وكشف حالته النفسية.

Abstract

Al Otoom, Yousef qazi. Aeon in Ibn Zaidoun Poetry. PhD dissertation, Yarmouk university, 2017. Supervisor. Professor. Tyounis Khairo Shanwan

Ibn Zaidoun is one of the greatest Arab poets in Andalusia. His celebrity as a minister and a poet reached higher peaks. He is one of the greatest poets in Andalusia as he combined between the traditional and modern poetic style was influenced by the orient poets. His poetry was as such a magnificent texture, clear, sweet and rhythmic, shows finesse and was called by critics as occidental Buhtouri.

Ibn Zaidoun lived an unstable life, full of fluctuations, and he was exposed to many tests and tragedies, which made him transfer between the good life and misery. This had significant effects on his poetry and claimed that aeon was responsible of this, he eulogized it in times and satirized in others. He was in a continuous struggle with it, surrounding in times and confronting it in others. He resorted to the aeon in fighting it, or resorting to his beloved or patience. He gave aeon several images in his poetry.

After reading Ibn Zaidoun works, infer the repetition of aeon and whatever related to it, it was evident that this phenomenon worth investigation as it was not limited to the repetition itself, but exceeded that to multiple images. This critical reading analyzed texts that revealed the image of aeon, its effect on Ibn Zaidoun poetry and his psychological state.

The study was divided into a preface and four chapters. In the preface, the study employed language dictionaries to identify the concept of aeon, its used terms and conceptions, the use of aeon in poetry, its features briefly,

the perception of the Arab towards aeon, Islam perception towards it in away serving the objectives of the study.

The first chapter addressed the biography of Ibn Zaidoun, his status among the poets, examined Ibn Zaidoun's poetry, the factors contributing on the formulation of aeon in his poetry, and these included emotional, political, cultural, religious, historical, poetic. These were presented generally and briefly.

The second chapter was entitled:" the aesthetic examination of aeon in Ibn Zaidoun poetry. In doing so, the study employed frequencies to locate aeon and related words in the poetry, the artistic use of aeon image, the poem structure and language in Ibn Zaidoun era, the stylistic features such as the use if repetition, music, rhythm, exquisitely, anaphylaxis, analogy in addition to the purposes of poetry as seen appropriate by Ibn Zaidoun with respect to aeon.

The third chapter was entitled: the features of aeon and the semantics movement. This chapter was divided into five sections. In the first section, the study addressed the authority of aeon by describing it as the destroyer, the separator, the changer, the traitor, the spoiler. In the second section, the study presented soldiers of aeon on Earth and this included the tragedies, the disasters. In the third section, the effect of aeon on the poet was examined and this was evident in death, being old and young, challenge, confrontation, and surrender. The fourth section examined the good side of aeon while the last one was dedicated to studying the chronological perspective to aeon in Ibn Zaidoun poetry on the whole and partial levels.

.

The fourth chapter was applied in nature and was entitled:' An applied study of Tal Al Shemas poem", in which this poem was examined and analyzed to detect the effect of aeon on the poem, on Ibn Zaidoun and his stance towards it.

The study clarified Ibn Zaidoun stance towards aeon, how he used it and how this use helped in clarifying Ibn Zaidoun psychological state.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. ابن الأبرص، عبيد، **ديوان عبيد ابن الأبرص**، تحقيق وشرح: حسين نصار، شركة مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، مصر، 1957.
3. ابن الأثير، ضياء الدين، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، حققه: أحمد الحوفي وبدوي طبانه، دار النهضة، مصر، 1950.
4. الأسعد، عمر، **معالم العروض والقافية**، ط1، مطبعة النور، عمان، 1984.
5. إسماعيل، عز الدين، **الشعر العربي المعاصر قضايا وظواهره الفنية والمعنوية**، منشورات دار العودة ودار الثقافة، 1981.
6. الأصفهاني، المرزوقي أبو علي، **كتاب الأزمنة والأمكنة**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996.
7. امرؤ القيس، حندج ابن حجر، **ديوان امرؤ القيس**، تحقيق ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، ط2، 1967.
8. أنيس، إبراهيم، **موسيقى الشعر**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط4، 1972.
9. البحتري، الوليد بن عبيد الله بن يحيى، **ديوان البحتري**، حققه وعلق حواشيه وقدم له، الدكتور عمر فاروق الطباع، المجلد الثاني، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2000.

10. البستاني، بطرس، **أدبا العرب في الأعصر العباسية حياتهم أثارهم نقد أثارهم**، دار المعرفة، بيروت، لبنان، مجلد9، 1986.

11. جرار، صلاح، **ولّادة بنت المستكفي**، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، 2011.

12. الجاحظ، أبو عثمان بن عمرو، **الحيوان**، تحقيق عبد السلام هارون، منشورات مكتبة مصطفى البابي، مصر، ط1، 1938، ص132.

13. الجرجاني، عبد القاهر، **أسرار البلاغة**، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، جدة – دار المدني، القاهرة، ط1، 1991.

14. جرير، جرير بن عطية، **ديوان جرير**، شرح: مجيد الطراد، دار الفكر العربي، بيروت، 2003.

15. ابن جعفر، قدامة، **نقد الشعر**، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت،1963

16. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن عليٍ بن محمد، **صيد الخاطر**، تحقيق وتعليق: عامر بن علي ياسين، دار ابن خزيمة، الرياض، 1997.

17. الجيار، مدحت سعد محمد، **الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي**، منشورات الدار العربية، ليبيا، 1984.

18. الجيار، مدحت سعد محمد، **موسيقى الشعر العربي قضايا ومشكلات**، دار النديم، ط2، 1994.

19. الحاوي، إيليا سليم، **ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره**، مكتبة المدرسة ودار الكتب اللبناني، بيروت، 1959.

20. ابن حزم، علي بن أحمد، **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، 1971.

21. الحسين، أحمد جاسم، **الشعرية دراسة في شعر ابن زيدون المعتز العباسي**، الأوائل للنشر والتنزيع، سوريا، 2000.

22. الحلبي، ابن الأثير، **جوهر الكنز**، تحقيق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، 1980.

23. ابن خازم، بشر، **ديوان بشر بن أبي خازم**، قدمه وشرحه: صلاح الدين الهواري، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1997.

24. خلوصي، صفاء، **فن التقطيع الشعري والقافية**، ط3، مطابع دار الكتب، بيروت، 1966.

25. الخليل، لؤي علي، **الدهر في الشعر الإندلسي**، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، 2010.

26. أبو ذؤيب الهذلي، خويلد بن خالد، **ديوان أبو ذؤيب الهذلي**، تحقيق: أنطونيوس بطرس، دار صادر، بيروت، 2003.

27. ذو الأصبع العدواني، حرثان بن محرث، **ديوان ذي الأصبع العدواني**، تحقيق: عبد الوهاب محمد العدواني و ومحمد نائف الدليمي، مطبعة الجمهور، الموصل، 1973.

28. ريبيرا، خوليان، **التربية الإسلامية في الأندلس أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية**، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، 1981.

29. الركابي، جودت، **في الأدب الأندلس**، ط4، دار المعارف، مصر، 1960.

30. ابن الرومي، **ديوان ابن الرومي**، شرح وتحقيق: عبد الأمير علي مهنّا، ج5، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1991.

31. الزبيديّ، مرتضى، **تاج العروس**، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الكويت، ط2، 1986.

32. ابن زيدون، **ديوان ابن زيدون ورسائله**، شرح وتحقيق: علي عبد العظيم، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1980.

33. ابن زيدون، **ديوان ابن زيدون**، تحقيق: كامل الكيلاني وعبدالرحمن خليفة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط1، 1932.

34. ابن زيدون، **ديوان ابن زيدون**، تقديم وشرح وتعليق: أحمد فاضل، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 2004.

35. الشايب، أحمد، **أصول النقد الأدبي**، منشورات مكتبة النهضة، القاهرة، مصر، 1964.

36. شحادة، عبد العزيز، **الزمن في الشعر الجاهلي**، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، عمان، 1995.

37. شحادة، عبدالعزيز محمد، **الزمن في الشعر الجاهلي**، المكتبة الوطنية، عمان، 1995.

38. ابن شداد، عنترة، **ديوان عنترة بن شداد**، دار صادر، بيروت، 1992.

39. الشنتريني، ابن بسام، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، القسم الرابع، الجزء الأول، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1945.

40. الشنتريني، ابن بسام، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق د. إحسان عباس – القسم الأول، ج1.

41. صالح نافع، عبد الفتاح، **الصورة في شعر بشار بن برد**، منشورات دار الفكر، عمان، الأردن، 1980.

42. صلاح، عبد الحافظ، **الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره**، دراسة نقدية نصيّة، دار المعارف، مصر، 1982.

43. ضيف، أحمد، **بلاغة العرب في الأندلس**، ط2، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، 1998.

44. ضيف، شوقي، **تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات**، دار المعارف، القاهرة، 1993.

45. ابن طباطبا، أبو الحسن، **عيار الشعر**، تحقيق: طه الحاجري، ومحمد زغلول سلام، منشورات المكتبة التجارية، القاهرة، 1956.

46. طرفة ابن العبد، **ديوان طرفة بن العبد**، تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصّقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1975.

47. الطريفي، يوسف عطا، **شعراء العرب**، المغرب والأندلس، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2007.

48. العامري، لبيد بن ربيعة، **ديوان لبيد بن ربيعة العامري**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1966.

49. العامري، لبيد بن ربيعة، **ديوان لبيد بن ربيعة العامري**، دار صادر، بيروت، 1987.

50. عبد العظيم، علي، **ابن زيدون عصره وحياته وأدبه**، منشورات، المكتبة الأنجلو، القاهرة، 1955.

51. العسكري، أبو هلال، **الفروق في اللغة**، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1979.

52. عصفور، جابر أحمد، **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي**، منشورات دار الثقافة، القاهرة، 1974.

53. عنان، محمد عبد الله، **دول الطوائف**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1960.

54. عناني، محمد زكريا: وفوزي سعيد عيسى، **في الأدب الأندلسي**، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، مصر، 2001.

55. عيسى، عبد اللطيف يوسف، **الصورة الفنية في شعر ابن زيدون دراسة نقدية**، ط1، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان 2011.

56. العيني، بدر الدين أبو محمد محمود بن احمد، **عمدة القاري شرح صحيح بخاري**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1972.

57. الغلاييني، الشيخ مصطفى، **جامع الدروس العربية**، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1992.

58. ابن فارس، أبو الحسين بن زكريا، **مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، ج2، دار الفكر، لبنان،1979.

59. ابن الفرضي، عبد الله بن محمد بن يوسف: **تاريخ علماء الأندلس**، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، 1966.

60. فوغالي، باديس، **الزمان والمكان في الشعر الجاهلي**، عالم الكتب الحديث وجدارا للكتاب العالمي، إربد، 2008م.

61. ابن قتيبة، أبو عبد الله بن مسلم، **تأويل مختلف الحديث**، صححه وضبطه: محمد زهري النجار، ط1، دار الجليل، بيروت، 1973.

62. ابن قتيبة، أبو عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر،1982.

63. القرطاجي، أبو الحسن حازم بن محمد، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.

64. القرطبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، **الجامع لأحكام القرآن**، تصحيح: أحمد عبد العليم، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1967.

65. القزويني، الخطيب، **الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق: عبد القادر حسين، مكتبة الآدب، القاهرة، 1996.

66. القزويني، الخطيب، **الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق: علي بو ملحم، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط2، 1991.

67. القشيري، مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم بشرح النووي**، ج15، ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت،1972.

68. ابن قميئة، عمرو، **ديوان عمرو بن قميئة**، عني بتحقيقه وشرحه وعلق عليه، حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، 1965.

69. القيراوني، أبو علي الحسن ابن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط4، دار الجليل، بيروت، 1972.

70. القيرواني، ابن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ج1، ط5، دار الجليل، 1981.

71. الكفوي، أبو البقاء محمد بن موسى الحسيني، **الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، مصحح ومحقق: محمد مصري، وزارة الثقافة والإرشاد، دمشق، 1974.

72. كوين، جون، **اللغة العليا**، ترجمة: د. أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة، 1995.

73. لوتمان، يوري، **تحليل النص الشعري بنية القصيدة**، ترجمة: محمد فتوح أحمد، دار المعارف مصر، 1995.

74. المجذوب، عبد الله الطيب، **المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها**، ج1، ط3، الكويت، 1989.

75. المجذوب، عبد الله الطيب، **المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها**، ج2، دار الفكر، بيروت، 1970.

76. مجيد الهلالي، عبد الرزاق، **ولاّدة وابن زيدون**، مطبعة المعرف، بغداد، 1947.

77. المراكشي، ابن عذارى، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ومراجعة، ج.س كولان وإلفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1983.

78. المرتضى، الشريف علي بن الحسن، **غرر الفوائد ودرر القلائد**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1954.

79. ابن المعتز، **كتاب البديع**، علق عليه: اغناطيوس كراتشقوفسكي، مكتبة المثنى، بغداد، ط2، 1979.

80. **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، إستانبول، 1989.

81. مفتاح، محمد، **تحليل الخطاب الشعري**، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 1986.

82. الملائكة، نازك، **قضايا الشعر المعاصر**، دار العلم للملايين،بيروت، ط5، 1978.

83. ابن الناظم، **المصباح في المعاني والبيان والبديع**، تحقيق: حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب الجماميز، د.ط، د.ت.

84. ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط5، 1956.

85. النويهي، محمد، **ثقافة الناقد الأدبي**، مكتبة الخانجي، بيروت، ط2، 1969.

86. والي، فاضل فتحي محمد، **الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي**، دار الأندلس للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، 1996.

87. يونس، جمال، **لغة الشعر عند سميح قاسم**، ط1، مؤسسة النوري، دمشق، 1991.

الرسائل والدوريات:

88. الجيوسي، سلمى خضر، **أثر ابن زيدون في الشعر الأندلسي**، جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، دورتها التاسعة، 2004.

89. الحلحولي، محمود أحمد، **الدهر في الشعر الجاهلي والإسلامي**، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 1990.

90. الحوراني، محمد عيسى عبد الله، **الدهر في شعر ابن الرومي**، دراسة تحليلية، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك،2013.

91. خضر، فوزي، **عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون**، رسالة دكتوراه، جامعة الإسكندرية، 2004.

92. الدلاهمة، إبراهيم مصطفى سليمان، **ظواهر أسلوبية في شعر ابن زيدون**، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك، إربد، 2005.

93. شنوان، يونس، **الليل في شعر ابن زيدون**، سلسلة أبحاث جامعة اليرموك، 2002.

94. قطوس، بسام، **البنى الإيقاعية في مجموعة محمود درويش**، حصار لمدائح البحر، أبحاث اليرموك، سلسلة الأداب واللغويات، ج9، ع1، 1991.